431

كما يليق بالخيبة

أحمد قرني

رواية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كما يليق بحفيد

«رواية»

أحمد قرنى

وزارة الثقافة
الهيئة العامة لقصور الثقافة

سلسلة
أصوات أدبية

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
سعد عبد الرحمن

أمين عام النشر
محمد أبو المجد

الإشراف العام
صبحي موسى

الإشراف الفني
د. خالد سرور

• كما يليق بحضنه
• أحمد قرني
• الطبعة الأولى:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2011م
200ص. 13,5 × 19,5 سم
• تصميم الغلاف: د. خالد سرور
ممدوح بدران
• المراجعة اللغوية: محمود أبو عيشة
• رقم الإيداع: ١٩٢٥٦ / ٢٠١١
• الترقيم الدولي: 978-977-704-824-8
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالي: ١١٥ شارع أمين سامي - قصر العيني
القاهرة - رقم بريدي 11561
ت: 27947891 (داخلي: 180)

• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904095

• هيئة التحرير •

رئيس التحرير
محمد عبد المطلب

مدير التحرير
نور الهدى عبد المنعم

سكرتير التحرير
سعاد عبد الحليم

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة
بل تعبر عن رأي وتوجه المؤلف في المقام الأول

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة
• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن
كتابي من الهيئة العامة لقصور الثقافة أو بالإشارة إلى المصدر

431

سلسلة شهرية تعنى بنشر إبداع أدباء مصر
في الشعر والقصة والرواية

2

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(كل خطوة في الحياة هي خطوة نحو الموت..)

دي لافينيه

1

بعد أن تجاوزت سريعا شريط قطار السكة الحديد تلفت يمينا ويسارا باحثًا عن محطة سيارات الأجرة. صبي صغير لاحظ حيرتي جرى إلي مسرعًا، جذب الحقيبة من يدي وانطلق بها. ظننته لصًا، صرخت ورحت أتبعه بنظري وأنا أتعجل السير حتى ألحق به.. بالكاد تمر دون أن تحتك بهذه الأجساد التي تتحرك في كل الاتجاهات دفعة واحدة.. رأيته يضعها في سيارة ميكروباص قديمة.. أشار إلي بيده.. جلست على المقعد الخلفي.. المنادون يصرخون في طلب الركاب الذين يتحركون في كل اتجاه.

كانت السيارة الميكروباص التي ركبتها في انتظار الراكب الأخير حتى يهم السائق من على كرسيه بالقهوة المزدحمة بالسائقين حيث كان يمسك بكوب الشاي وسندوتش الفول، يسرع سائق الميكروباص حين يشير له الصبي إشارة اكتمال العدد. يلقي بقايا الكوب في فمه على دفعتين ثم يهم و يجلس على مقعد القيادة يمسك المقود وينظر إلى المرآة المثبتة على الزجاج الأمامي ليتأكد من أن السيارة مكتملة العدد.. عيون الركاب المنتظرة تتطلع إليه.. تتابع حركته..كان يتأفف.. يلاحظ بطء حركة الموتور.. يهبط سريعا ويفتح مقدمة السيارة يخرج بعض الأسلاك.. ثم يثبتها مكانها بدقة.. يتساقط العرق من جبينه.. يعود إلى مقعده، أحد الركاب لاحظ أن زجاج السيارة الخلفي مثبت عليه ملصق به عبارة "السيارة للبيع" نظر إلى من بجواره،

- ربنا يستر..

اندفعت السيارة في وسط الزحام حتى عبرت شريط السكة الحديد. كان خطاب ولاء ما زال في جيبي لم أقرأه، رحت أسحبه بأصابع لص محنك، تطلعت إليه. ترددت. كان شيء ما بداخلي يدفعني أن ألقيه من نافذة السيارة؛ لكنني لم أستطع. الراكب الذي بجواري لاحظ هذا التردد. بدأ يتابعني بفضول يبرز من عينيه المثبتتين على ورقة الخطاب. وجد في ذلك تسلية له عن متابعة السائق المترنح كسكير، يخرج عن طوره حين يسمع حشرجة في صوت الموتور. يدندن أغنية رديئة تتحدث عن أرملة. تخرج كل صباح إلى الشارع مؤججة بالفتن. تتطلع في وجوه المارة تبحث عن رجل فارع الطول تمتلئ عيناه بصباح جديد. ليس ككل الرجال الذين عرفتهم. تقع بوحشية تضيء جسده كقطعة كريستال أصلية، كان يرددها بامتهان شديد. يضغط الحروف الأخيرة منها. وبعدها يطالعنا في مرآته.

حين تعثرت على الطريق.ظن الجميع أنها ربما لا تكمل رحلتها إلى (قصر رشوان). المسافة ليست طويلة، لكن السيارة بحالتها هذه تبدو غير قادرة على إنجاز مهمتها. ربما تتعطل في أي لحظة. ونقضي ليلتنا في العراء. نلهو مثل قطط برية.

سأحرق أصابعي دفعة واحدة؛ لأنها أخرجت هذا الخطاب من جيبي على غير إرادة مني، حين وقفت على سطوره. حروفه ليست واضحة. تبدو مائلة. معوجة. هى شيدت هذا الخطاب على عجل. ربما كانت مترددة؟ لماذا أصرت أن تكتب هذه الكلمات التي غرقت فى دمها وتكسرت حروفها وبدت مشوهة. بخط متعرج؟ كنت في حاجة ملحة الآن إلى صوت فيروز. أستمع إلى صداه يسكن جسدي الشاحب وهي تردد "جسر اللوزية" أنتفض، أتخيلني في فراشي وحيدا أغسل أحلامى. أنام من دون ثياب. أتقلب بين حرائق تأكلني. لماذا تدخلني ولاء لوحة سريالية وتتركني؟! لوحة سريالية بلا

أفق.. تمتد عتمتها إلى داخلي، القباب التي انتشرت على جانبي اللوحة.. تشبه شواهد قبور الموتى.. في المنتصف يقف غراب برأسين.. في الأعلى جماجم وعظام نخرة.. كانت تتحدث في خطابها عن أمنيتها في الخلاص مني.. وضعت نقاط كثيرة فوق الحروف التي بدت باهتة، تنحدر كلماتها من أعلى الصفحة كشلال هادر.. تركت مسافة بيضاء.. لاحظت ذلك.. مسافة بيضاء تعبرها كلمات عرجاء..وحروف تجرها خيول عربات الموتى.... حاولت أن تكون متماسكة وهي تتحدث عن طلاء الحائط.. قالت إن هذا الطلاء كلما مر عليه الزمن يتشقق ويسقط.. هل كانت تشير إلى علاقتنا؟.. قالت إنها لا تريد أن تتسلق أفكاري.. لا تريد أن تتعب نفسها في الجري وراء رجل يسير في الهواء.. رجل يصعد على أمنيات لا تمشي على قدمين.. كانت تقصد أن داخلي مشوه، وأنني أسير بلا وجه.. بلا ملامح.. أتحسس كلماتها في الخطاب.. تبدو ساخنة.. ولها رائحة نفاذة مثل النشادر.. حين وقع السائق في حيرة.. ومد يده إلى عصا الفتيس.. راجع عداد السرعة ثم نظر إلى عداد الحرارة، لم يكن مرتاحا.. أطفأ الموتور ونزل على عجل.. فتح مقدمة السيارة وراح يراجع الوصلات الكثيرة المتشابكة.. شعر بارتياح كأنه وجد الحل.. رفع زجاجة مياه وأفرغها على الموتور الملتهب.. تراجع إلى الوراء.. بنهم أشعل سيجارته كأنه أحس أخيرا بالنصر.. سعل بشدة حين تسرب الدخان إلى حلقه.. بصق وتحرك ببطء إلى مقعده.. أدار المحرك.. حين دوي صوته.. شعرنا براحة، كان الغروب قد بدأ ينسج خيوطه الواهية حول الطريق.. خيوط رقيقة لا تكاد ترى.. مائلة للحمرة.. أفقت من متابعته و انشغالي في تتبع كلماتها التي تتحرك في كفي كقطط لقيطة.. كلمات مثل كوب مشروخ لا يحتفظ بالماء مهما حاولت، نحن لا نستطيع كبشر أن نفكر في شيء لا تسمح به كفاءتنا اللغوية، كما أننا لا نستطيع أن نتكلم عن

أشياء لا نستطيع التفكير فيها.. نحن محكومون على مدى بعيد في أفكارنا وأفعالنا باللغة التي نعرفها، اللغة لا توجد في فراغ مثل الذي تحدثت عنه ولاء. فراغ بحجم هائل يسكنه غبار كثيف وكائنات شائهة بلا عيون تسقط مثل ديناصور مخيف.. قالت لي.. "ربما تسقط مثل أي حائط قديم.. يسقط دائمًا بلا سبب.. فقط لأنه قديم.."

وأنا صغير، كنت أحلم أن يسقط القمر في حجري وأحمله وأدخل به إلى دارنا الواسعة. أفرغ ما به من فاكهة وأتركه يعود. كان دائمًا يقف فوق دارنا وحيدا. طوال الليل. كانت أشعته الذهبية تنساب داخل أرواحنا. نوره كان يصل إلى الصالة. كان واحدا من سكان دار جدي. هذه الدار التي بناها لنفسه بعيدا عن الناس. بناها في الخلاء بعيدًا عن المدينة. سنوات وسنوات مرت حتى وصل العمران إلى هنا، لم يكن يتخيل أن يأتي يوم و تمتد إلى أرض الكيمان يد العمران، جدي اختارها بعيدة هادئة. مخيفة. مهجورة. لا تصل إليها قدم إنسان إلا إذا كان تائها أو عابر سبيل، أمي حكت لنا أن جدي: "لما بنى لنا هذه الدار وانتقلنا للعيش فيها.. بقينا سنوات لا نرى بشرا ولا يرانا أحد قط.. سنوات من الوحدة والعذاب وجدك صامد لا يلين رغم إلحاحنا المستمر عليه أن نعود إلى البلدة حيث الناس والحياة والسوق. جدك كان مثل العود الناشف إذا أردت أن تثنيه انكسر في يدك. ظل على رأيه حتى رحل عنها ومن بعده لم نستطع أن نعود. كل من كنا نعرفهم سقطوا من الذاكرة المجهدة. لم يعد لنا أحد نعود لأجله،فكرنا كثيرا أنا وأبوك لكننا لم نأخذ قرارا. تعودنا على هذه الغربة حتى أحبتنا، كنا ننتظر سرب البط الذي يحط على بيتنا كل شتاء في موسم هجرة الطيور. حين كنا نراه يسبح في السماء نفرح. نطير من الفرح. البط هو الكائن الوحيد الذي يعبر كل هذه المسافات لكي يأتي إلينا في هذه

الأرض البعيدة، لا يزورنا أحد قط حتى أصدقاء جدك الذين كانوا لا ينقطعون عن زيارته هناك حين كنا نعيش بينهم،كانوا يحضرون إلى البيت يتحدثون في كل شيء يضحكون ويغضبون. جدك لم يكن يكف عن الحديث في أشياء كثيرة، وكنت صغيرة ساعتها لا أفهم، أحمل إليهم صينية الشاي يأخذها جدك ويفرق الأكواب عليهم وهم يلقون بسماتهم في حجري. أحدهم يمد يده إلى شعر رأسي ويوجه حديثه إلى جدك: "حفيدتك عائشة ستكون فتاة جميلة عندما تكبر." ترتج أطرافي وأشعر ببرودة وصقيع يدخل جسدي أهرب من أمامهم سريعا.. أدخل إلى حجرة أمي.. أقف أمام المرآة أمسح بعيني ملامح الوجه الذي ما زال يكتمل أتابع تفاصيل الوجه أتحسس الأنف الصغير أشعر أنه ربما في القريب سيتشكل فيبدو كقطعة من كريستال تستقر فوق الفم حيث الشفتان تخرجان في امتلاء لم يكتمل بعد. أضغط عليهما بأسناني تمتلئان بالحمرة. العينان يميلان إلى الزرقة.. لون سماء صافية.. تحملان براءة طفلة.. لكنهما وبعد قليل كما أظن سيشرقان كقمرين يطلان كلما رفعت عنهما غطاءهما. حين وقعت عيني على النهدين اللذين كانا يستقران في وداعة. كنت ألحظ نموهما البطيء.. أعرف أن الأنوثة تكمن في ملمسهما الناعم، وأنه حتما ستكتمل استدارتهما وبعدها يسكنان في هدوء طويل.. أما الخصر المتصل بالأرداف وإن لم تتشكل تضاريسه الآن أعرف أنه لكي أصبح فتاة جميلة لابد من أن تتشكل هذه المنطقة من جسد أي فتاة بعناية. الأمر يحتاج إلى بضعة أعوام فقط ولابد من أن أتابعها يوما بعد يوم حتى يكتمل نحتها، لكن حين أتراجع إلى الوراء قليلا لكي أشاهد جسدي كله في المرآة، أشعر أنني أمام فتاة تشبه فينوس ربة الجمال التي كان جدك يناديني باسمها أحيانا، أتراجع أكثر لأتأكد من أن كل أجزاء جسدي متناسقة.. أرفع الفستان قليلا لأري الساقين ثم أعلو..

وأعلو.. ينتابني الخجل وأنا أري نفسي كفتاة إغراء أشاهدها على غلاف إحدي المجلات.. ورغم ذلك أبتسم لنفسي رضا. أتمنى أن أطفئ المصباح الآن لكي أري جسدي يضئ الحجرة ويسطع كبدر مكتمل.. أبوك علي الباسل وحده الذي امتلك هذا الجسد في ليلة ذات قمر ناعس.

حضر أبوك إلى بيتنا وقابل جدك وتحدثا معًا.. جدك لم يفاتحني في شيء لكن عيناه كانتا تهربان إلى البعيد وكأنهما نجمتان غارقتان في غيوم سوداء. حين أتيت إلى الدنيا أضاء جدك البيت كله حتى السراج الكبير الذي كان يخبئه في حجرته.. أخرجه من أجلك.. فكر كثيرا وقال:

- سنسميه.. سراج

رفضنا أنا وأبوك لكننا رضخنا لإرادته، جدك كان يملك إرادة قوية.. منذ أن أتيت إلى البيت.. كان كل ليلة يتسحب من فراشه ليلا لكي يراك ويضمك إلى صدره.. مرة رأيته يبكى.. بكاء جدك كان صعبا لكنه كان يحبك، كان أول شيء يفعله عندما يصحو من نومه يقول:

-أين سراج؟

كان أنيقا وسيما رائعا.. هل تذكر؟ كان يحكي لك حكايات الغزلان والفراشات الطيبة،كنتما تجلسان الساعات الطويلة معًا على سطح البيت تراقبان حركة البط المهاجر وإذا حل الليل صعدتما إلى السطح مرة ثانية كي تجلسا في ضوء القمر كان يحكي لك عن طبق القمر الممتلئ بالفاكهة وأنت تنظر إليه وتبتسم كنت صغيرا تحلم بجناحي يمامة لتطير بهما إليه كنت رائعًا وأنت صغير يا سراج..".

في الأيام التي لا يجيء فيها القمر فوق بيتنا لا يستطيع أحد أن يتحدث مع جدي مزاجه يصبح متقلبا يحتجب كثيرا عن رؤية

الجميع حتى أمي. هي التي روت لي ذلك، "يسقط النوم من عينيه.. ترتع الفوضي داخل جسده النحيل.. لا يشتهي وجبة العشاء الدافئة التي كان يقبل عليها بنهم،لم يكن يقبل على أحد إلا أنت.. كلما حاول أبوك أن يقترب منه كان ينهره.. لا يضيء السراج الكبير أبدا في البيت.. يظل قابعا في حجرته البحرية ساكنا يعود إلى أوراقه يتصفحها، يدس رأسه بالساعات الطويلة في الكتب.. أتابعه من ثقب الباب حتى أطمئن أنه بخير ومع توسلات عديدة يخرج إلى عائشة أمي وبعد توسلات عائشة يقبل أن تدخل إلى غرفته لتنظيفها تري أعقاب السجائر التي أقلع عنها منذ سنوات والفنجان المقلوب وروايات روسية مترجمة (الجريمة والعقاب) (الأرواح الميتة)..كتب مبعثرة ..الخصائص ...البيان والتبيين .. كان يسير حافيا يأكل كسرات من الخبز الناشف في الأيام الأخيرة التي قضاها بالبيت لم يفق من شروده إلا قليلا.. ظننا أن التصوف قد شغله عنا.. كنا نفكر به كثيرا ننشغل بالأسئلة التي لاحقتنا عنه، هل كنا نجهله؟.. لم نكن نعرفه.. الفزع كان يلاحقنا ليل نهار.. كان خروجه من الدار أمرا لم نستطع أن نفهمه".. أمي روت لي تفاصيل كثيرة لكنها لم تقدم لي تفسيرا لما حدث.

سقط الخطاب من يدي حين انحرف السائق بقوة إلى جهة اليسار حيث المدق الترابي،كان طريقا غير ممهد والظلام قد أحاط بالسيارة من كل اتجاه الأشباح تتقافز في الخارج، ترتج السيارة تتمايل تصبح كرة في يد شبح بوجه ممتلئ بتضاريس التلال والهضاب، يتوقف السائق فجأة.. تجحظ العيون وترتجف الأطراف.. لا أستطيع أن أنحني لالتقط الخطاب من أرضية السيارة.. الصقيع يتسرب إلى الأوردة الناشفة والعروق التي توقف الدم فيها عن الجريان.. الطريق إلى قصر رشوان مليء بالأفاعي تحلق على مقربة منا بعيون جاحظة وألسنة مدلاة تقطر سما، هذا

كمين من صنع الأفاعي، كانت على علم بقدومنا إلى هنا.. لا تريد أن يقترب أحد من أرضها، ربما تحيط بالسيارة الآن تريد أن تمص دمنا وأنا أسمع فحيحها بالخارج.. كيف وصل جدي إلى هنا منذ زمن بعيد؟! ولماذا اختار قصر رشوان بالذات؟ ربما أتي في سيارة كهذه.. السائق بدا كسولا.. لا يريد أن يفعل شيئا.. ربما كان يخشى أن يهبط إلى هذه الأرض في هذا الوقت من الليل.. يجلس بلا حراك كأنه مغشي عليه في التو.. هل حان الوقت كي تضرب الأفاعي مؤخرة السيارة.. كلما تذكرت خطابها أخجل كثيرا من ولاء.. كانت تتصورني أتقيأ الآن ماضيا ملوثا وحدي أتجرع مرارته الآن ووحدي أسير في طريق لا أعرفه.. وراء جدي.. أجلس كفيل الشطرنج أمضغ كومة من الحسرات أمامي، ولاء تلك المرأة التي تحمل بسمة طفل وترقد في وداعة الملائكة كيف استطاعت أن تكتب هذه الكلمات المنتزعة من رأس شيطان؟!.. أليس من الممكن أن ترى نفسك الآن منكمشة بين ضلوعك فارة منك تشعر بالفراغ الكائن بين السماوات والأرض، تحس بلمعان الثلج.... ثم تركت مسافة قليلة وكتبت.. أنها تريد أن تبقي حرة كالفيضان لا تريد أن تهدأ، ولكن تريد أن تكتسح الآلام وتجرها إلى واد سحيق تختفي الكائنات أمامنا.. لا أرى من زجاج السيارة غير الليل يخرج للنائمين، يمتطي جياده يمر من بين أناملهم يفرش طاولة ويضع زجاجات وطعاما ويأكل بشراهة، سعل السائق وكح.. أشعل الراديو وانتظر الصباح.. تظهر حفنة من البيوت نائمة هناك في حضن الجبل.. راقدة في وداعة، تمتص رحيق الصباح المتبل بهواء بارد منعش محمل برائحة بكر.. تنساب من أعلى الجبل، لا شيء يمسكه إن أراد أن يقع على هذه البيوت النائمة في استسلام، لا أقوى على الحراك وأنا أخرج من السيارة حاملا حقيبتي، تابعت السيارة التي اختفت سريعا كأنما ابتلعها الجبل في بطنه تحسست جيبي، شعرت به

مستقرا.. رأيت جروا صغيرا يلهو بين شجرتين بدا منهمكا في اللعب ربما لم يشعر بمروري على المدق.. إذا فتحوا بيوتهم وفجأة رأوني أمامهم.. أقع كحجر يلقى في مياه راكدة.. قلت: أبحث لهم عن مبرر لحضوري إلى هنا غير الذي جئت من أجله.. المدق الصغير مليء بالحفر والمنحنيات، تبدو البيوت أمامك.. لكنها بعيدة.. أحدهم يلقي عليّ السلام وهو راكب دابته يحثها على السير، وهي تبدو غارقة في كسل المساء.. حين تجاوزني، عاد يدقق في هذا الغريب الذي يطرق بيوتهم في وقت مبكر.. نزل عن دابته وسارع خلفي:

يا أستاذ.. هل تريد سعيد عقرب؟.. بيته من هذه الناحية لا تسأل كثيرا كل ما تريده ستجده.. أمامك على الأقل يومان حتى يعود من الجبل.. لا تتعجل في طلبه.. سعيد لن يعود من الجبل حتى ينجز مهمته.

الرجل يتحدث كأنه يعرفني، وجهه منهك بتجاعيد الزمن.. تابع حديثه بعد أن اعتلى دابته:

إذا كنت متعجلا ولديك ظروف، فستأخذك زوجته فرحة إليه.. هي تعرف المغارة التي يسكنها.. لكن إذا قررت أن تذهب فلابد أن تعرف أن هناك مخاطر.. الجبل وحش من يقترب منه لابد أن يحتاط.. وأنت غريب.

ألقى كلماته التي تبعثرت خلفه على المدق.. واختلط بها الغبار الكثيف الذي أثاره وقع أقدام الدابة على الأرض.. طائر الدهشة حط على كتفي.. من يكون هذا الرجل وعمن يتحدث؟! ذراعي تعب من حمل الحقيبة.. والمدق لا ينتهي.. من سعيد عقرب الذي يظن أنني قد أتيت من أجله؟ رميت بصري هناك عند آخر المدق الذي يضيق ثم مع انحناءة رقبته يتسع ليمتلئ الأفق بشواهد القبور.. أو ربما هي بيوت من طين، لا فرق كبير بينها وبين القبور.. تري كيف حال الناس في هذه الأرض؟! ربما لا يدركون أن العالم قد

تغير من حولهم كثيرا وهم لايزالون يرقدون في هذه البيوت المسقوفة بجريد النخل.. التراب الذي تسلل إلى صدري جعلني أسعل بشدة.. وقفت ألتقط أنفاسي اللاهثة.. شد انتباهي سرب من الأوز ينزل على عجل إلى مسقاة يجري بها ماء قليل.. يبدو فرحا وأفراده يتسابقون إلى الماء.. يلقون أجسادهم وهم يحركون أجنحتهم ويضربون سطح الماء الراقد منذ الأمس.. منظر لا تجده هناك في مدينة غارقة في ضجيجها.. لا تنام أبدا.. لماذا تصر الحكومة وبعد كل هذه السنوات الطويلة أن تأخذ بيت جدي..؟!! لا يمكن أن ننام في الشوارع مثل الكلاب الضالة.. بيت جدي الذي تعب في بنائه وشيده بيديه ليكون لنا من بعده.. كيف تمد الحكومة الآن يدها إليه تريده لها وحدها.. تضع عليه لافتة مكتوبا عليها عبارة (ملك الدولة).. أمي تلتصق بجدرانه تتعلق بنوافذه تتشبث بستائره.. الدوائر تضيق أمام عيني،لم أعد أرى.. كوابيس رمادية تفزعنا في الليل، أستيقظ كورقة محروقة ورأسي مملوء رملا وفراغ يوثق يدي ويتمدد داخلي.. انتاب أمي نوع من الحمى لازمتها أياما.. رقدت في الفراش طويلا ربطت منديلا حول رأسها.. تغرق أحيانا في نوبات من الهذيان.. تصطك أسنانها، كانت ترى أناسا بلا رؤوس يقتحمون البيت يدخلون إلى كل ركن فيه، كانوا يرتدون ثيابا رثة ويتشحون بالسواد،كانت مرتجفة وهي تحكي عنهم.. ربما تراهم الآن يقفون بين يديها على هيئة مفزعة.. منذ دخل رجال الحكومة إلى البيت وهي تقف أمام صورة أبي التي علقتها في حجرة نومها.. ربما ترجوه أن يعود الآن، إنها اللحظة المناسبة لعودته.. ربما تراه الآن ملقى في زنزانته يهذي وهو معصوب العينين يرقد في ركن الزنزانة كسلعة نافقة تحوم حوله الهوام والحشرات تتأمل صورته الأنيقة وهو يرتدي السترة العسكرية ويضع الباريه على رأسه مزهوا بنفسه، ونجمتان تستقران على كتفه وشاربه المشرب بالحمرة

يزيده وقارا يليق برجل عسكري خاض معارك طاحنة مع العدو وخرج سالما.. ربما أصابته شظية في إحدي المرات، لكنه دائما يعود إلى عائشة ليحكي لها عن ظروف الحرب وكيف أن عناية الله أخرجته منها سالما..كل مرة كان يقول لها ذلك وهي تصغي إليه باهتمام، لكن هذه المرة لم يعد كي يقص عليها ما حدث.. لم يعد أبي من الحرب الأخيرة وتركنا.. ربما حتى لم يعلم برحيل جدي عن البيت.. سنوات عجاف مرت عليها، ولم يعد الأسير.. رسالة أو ربما رسالتان وصلتا إليها.. كان يتحدث عن لحظة أسره وكيف قضى أياما طويلة لا يعرف ما إذا كان ميتا أومازال حيا، ردد في رسالته كلمات ممزقة.. كلمات خارجة لتوها من ماء عطن، طائر بحجم العنقاء حط على صدره، الأيام تمر بطيئة ثقيلة كالحذاء الميري.. إنهم يدموننا يمزقوننا كخرقة من القماش البالي، بعضنا حفر قبره بيده وتمنى أن يدخله لكنه لم يستطع.. الذي انتشله الموت من بين أيديهم كنا نسعد له.. كان يذكر أمي بالساعات التي قضاها معها آخر مرة قبل رحيله حين جلسا معا تحت شجرة الفيكس التى تتوسط حديقة بيت جدي وتحدثا معا عن الطفل القادم.. عني.. كنت في الطريق إليهم وكان أبي شغوفا أن يراني.. أمي هي الوحيدة التي تصدق أن أبي سيعود، أما أنا وولاء فلا نصدقها.. من المؤكد أنه قد مات.. لا يمكن أن يبقى حيا كل هذه السنين.. الحرب انتهت.. لو كان حيا لعاد.. أبي مات.. مات.. هي لا تريد أن تصدق.. أبي لن يعود لكي ينقذ بيت جدي من يد الحكومة.. إنه مات مثل كل الذين يذهبون إلى الحرب ولا يعودون منها أبدا

2

هناك جثث كثيرة ملقاة فى التاريخ لا يعرف أحد من قتلها

قمائن الطوب التي انتشرت حولنا وملأت فراغ المكان الخالي، رمال تمتد أمام ناظريك.. الطريق الأسفلتي الممتد من المدينة إلى (كيمان فارس).. الأنوار وأعمدة الكهرباء.. البيوت التي تراصت في انتظام إلى أن وصلت إلى هنا.. العربات والدكاكين.. كل ذلك لم يكن موجودا حين قرر جدي الخروج ليأتي إلى هنا وسط هذه الرمال الواسعة، مكث أياما يبحث وينقب حتى ارتقى أرض الكيمان المليئة بالعشب حفر بئرا ووجد الماء الذى يقيم الحياة هنا فى هذه الرمال حين اقتربت الشمس من رحيلها عن الوادى رأى حزمة من شعاعها تسقط على تل يشبه الخيمة حينها قرر أن يبني داره في هذا الفراغ وأحضر معه سراج لينير البيت، صنع سورا بارتفاع متر ونصف وبداخله أقام البناية.. سور قصير من الجهة البحرية وضع له بابا خشبيا، ترك مسافة تقدر بنحو عشرة أمتار وبعدها شرع في إقامة المبنى، هذه المسافة التي تركها في المدخل أصبحت فيما بعد حديقة قسمها جدي إلى أحواض.. تضاعفت مساحتها .. ملأها بأنواع الزهور النادرة.. حين تدخل من الباب الرئيسي.. تجد أمامك صالة واسعة.. بها شباك كبير يطل على الحديقة، لا يوجد بالصالة سوي ترابيزة خشب وكرسي وحيد ولوحة فنية لرجل يمتطي حصانا ويضع أمامه بندقية وأحد أرجل الحصان مرتفعة عن الأرض تشير إلى أنه يمشي.. بينما تقبع في الخلفية شمس تشرق من بعيد أظنها على هيئة رأس طفل وأمي

تقول إنها تبدو في بعض الأحيان كفوهة تنور.. على يمين الداخل توجد حجرة صغيرة بها أنتريه عربي وستلاحظ وجود ستارة على الشباك الوحيد بها وستلاحظ أيضا أن هذه الستارة منقوش عليها نمنمات عربية تصور طاووسا يفرد أحد جناحيه ويرفع رأسه إلى أعلى.. ولا أخفي ولعي بهذا الطاووس ووقوفي أمامه بالساعات الطويلة وأنا أتطلع إلى جناحه المزركش.. أسأل جدي: لماذا لا يستطيع الطيران مع أنه يملك كل هذا الجمال؟! وأنا صغير كنت أحلم بطاووسنا يطير مع البط المهاجر.. أراه حقيقة وليس حلما.. هكذا كنت أحاول إقناعه وجدي يبتسم ويضمني إليه.. أسمع قلبه وهو يدق أفرح وأدقق السمع.. أدخل أكثر إلى حضنه أحس بعظام ضلوعه.. أشعر براحة وكأنما أنام.. هكذا كان يتصور لكنني كنت أرقب حركات أصابع يده وهي تتسلل إلى شعري وهو يحكي عن زمانه.. يدق قلبه أكثر أو هكذا كنت أشعر أنه يبتهج وحين تصعد السلم الموجود على يمين حجرة أمي.. سترى رأس الكبش المعلقة على حائط السلم.. جاحظ العينين وله قرنان مدببان.. تعودنا هنا في البيت على منظره ولم نعد نخشاه رغم أننا نبتلع ريقنا في كل مرة نمر من أمامه سواء كنا نصعد السلم أو نهبط.. وربما تتخدر ساقك وأنت تتخيل مشهد انقضاضه عليك.. وأنا صغير كنت لا أصعد ولا أهبط إلا إذا كنت في صحبة أحد من الكبار في البيت، وبمرور الزمن تعودنا على رؤيته ولم نعد ننزعج لوجوده وحين تصل إلى السطح لن تجد سوى مكان خالٍ.. لن ترى سوى سور بارتفاع متر يلف السطح وبعض ألواح الأخشاب التي يحتفظ بها جدي منذ زمن وبقايا ألواح صاج ومسامير يعلوها الصدأ وطلقات بندقية فارغة، البندقية التي يعلقها جدي على حائط غرفته.. لم تستخدم منذ زمن بعيد.. ربما يعلوها التراب الآن أو أكل حديدها الصلب صدأ قديم.. نسيناها جميعا وأعطيناها ظهورنا.. تركناها معلقة

على حائطها منذ رحيل جدي لم يفكر بها أحد أبدا.. أدرنا رؤوسنا بعيدا عنها نلمحها لكننا لا نراها.. كان ينفق الوقت الطويل في تنظيفها والاعتناء بها.. كانت تحتاج إلى لمسة جدي وحنانه.. تحتاج إلى من يذكرنا بجولاتها في مطاردة الكلاب الضالة التي كانت تحوم حول البيت.. طلقة واحدة من فوهة الماسورة كفيلة بإرباك قطيع الكلاب وإجباره على الفرار رغم الجوع الشديد الذي يقرص بطنه.. النباح المسعور الذي يتواصل طوال الليل.. نسمعه من بعيد، ربما إذا سمعته هنا في الخلاء عند بيت جدي ستعرف أنه لا يتشابه مع نباح الكلاب الهزيلة الذي تسمعه في شوارع المدينة في ليلة كهذه حين تشتد برودة الجو وينتفض كل سكان البيت، وربما تتجمد عروقنا ونرتدي أثقل ما لدينا من ملابس صوفية ونضع الأغطية السميكة على أجسادنا المفتتة من شدة البرودة.. نغلق جميع النوافذ والأبواب لكن البرد اللعين هنا يستطيع أن ينفذ إلينا.. يتخطى كل الحواجز وينشر ثلجه الأبيض في أجسادنا.. نرتجف تصرخ أمي على جدي:

سراج سيموت من البرد.. تصرف.. أنت الذي أحضرتنا إلى هنا.

يتحرك جدي إلى أعلى السطح.. يحضر قطع الخشب التي جمعها من الجبل ويشعلها في المدفأة، حين تصل حرارتها إلى أجسادنا وقد تجمعنا حولها نرفع الأغطية واحدا تلو الاخر، وأجد في نفسي فجأة، وقد غمرني الدفء، رغبة في اللعب.. تنهرني أمي لأن الوقت متأخر.. بينما يضحك جدي وهو يقلب الخشب في النار وينفخ فيه فتزداد اشتعالا.. لا يمر وقت طويل حتى تبدأ المعركة الثانية.. عندما تشاهد الذئاب الدخان المتصاعد من بيت جدي تقرر أن تتجمع لتبدأ عملية الهجوم على البيت، الذئاب تعوي في الخارج، أترك اللعب.. أسرع إلى أمي وأنتفض أشهق.. كان صوتها

هذه المرة مخيفا وأعدادها أكثر.. يهم جدي في تحضير نفسه للنزال.. تمسح أمي فوق رأسي وهي تكرر كلماتها الدائمة عن رغبتها في أن نحمل أمتعتنا ونذهب لنعيش وسط الناس هناك في المدينة: "لماذا نترك كل أحبائنا ونأتي إلى هنا لنطارد الكلاب الضالة أو نتحمل هذا العواء؟ لو كان أبو سراج موجودا لساعدك لكن أخذته الحكومة إلى الحرب.. الحرب الملعونة لا تنتهي سيرتها أبدا".. كنت في حجرها أرتجف وهي تخاطبه، لكنه لم يكن يسمعها.. يبدو وقد تعود على حديثها المتكرر وربما نفس المفردات هي لا تمل من تكرارها طالما حضرت الذئاب إلى هنا وسمعت عواءها.. لذلك لم يكن جدي يهتم به كثيرا.. كان يستثمر الوقت الضيق أمامه في التجهيز والإعداد للمعركة مع الذئاب التي حتما ستبدأ بعد قليل هجومها علينا.. البرودة والجوع جعلا الذئاب أكثر شراسة، وربما تكون المعركة هذه المرة مختلفة، قد لا يصلح مجرد إطلاق قذيفة في الهواء حتى تنصرف الذئاب عن بغيتها.. هذه المرة لابد من خسائر.. لن تكفي طلقة الهواء لتفريقها.. لابد من إيقاع أحدهم قتيلا حتى لا تعود إلينا بهذه السرعة.. ترك جدي ثرثرة أمي خلفه وأخذ يحشو البندقية.. بينما كان عواؤها يقترب من البيت،كان جدي يخطط هذه المرة ليدير المعركة معها بشكل جديد.. سيدعها تقترب حتى تشعر بالأمان وربما تظن أن جدي نائما أو غافلا عن تحركاتها.. هي تعرف جدي تماما.. سنوات ومعارك كر وفر جمعت بينهم.. عرفته لكنها أبدا كلما رأت بندقيته في يده تجري وتفر من أمامه.. هذه المرة تجمعت بأعداد كبيرة عرف جدي هذا من استفحال العواء بل ربما يكون قد أحصى عددها.. يبدو أنها مصممة هذه المرة على دخول البيت.. العواء كان يقترب.. كنا نشعر به قلقا يتوتر أحيانا حتى تظن أنه ربما يكون خائفا من المواجهة.. كل مرة نظن به هذا لكنه حين ينطلق إلى السطح نجد أقدامه ثابتة ويده على البندقية لا تتحرك

أو ترتعش حين أكمل استعداده للصعود.. طلب من أمي أن تأخذني إلى غرفتها وتغلقها علينا من الداخل ولا نبرحها حتى يطلب منا العودة.. حينها أدركت أمي وهي تحملني إلى الغرفة أن الوضع هذه المرة خطير.. لأنها المرة الأولى التي يطلب فيها ذلك.. مضت بخطى بطيئة شاحبة تنظر خلفها وهو يطمئنها.. كان جدي لحظتها يدقق السمع لكي يعرف أين وصلت تعجب واندهش حين لم يسمع عوائها.. هل غيرت خطتها في الهجوم؟ ربما أبطء هو في الصعود فأسرعت هي وحاصرت المنزل.. وربما حاول أحدها واستطاع أن يصعد إلى السطح وحينها تكون المصيبة كبيرة لأنه لو حدث ذلك فلن يستطيع جدي أن يصعد ويكون قد فقد مكانه وليس أمامه الآن إلا أن ينتظر ظهور أحدهم على السلم.. نظر حوله وأدرك أن خطته إن حدث ذلك يجب أن تتغير.. يجب أن يحتمي الآن وراء الترابيزة التي في وسط الصالة ولكنه لن يدعها في المنتصف هكذا.. قرر في الحال أن يحركها إلى أحد أركان الصالة حتى يكون ظهره محميا.. ثم يبدأ في إطلاق النار إلى الأمام.. ، بدأ يتجه ناحية السلم لكي يعرف إن كانت وصلت إلى السطح.. بعد أن اطمأن إلى خطة الدفاع التي أعدها.. بدأ يقترب شيئا فشيئا لكنه لم يحس بها ولم يسمع عواءها منذ فترة طويلة.. أين قطيع الذئاب؟!.. الآن قرر أن يصعد درجات السلم الأولى ليعرف ما الذي حدث؟.. تردد.. لكنه كان قد قرر أن يصعد على الأقل حتى رأس الكبش الواقعة في منتصف السلم وإذا باغتته الذئاب بالهجوم يمكنه أن يعود أدراجه سريعا ويحتل موقعه.. صعد لم يشعر بشيء.. صعد أكثر.. لم يصدق جدي حين بللت قطرات المطر الغزير وجهه وملابسه.. كان المطر قد انهمر فجأة وصوت الرعد يشق السماء.. حينها تأكد أن الذئاب قد هربت ولن تنفذ هجومها على البيت الآن؛ بسبب المطر الغزير وصوت الرعد المخيف.. جرى جدي إلينا فرحا وهو

ينادي على أمي ويطلب منها أن تحضرني معها وقص علينا ما حدث.. لكن جدي كان يدرك في أعماق نفسه أن هجوم الذئاب آت لا محالة وأنه يجب أن يكون مستعدا هكذا.. أحست أمي.. وشعرت أنه، ورغم بهجته بهروب الذئاب، إلا أنه قد عقد العزم على شيء يحاول أن يخفيه لكي يبث الطمأنينة في نفوسنا.. كان بداخله مقاتل لا يأمن أبدا مكر الذئاب الجائعة التي تختفي هناك خلف التلال حيث لا تظهر إلا في الليل تتجمع عند التل الشرقي وتبدأ في الإغارة على بيتنا.. يعلو عواؤها.

ولاء.. لم تعش هذه السنوات حضرت مع العربات والكهرباء والطرق السريعة لا تعي الحقيقة.. عمارة أنيقة تقف هناك عند أول الشارع بين عمارات عالية بطلاء جديد وألوان زيتية رائعة سكن إحدى شققها والدها كامل الجوهري الذي لم نعرف حقيقته إلا فيما بعد وكانت صدمتى كبيرة...هذه البيوت تنتمي إلى الجيل الثالث والأحدث من البيوت التي التفت حول بيت جدي.. أما البيوت التي تقع في الصف الأيمن فهي من الجيل الثاني ولذلك تجدها قديمة.. ليست طبعا في قدم بيت جدي ولكن مقارنة بالعمارة التى يسكنها الأستاذ الجوهري، وأهم فرق بين الجيلين هو أن البيوت في الصف الأيمن على شكل (فيلات) مثل البيت الذى يسكنه جارنا الإخوانى حسين قاسم... أما البيوت الأحدث التي بنيت هناك عند أول الشارع فهي عمارات شاهقة.. والقادم من أول الشارع ربما لا يرى بيت جدي.. العمارات حجبته.. ولاء تسكن إحدي هذه العمارات ولكنها حين تمر في طريقها إلى السوق الجديد أو إلى موقف السيارات، لا بد أن تمر على بيت جدي.. عرفتها حين كنت واقفا في الشباك ورأيت فتاة تتسلق سور البيت من الجانب الشرقي حيث سقط جزء منه بلا سبب معروف منذ زمن بعيد ولم نقم بإصلاحه.. رأيتها تقفز من فوقه.. ترتدي بنطلون جينز وبلوزة

بيضاء، وتلف حول رقبتها شالا أسود ينسدل على كتفيها.. تابعتها دون أن أتحرك حتى لا تشعر بي..كانت قد هبطت داخل حديقة البيت.. تحركت ببطء وهي تظن أنه لا أحد من أصحاب البيت أحس بها،كانت تعرف طريقها.. ربما لم تكن هذه هي المرة الأولي التي قفزت إلى بيتنا بهذه الطريقة.. ترددت في أن أتجه ناحيتها، لكنني لم أفعل.. تابعتها.. كانت تتحرك بحذر كلص محترف.. تقصد حديقتنا.. تلفتت حولها لتتأكد أنه لا أحد يرقبها من أصحاب البيت.. بدت مطمئنة، وحين وصلت إلى المربع الثاني من الحديقة.. قفزت إليه كغزالة رشيقة سقط الشال من على رقبتها بدا شعرها الأسود يطير مع الهواء.. تعثرت في حجر صغير.. نظرت إليه.. بدت ساخطة كأنها تندب حظها العاثر الذي ربما يفشل مهمتها هنا في حديقة بيت جدي.. تحركت في إصرار كأنها استجمعت قوتها.. وقفت فجأة أمام زهرة (القرنفل) جلست على الأرض وضعت الشال في حجرها اقترب فمها من أوراقها.. ربما تقبلها أو هكذا تصورت أخرجت زجاجة صغيرة بحجم إصبع الكف فتحتها وسكبت منها على أوراق القرنفل.. كأنها تغسلها، مسحت أوراقه بكفها الصغير، تحركت ناحية الساق مرت بأناملها.. كيف تخلت عن حذرها فجأة ونسيت أنها في حديقة بيتنا وأنها تسلقت سورها حين أحست فجأة بقدمي يتحرك خلفها.. التفتت سريعا.. رأيت وجهها وقد اعتلاه الخجل ورددت كلمات وقعت حروفها صرعى على الشفتين اللتين غرقتا في الحمرة.. سقطت نظراتها الفزعة على الأرض:

لست لصة أنا.. ولاء.. ولاء ابنة الأستاذ كامل الجوهري المحامي..شقتنا فى العمارة التى تقع عند أول الشارع نحن جيران.. حضرت من أجل القرنفل.

جربت أن تخرج مني كلمات مناسبة لم أستطع.. كأنني معلق في الهواء، اختبرت تحريك يدي.. فكرت أن أقطف زهرة القرنفل..

وأقدمها لها.. حاولت أن أفلت من خيبتي.. استنفرت كل طاقتي دون جدوى، فكرت للحظة أن أسحب الشال الذى سقط على الأرض .. لكنها التقطته وذهبت.. حين أغلقت خلفي باب حجرة النوم وأغمضت عيني كانت سيمفونية ترن في أذني لم يحدث أن سقطت هكذا في قاع بئر.. هذا شعور لم أجربه قط.. لم يحدث أن رأيت جسدي يتخلى عني هكذا.. وأجدني -وبلا شك- أطير.. أصعد إلى فضاءات بعيدة وشوارع مكتظة بالناس.. أركض.. أركض.. أسقط في فراغ هائل. هل يمكن لأعضائك أن تتحرك بعيدا عنك؟! ترفض أن تطيعك؟ تراها تلهو هناك في سقف الحجرة.. تراودك فكرة صائبة أن تنهرها أن تأمرها بالعودة لكن ربما لا تستجيب لك.. تعصى كل أوامرك، كأنها ثارت على الحياة البليدة التي قضتها في الخضوع لك زمن طويل من الخنوع وحان وقت ثورتها في وجهك.. ها أنت تراها تلهو بعيدة هنك تمرح في حرية لم تعشها من قبل تلك الفتاة وراء ثورة الأعضاء،فتاة القرنفل سلبتك الراحة.. لماذا لا ترى شيئا الآن غير ولاء.. تسكن داخلك كصوت فيروز الذي لا تمل سماعه.. تحفظ كل أغانيها.. تمنحك شيئا ثمينا.. شيئا لا تجده في حياتك الرتيبة.. لماذا لم تسألها عن فيروز حتما ستكون مثلك.. شرائطها تملأ أدراج مكتبك منذ أن سمعتها أول مرة تغني.. "القدس العتيقة".. كنت صغيرا في العاشرة من عمري.. أمى كان تحبها.. كان دائما تردد أغنياتها في البيت، لكنني حين سمعت صوتها، شيء ما تحرك داخلي.. حلمت أن أطير معها كعصفور صغير.. لم تجرب أن تحب شيئا أكثر منها.. والآن.. ولاء جميلة كصوت فيروز.. مشرقة كغنائها مليئة بالحياة.. قررت أن أذهب الآن لأمي وأروي لها ما حدث.. لكن سرعان ما طردت الفكرة من رأسي وشعرت بسذاجتها.. لكن حين لاحت لي فكرة أخرى مكانها.. رغبة ملحة في أن أتناول كوب نسكافيه باللبن.. لم أكن أحب النسكافيه إلا باللبن.. كان جدي يحرص على

أن يأتي باللبن معه كلما ذهب إلى المدينة.. كان يجب ألا ينسى شيئا لذلك كان جدي يكتب كل ما نحتاج إليه بالتشاور مع أمي، وكان عليه أيضا أن يسهر طوال الليل في إعداد السيارة الجيب القديمة التي اشتراها بثمن بخس من مزاد علني.. كانت مملوكة لأحد البشوات القدامي.. لم يلتفت إليها أحد من المشاركين في المزاد، كانت متهالكة.. جدي رآها صمم أن يأخذها، كان يعرف ماذا سيفعل بها.. لم يزايد أحد عليه.. اشتراها بثمن زهيد.. حين قرر جدي أن يأتي إلى أرض الكيمان أخذها معه،كان يعرف أنه من الضروري أن تكون معه سيارة في هذا المكان البعيد.. عكف على إصلاحها أياما طويلة.. كلما نفد الطعام وزيت السراج.. كان عليه أن يعدها للذهاب .. كان يسهر ليالي طويلة كي تصبح جاهزة.. كل مرة يكتسب خبرة أكبر، كان يحضر معه كل ما يلزم لصيانتها.. من دونها تستحيل الحياة هنا.. أمي قالت لي إن والدي النقيب علي الباسل حاول أن يقودها مرات عديدة "لكنه فشل وكان جدك يضحك".. قال أبي وهو ساخط:

- يبدو أنها لا تسمح لغيرك أن يقودها..

ضحكات جدي تعلو:

- كيف لصعلوك مثلك أن يقود سيارة باشا قديم؟!

كان جدي يعرف أنه ومنذ أن قبضت الثورة على شؤون الحكم ألغت الباشاوية.. لم يعد هناك باشاوات.. سقطت هذه الرتبة التي كان الملك يمنحها بأمر ملكي عالٍ.. لم أر باشا في حياتي.. كنت أسمع عنهم من جدي وعن هيئتهم ونفوذهم في السياسة والمال.. الصورة التي علقت في ذهني وربما تصورته رجلا ذا وجه أبيض سمين مشرب بحمرة.. لديه شارب رفيع.. يضع طربوشا أحمر على رأسه.. يمسك دائما بعصا رفيعة في يده تنتهي لأعلى برأس من الأبنوس المزركش بنمنمات عربية أو برأس أسد أو بحلية من

الذهب الخالص.. صورة جدي التي تربعت هناك أعلى الحائط المواجه للداخل إلى الصالة وهو يصافح رجلا مهيبا وجدي يحني رأسه قليلا أمامه بينما ترتسم ابتسامة أنيقة على شفتي الرجل المصافح بحرارة.. كنت في ذلك الحين لا أعرفه.. وتعجبت وأنا أرى حفاوة جدي بهذه الصورة حتى أنه وضعها في الصالة.. رأيته في مرات عديدة يحضر كرسيا ليقف فوقه وينظف الصورة بنفسه.. وحين تركنا ورحل.. أخذ معه كل شيء وترك هذه الصورة.. حتى رحيله كان لغزا لم نفهمه.. لا نعرف لماذا ترك أرض الكيمان التي اختارها ليبني بها هذا البيت الذي نعيش فيه إلى الآن.. تركنا ورحل.. أنا وأمي قضينا سنوات طويلة هنا في هذه الأرض البعيدة نقاسي الوحدة.. تحملت أمي متاعب كثيرة حتى أتى العمران إلى هنا.. ورأينا العمارات العالية تحيط بنا.. سنوات من الغربة والوحدة مرت علينا ذقنا فيها الويلات.. الحكومة حضرت إلى أرض الكيمان أنشأت السوق البحرية وأقامت مدرسة ومستشفى.. لم نصدق أن الحكومة أخيرا تذكرت أرض الكيمان.. سنوات الوحدة التي عشناها تبدلت إلى ضجيج الناس وأبواق سيارات تجري.. بعد أن رصفت الحكومة شوارع الكيمان.. تذكرنا جدي وقالت أمي: "لو كان يعيش بيننا الآن لما صدق ما نشاهده! أصبح لنا جيران ونشتري كل ما نحتاج إليه من السوق".. لم نعد في حاجة إلى السيارة الجيب القديمة.. وضعناها في ركن من الحديقة.. امتلأت الآن بالأتربة وفكرنا في بيعها لكن أمي رفضت الفكرة.. قالت يومها لي: "ربما يعود جدك ويعيد إليها الحياة مرة ثانية.. كانت غالية عليه.. ربما نسمع حركة موتورها ثانية".. لم أفهم وقتها ماذا كانت تعني أمي؟!.. لكنني وافقت بلا تردد على رأيها رغم أن وجود السيارة في الحديقة لا يريحني.. حتى ولاء فكرت مرات عديدة في إقناع أمي أن نضعها خلف البيت حتى لا تشغل هذا الحيز من الحديقة.. لكن

أمي كانت ترفض في النهاية.. سمعتها مرة تهمس إلى ولاء أنها سمعت صوت موتورها بالأمس.. قالت إنها كانت تظن نفسها نائمة.. لكنها تأكدت أنها لم تكن كذلك.. ولاء لم تكن تفهم ماذا تقصد أمي؟ اندهشت لحديثها.. في الأيام الأخيرة اتهمتني ولاء أنني لم أصبح بعد رجلا و أنني دائما أنتظر قرار أمي ومشورتها.. وأنني لا أفكر أبدا في حياتنا معا ومستقبلنا وأننا سنواجه حتما مخاطر كثيرة ربما لا أشعر بها.. كنت لا أقوى على مقاومة النشوة الباردة التي تنساب إلى أعضاء جسدي وأنا أجلس قبالة الحديقة.. كنت مصمما أن أعيدها إلى زمن جدي حيث كانت عامرة بالزهور النادرة.. ومنذ رحيله.. مرت سنوات طويلة ولم يفكر بها أحد.. أهملناها حيث أصبحت كما تراها الآن.. فكرت أن أحضر مهندسا زراعيا ليقوم بالمهمة لكنني سرعان ما عدلت عن ذلك لأنه سيفعل ما يحلو له وأنا أريدها كما تركها جدي لنا نفس تقسيم الأحواض والإبقاء على مجرى الماء كما هو وقد خطط له جدي أن يكون بعيدا عن سور الحديقة وكذلك بعيدا عن البيت حتى لا يضر به.. كما أنه قسم الأحواض من الداخل إلى أشكال هندسية، بعضها على شكل مربعات وبعضها على شكل مستطيل ووضع فواصل بينها عبارة عن جسور صغيرة.. وعندما تدخل من باب الحديقة ستدهش عندما لا تجد طريقا أو ممرا يأخذك إلى البيت ولكنك ستجد حوض زهور صغير بالكاد تتبين جسرا رفيعا مملوء بالحشائش.. سينحني أمامك على جهة اليمين ثم تجده يتسع شيئا فشيئا حتى تجد نفسك أمام حوضين كبيرين يتوسطهما شجرة فيكس يتلوها تكعيبة عنب ويفصل بينهما نخلة صغيرة وعندما تطل عليك فسيفساء مستديرة الشكل يجلس داخلها كائن غريب، ربما تظنه ثعبان الكوبرا أو رأس حيوان منقرض.. حينها وأنت تتابع هذا المنظر الرائع سيطل عليك البيت وأول ما تراه هو الباب المصنوع من خشب الموسكي على

شكل دوران من أعلى ومكون من قطعتين وعلى القطعة اليسري وفي الجزء الأعلى منها تقبع كف قابضة على كرة من الحديد يستعملها القادم إلينا في الطرق على الباب.. ولن يفوتك طبعا أن تستمتع بمنظر الفانوسين الذين وضعهما جدي على جانبي الباب كأنهما حارسان وفاتني أن أشير إلى أنك وقبل أن تصل إلى الباب ستصعد أربع درجات من الرخام الخالص ولو استدرت وأنت واقف على هذه الدرجات لتواجه الحديقة ستجد المنظر من هنا أجمل حيث سيكون بمقدورك أن ترى طائرين يهمان بالطيران وقد وقفا على رأس مسلة من الجرانيت وقد فردا جناحيهما لكنهما أبدا لن يطيرا ستجد لديك رغبة ملحة في كل مرة وأنت تراهما فيها أن تطلق سراحهما وتحلم كما حلمت أن تراهما طليقين يرفرفان في الهواء.. لكن هذا الحلم الذي يراودك لن يتحقق أبدا، ويبدو أن تحقيقه أصبح مستحيلا.. في الخلف ستجد منظرا بديعا لن تبرحه عينك حتما ستجبر أن تصمت وأنت تري حزمة من الجمال تسقط بين يديك عندما تشاهد عن قرب أحواض الزهور إنه شيء مدهش لن تنساه أبدا.

3

الحية التي ترقد أمامك في وداعة لا تظنها نائمة.. إنها تستعد لشئ آخر..

لم أستطع النوم في هذه الليلة منذ حضرت إلى قصر رشوان وأنا قلق لم أجرب أن أنام بعيدا عن بيتنا هناك في الكيمان عيناي ظلتا عالقتين في سقف الحجرة المرتفع تنظران إلى البعيد إلى أفق لم يشرق بعد تتدلي أفكاري كحبل مجدول ووجه ولاء يتشكل أمامي في سقف الحجرة تضحك كما كانت تضحك تتحرك كفراشة حالمة.. أغادر جسدي الآن.. أزحت الوسادة الموضوعة تحت رأسي أبدو كشجرة صامتة وداخل صدري تتحرك أغنيات نائمة أغنيات لها طعم الماء الراقد لها طعم حلم قديم يرقد في وداعة مثل طفل نزعوا منه لعبته ومساء وحيد يرتدي البالطو ويضع قبعة فوق رأسه وأباليس تلهو بالحجرة.. أي يد ألقت بي هنا أرقد كجسد بارد؟! لماذا سكت حسين حرب لفترة طويلة عن الكلام؟ بدا كرجل كلاسيكي يخرج من رواية قديمة لم يقل لي شيئا غير أنه أمر أهل البيت أن يعدوا لنا الطعام.. رائحة الخبز الذي يخرج لتوه من الفرن البلدي تفوح فجأة في أرجاء البيت.. تنسكب في أنفي المدبب كأنهم كانوا في انتظاري.. دقائق وكان الأولاد في البيت قد أحضروا صينية الإفطار.. رغيفان من الخبز البلدي وطبق من البيض المقلي وقطعة من الزبد وطبق العسل.. أمسك حسين حرب الرغيف الكبير ووضعه أمامي.. كنت جائعا حقا تناولت معه الإفطار وانتقلنا إلى المندرة الواسعة التي تقع على يمين الداخل من الباب الكبير

سار وسرت خلفه حتى استقر على الدكة الخشبية التي تقع في الوسط تظللها شجرة توت .. جلست إلى جواره طلب كوبين من الشاي الثقيل.. ومكثنا في انتظارهما.. حضرت بنت صغيرة ووضعت صينية الشاي التي كانت تحملها على جانب من الدكة وانصرفت.. نظر لي:

-هذه سارة حفيدتي.. كل أحفادي بنات.. لم يشأ الله أن يأتي الذكر بعد، وربما لهذا يطيل الله في عمري حتى أرى لي حفيدا ذكرا.

رأيت دموعا تجمعت في عينيه لكنها أبت ألا تنزل.. قدم لي كوب الشاي ورحت أرقبه وهو يحمل هذه السنوات الثقيلة على كتفه وملامح الرجل تراها بالكاد من زحمة التجاعيد التي تملأ وجهه، وشارب قصير ينم عن زمن من الشباب قد ولى، وأنف مدبب غليظ، وجبهة مليئة بالخطوط تكشف ببطء عن أن الرجل ربما تخطى الثمانين لكن ما تزال تطل في عينيه لمعة الصبا.. ارتعاشة يده وهو يحمل الكوب إلى فمه.. سعل.. أخرج علبة السجائر وسحب واحدة ووضعها في فمه وأشعل عود ثقاب اندلعت منه النار التي أطلت من العود وأضاءت وجهه كأنه شعر بلذة تسري في أوردته سحب نفسا عميقا ونظر ناحيتي كأنه تذكرني فجأة وبسرعة مد يده بعلبة السجائر طالبا مني أن أسحب واحدة، لكنني اعتذرت؛ لأنني لا أدخن.. ابتسم ابتسامة رضا وراح ينفث دخانا كثيفا خرج من صدره.. وقف فجأة وارتفع صوته كأنه يطلب أحدا من أهل البيت.. حضرت إحداهن سريعا.. أمرها أن تحمل حقيبتي و أن تجهز حجرة الضيوف ثم مال عليها وهمس لها بكلمات.. فرت البنت من أمامه بسرعة.. عاد إلى مكانه هادئا.. لم تمر دقائق كان على ما يبدو في انتظارها.. جاءت وهي تمسك بطبق كبير ممتلئ بالتوت.. وضعته وانصرفت.. نظر ناحيتي:

تفضل التوت طعام صحي أنا لا أستطيع أن أكف عن أكله.. لا يمر يوم دون أن أتناوله.. التوت هو طعامي المفضل اعتدت ذلك منذ سنوات.. هل تعرف أن جدك يوسف الواجدي كان مثلي يحب التوت.. لا بد أنك مثل جدك.. إن طعمه ممتع تشعر بلسعة خفيفة حين تضعه على لسانك لكنها سرعان ما تذهب مع تناولك إياه بكثرة.

مددت يدي مثله إلى طبق التوت.. كانت هذه هي أول مرة تأتي سيرة جدي على لسانه منذ أن جئت إليه.. حتى ظننت أنه ربما لا يعرفه، وأن أمي أخطأت حين أحضرت ورقة وكتبت لي اسمه وقالت لي إنه يعرف جدي، وربما هو الشخص الوحيد الذي سيساعدني في العثور على ما أريد، لكنه أخيرا نطق اسم جدي.. شعرت براحة كأن ماء باردا يغسل جسدي.. كنت أضحك من داخلي وأنا أسمعه يردد اسم جدي يوسف الواجدي.. كان يتناول التوت بنهم حتى أنه كف عن الحديث معي في أي شيء.. كان منهمكا في مضغه وحين سمع صوت مؤذن الجامع الذي على ما يبدو كان قريبا جدا نهض حسين حرب من مكانه على الدكة:

-هيا بنا نصلي الظهر في الجامع.

أخذني في يده وانطلق بي إلى الخارج.. الشارع الترابي الذي مشينا فيه ينحني إلى اليسار فجأة وتجد نفسك في ميدان واسع، ومن هناك ستري الجامع أمامك تعلوه مئذنة خشبية ترتفع قامتها قليلا.. بدأ الناس يتوافدون على الجامع.. دخلنا من الباب الجانبي حتى نتوضأ أولا.. وحين تدخل إلى صحن الجامع تجده واسعا يغطي أرضيته الحصير، كما أنك ستلاحظ أن بعض أطرافه غير مغطاة حيث تآكل الحصير بفعل الزمن، وبجوار القبلة يرقد المنبر في وداعة يمتليء بنمنمات عربية وزخارف إسلامية تكشف عن موهبة الفنان القديم الذي صنعه بهذا الجمال والإتقان.. التراب يغطي بعض

جوانبه ويد الزمن أتت على الجزء الأيسر منه وأطلت شروخ قليلة في القبة التي تعلوه، مضى حسين حرب يسلم على كل من يقابله في الجامع، وحين جلس بجوار العمود القريب من المنبر كان المصلون يتوافدون عليه يسلمون عليه وبعضهم يقبل يده وحين يطلون إلي يمدون أيديهم لي باستحياء.. أقبل الإمام وحين رأي حسين حرب هرول ناحيته وعانقه وهو جالس. وحين فرغنا من الصلاة وبدأ الناس في الانصراف لم يتحرك حسين حرب من مكانه حتى انصرف الناس جميعا. وقف وعندها وقفت وسار ناحية الإمام الذي كان يجلس في حضن القبلة مشغولا في تسبيح ختم الصلاة يرتدي زي الأزهريين ويضع عمامة بيضاء على رأسه ويمسك بمسبحة مكونة من تسعة وتسعين حبة تتدلى من بين يديه، وشفتاه تتحركان بالذكر. تهلل ووقف حين رآه قادما إليه.. مضى الإمام يدعو له بالصحة وحسن الخاتمة، وحين كف عن حديثه الذي ربما كان معتادا على سماعه حسين حرب رماه بنظرة فاحصة كأنه أحس بشيء داخله:

ما بك؟

سعيد عقرب

هل حدث له مكروه هل سمعت شيئا عنه؟

لا ولكنه تأخر في الجبل كثيرا.

هذه عادته لا تخف سيعود مثل القرد.

قلبي يحدثني أن في الأمر شيئا.

سيعود اطمئن.

تذكرت الرجل الذي قابلني في الطريق حدثني عن سعيد عقرب.. ترى من هذا الرجل الذي يشغل الناس هنا في قصر رشوان.. رأسي تدور مثل الطاحونة.. لم أنم منذ الأمس.. التعب حل بي بدوت كمن يسقط في قاع بئر.. البيوت المبنية من الطين التي

شاهدتها في طريق العودة تتراص في خط متعرج و تتشابه حتى أنك لا تستطيع أن تميز بيتا عن آخر.. الآن تتكوم في رأسي أفكار بدينة.. أفكار بحجم رأس العنقاء.. أفكار مثل التي رددتها ولاء في خطابها الذي مازلت أحتفظ به في جيبي وأتحسسه.. خطاب يشبه كثيرا خطاب أبي الذي أحضره الصليب الأحمر وسلمه إلى أمي.. كانت حروفه تشبه حروف خطاب ولاء مكسرة مائلة عن الخط شائهة ومشوهة عن عمد أو هكذا تبدو.. أمي قرأته آلاف المرات تتلوه صباح مساء لم تمل من حروفه المائلة للصفرة.. حروف تشبه خط أبي لكنها أبدا ليست خطه.. لماذا تصدق أن هذه الحروف الساقطة كتبها؟ هل يمكن أن يكتبها بهذه الطريقة البدائية؟ ورغم هذا البعاد فهي لا تحمل سوى كلمات سطحية.. كان يهديني السلام ويسلم على جدي ويذكر أمي أنه مازال يحبها.. شعرت ببرودتها في يدي كانت مرتعشة.. لو كانت من عند أبي حقا لكانت دافئة ممتلئة بمشاعره حية تتحرك على السطور.. كنا سنراها مشرقة.. أمي بررت الإحساس الذي شعرت به حينها أن أبي ليس حرا ولا يستطيع أن يقول كل ما يريد.. أنه في الأسر.. لم أكن ساعتها أعرف معنى لهذه الكلمة الغامضة.. كلمة منتزعة من رأس شيطان بليد.. أبي مكث في الأسر طويلا.. أمي كيف حالها الآن؟ هذه أول مرة أبعد عنها.. لولا أنك أنت التي طلبت مني الخروج إلى قصر رشوان ما ذهبت أبدا وتركتك.. أرجو أن تحافظي على البيت لا تدعي أحدا يقترب من الحديقة.. الزهور التي جلبناها ووضعناها في الأحواض تحتاج إلى عناية.. هل ستذكرين أن تسقيها في المواعيد التي حددها لنا المهندس الزراعي الذي أحضرته وكنت ترفضين.. لقد فشلنا فى زراعتها.. لا تنسي أن الزمن تغير بعض الشيء.. أعرف أنك ستحكين أن جدي قام بزراعتها دون أن يستعين بأحد، لكن أين جدي الآن؟ إننا نبحث عنه هنا في القصر.. يبدو أنك كنت تعرفين أشياء

وتخفيها عني طيلة هذه السنوات، وإلا كيف عرفت حسين حرب وربما تعرفين أيضا سعيد عقرب.. من سعيد عقرب يا أمي؟.. حسنا فعل حسين حرب أن أدخلني إلى حجرة الضيافة.. ليس أمامي إلا أن ألقي جسدي المنهك على السرير كي أشعر بالراحة، تلك التي لم أشعر بها منذ أن حزمت حقيبتي وولاء تقف أمامي تنتفض، هباء تضيع توسلاتها وهي تدعوني أن أبقى ولا أرحل خلف ما سمته المجهول.. كانت تردد كلمات بلهاء لا معني لها.. كلمات ساقطة من فراغ أبدي لا تحمل سوى الدوار.. قالت إنها لا تريد بيتا.. كانت تقصد بيت جدي.. قالت إنها لا تريد سوى أن تعيش معي في أي مكان، ليس مهما أن نعيش هنا في هذا البيت.. ولاء لا تفهم.. ربما لا تقدر الموقف تماما.. كانت تخشى أن أفعل مثل جدي ولا أعود أبدا، هكذا رددت في خطابها.. ولاء لم يكن لها بيت مثلنا.. ولاء تسكن شقق العمائر الشاهقة.. لم تعرف أبدا قيمة أن تسكن بجوار الأرض.. لم تعرف قيمة أن تصنع لنفسك بيتا تبنيه بنفسك حجرا فوق حجر.. أن تتسلق أحلامك جدرانه وهو ينمو داخلك يتحرك مثل طفل أمامك تراه يكبر.. هي لا تفهم.. لن نستطيع أن نفرط في هذا البيت.. لن نتركه أبد للحكومة تستولي عليه.. الحكومة تحلم أن يكون لها بيت كهذا ترقد فيه في وداعة وهى تعد نشرة الأخبار للناس.. كيف تتصور ولاء أننا نتركه لها.. جدي هو صاحب البيت والحكومة لا تريد أن تفهم.. أعجبها البيت.. تحلم أن تجعله ديوانا لكبار موظفيها تضع فيه المكاتب الحكومية والسجلات وتجعل من حديقته مكانا لاستقبال الجمهور المترددين عليها بالآلاف كل يوم يريدونها، وربما تغير طلاءه وتطليه باللون الأصفر مثل معظم دواوينها.. المساء هنا في قصر رشوان هادئ لكنه موحش مخيف.. هدير الريح الذي يسقط من أعلى الجبل زاحفا على البيوت النائمة.. ترتعد الأجساد التي تعبت طوال النهار في عملها..

ترتجف العيون الناعسة.. يهرع الأطفال إلى غرف الكبار يلوذون بالأمان عندهم.. الريح تزمجر في الخارج.. تتمايل الأشجار وتزوم كنمر جريح.. تشق بطنها وتمر بعنف من بين فروعها الثقيلة.. تتساقط الأوراق تصرخ وهي تنفصل عن الجسد.. تطير بعيدا تنزعها الريح بكف قاسية من أغصانها وتلقي بها إلى مصير مجهول.. الريح الهائمة ترتع في أفنية البيوت وتحمل ما تحمل من حبوب بعد أن تشق أجولة القمح وتلعق الأبواب المغلقة في وجهها.. تصعد إلى أسطح البيوت تمزق أربطة أعواد البوص والقطن الناشف وتبددها وتتدخل إلى الفراغات المفتوحة في حوائط حظائر الطيور الغافلة.. تقرصها فتصيح وهي تهرب من لص لا تراه.. تتكوم أفرادها حول الذكر الذي يقودها إلى ركن يظنه آمنا من يدها العابثة..يفرد جناحيه ويصيح حتى يشعر القطيع بالأمان... الريح تأتي من الجبل الرابض هناك أعلى البيوت عندما يشهق يخرج زفيره يعكر صفو الحياة هنا أحيانا يرقد كتنين وديع تعبث الأطفال في أنامله وهو يضحك ويطل على البيوت برأس صلعاء ووجه مبتسم، هكذا يراه الناس في القصر.. عند الصباح ربما يتصورون أنه كائن آخر غير الذي يرونه في الليل.. ربما يتبدل دون أن يشعر أحد.. الليل هنا يمتلئ بالوحوش والكائنات المخيفة.. لا تجد هنا في القصر أحدا يخرج من بيته بعد صلاة العشاء.. يدخلون بيوتهم ويغلقون أبوابها كي يشعروا بالأمان.. يستأنس الجميع بأكواب الشاي الساخن حين تمر عليهم مرة أو مرتين ويأخذ الكبار في قص حكايات النهار على مسامع تصغي في نهم شديد وهي تتتبع كل ما يقال حتى يبدأ الصغار في التساقط من النعاس ثم يحملون تباعا إلى مكان نومهم وهم مبتسمون ليرقدوا حتى الصباح، هكذا قضيت يومين في بيت حسين حرب أشاهد كل شيء دون أن أبدي دهشة.

كان الرجل قد هم كعادته لصلاة الفجر حين سمعت طرقات متتالية على الباب.. أهل البيت كلهم استيقظوا.. خرجت من حجرتي.. رأيت حسين حرب يفتح الباب وهو يتمتم بالذكر و يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم.. ساقني الفضول أن أتحرك إلى صحن البيت كي أري القادم.. كنت مندهشا وتذكرت زوار الفجر عندنا في المدينة وقلت هل يعرف أهل قصر رشوان مثلنا زوار الفجر من رجال مباحث أمن الدولة؟! كنت أظنهم هنا بعيدين عن السياسة.. حكت لي أمي كيف كانوا يحضرون إلى بيتنا في الكيمان ليأخذوا جدي.. قالت: "كنت صغيرا ربما لا تتذكر هذه الأيام المرة التي عشناها.. كانوا يدهسون أي شيء يجدونه في طريقهم.. الضابط حسام راغب كان يلعق أصابعه وهو يتابع رجاله وهم يفتشون البيت بحتا عن أشياء لا أعرفها" كانت أمي تردد دائما أن السياسة أفسدت حياتها لهذا كانت تبعدني عن كل شيء.. لا تريدني أن أفهم شيئا.. لا أنسي كلماتها وهي تحذرني من قراءة الجرائد.. تقول إنها لا تحمل سوى الأخبار السيئة.. نهرتني بشدة حين رأتني أصافح جارنا حسين قاسم.. كان بيته قريب من بيت جدى .. دعاني مرة إلى زيارته.. قدم لي كوب شاي وحين هممت أن أنصرف دلف إلى الداخل وخرج وفي يده كتاب قدمه لي بعد أن أثنى على حسن تفكيري ورجاحة عقلي.. كان كتاب (الرسائل) ومؤلفه يدعي حسن البنا.. حملت كتاب الرسائل وجريت إلى البيت.. كنت سعيدا لا أعرف لماذا.. أخبرت أمي بما حدث وأن جارنا حسين قاسم قد أثنى على حسن تفكيري وأهداني كتابا.. هذه هي أول مرة يهديني أحد كتابا.. قلت لها إنني اندهشت في البداية لكنني فرحت بعد ذلك بهديته، وحين رأت الكتاب صرخت في وجهي.. اندهشت لرد فعلها.. أمسكت عن الكلام بعد أن رأيتها تبكي بحرقة.. أردت أن أخفف عنها.. قلت لها إنه كتاب في الدين وليس في السياسة.. كادت أن

تسقط على الأرض.. حملتها بين يدي وهي تدفعني عنها.. لم أكن قد عرفت بعد لماذا كانت ثورتها في وجهي، وبمرور الوقت عرفت أن جارنا الطيب من جماعة الإخوان المسلمين وأن مؤسس الجماعة هو مؤلف كتاب الرسائل الذي أهداه لي جارنا، وأصرت أمي أن أعيده إليه في نفس اليوم.. رغم الحرج الشديد الذي كنت أشعر به.. وقتها كنا قد اعتدنا في شارعنا على زوار الفجر وهم يداهمون بيته في الفجر ويحملونه معهم ويأخذون كل ما يجدونه عنده من كتب وشرائط كاسيت وأوراق ربما تدلهم على شيء.. كنت أرقب زوجته وابنه الصغير طارق وهو يشاهد أباه محمولا إلى السيارة المصفحة ولا يعرف مصيره.. كان يودعه بصراخ مكتوم ودموع متحجرة وكلمات تنتحر على شفتين مرتجفتين.. طارق صرخ.. بابا.. طارت إلى مسامع رجال المباحث.. أحدهم التفت ناحيته بينما أنجز الباقون المهمة وأغلقوا باب المصفحة وجلس اثنان في المؤخرة يحملان البنادق الآلية وعندما تحركت السيارة بهم مسحت المرأة دموعا سقطت رغما عنها بينما وقع الصغير على الأرض وأشعل أحد الحارسين سيجارة وشد نفسا عميقا وأسند ظهره إلى ركن السيارة والهواء يداعب أطراف بنطاله الميري.. خرجت من شرودي. رأيت حسين حرب يعانق الزائر بحرارة.. قبض على كفه وأدخله إلى الدار.. كان مبتهجا.. منذ أن حضرت إلى هنا لم أشاهد حسين حرب هكذا.. الزائر كان رجلا في العقد الرابع تقريبا شعره أسود مجعد تتخلله شعيرات بيضاء قليلة ووجهه يميل إلى الاسمرار وأنف ضخم لكنه يبدو متسقا مع استدارة الوجه والفم ذي الشفتين الغليظتين، وتكتمل ملامحه بعينين سوداوين تغوصان قليلا إلى الداخل يرتدي خلاف أهل القصر الذين رأيتهم منذ أن جئت الملابس الإفرنجية كما يسميها حسين حرب، وهو يعطيني جلبابا لكي أنام فيه وحين اعتذرت له وقلت إنني أحضرت معي في الحقيبة

ملابس للنوم.. أصر وقال: "ستجدها مريحة أكثر من ملابسكم الإفرنجية التي ترتدونها في المدينة".. كانت الفرحة بادية على وجه حسين حرب.. أخذني الفضول.. تحركت ناحيتهما، وحين رآني تهلل وجرى ناحيتي كطفل صغير وهو يصرخ:

- هل تصدق يا سراج.. ألا تعرفه إنه سعيد عقرب.؟

ياه.. أخيرا رأيته.. مضيت نحوه وسلمت عليه.. الرجل كان مندهشا لوجودي في منزل حسين حرب في هذا الوقت من الليل، لكن الرجل شعر بذلك.. قال في عجالة:

- ربما لا تصدق يا سعيد إذا عرفت من يكون هذا الرجل.. هل تصدق إنه سراج.. سراج حفيد الواجدي.

كان يتصبب عرقا وقلبه يدق بعنف.. قلت: "وهل يعرف سعيد عقرب جدي الواجدي؟" كانت تتلاشى من أمامي الأشياء.. تتماهى وتأخذ في الصغر.. تتكشف أمامي عوالم غامضة.. أركض بسرعة لأنجز تلك المسافة البعيدة التي تفصلني عنها.. أركض كتنين ضخم لا يقوى على قطع المسافات الطويلة.. يطلع أمامي وجه ولاء وهي تتلو الآيات من كتابها الذي تسميه الأقدس.. تقرأ وتقرأ.. في ذات صباح مشؤوم رأيتها.. حسبتها تمرح.. ارتجفت.. حين قالت لم أصدقها.. قالت: "أنا أدعوك لديني" قلت: "وما دينك؟" قالت كلاما كثيرا لم أفهمه.. بدوت كزورق صغير تطيح به أمواج عاتية أسقط في فراغ أبدي أحملق فيها بعينين جاحظتين.. قلت: "أنت يا ولاء؟ أترك كل نساء الدنيا وأحبك أنت؟ سقطت عن آخري.. رقدت في السرير أسبوعا بأمر الطبيب.. أمي سألت عن سر ما حدث لي.. لم أستطع أن أجيبها.. ولاء لم تقصر معي.. قعدت عند حافة السرير.. كانت ترتعد.. تخشى أن يصيبني مكروه، وحين تماثلت للشفاء حضر أبوها كامل الجوهري.. ردد أمامي كلمات لم أفهمها عرفت منها أنه على دين ابنته.. قال إنهم أقاموا دعوى ضد الدولة أمام المحكمة

لأنها لا تريد أن تعترف بدينهم ولا تسمح بوضع دينهم في خانة الديانة في البطاقة الشخصية، وأنهم حتما سيكسبون هذه القضية.. رجوته أن ينصرف.. حاول أن يراجعني.. التفت عنه.. كانت ولاء ساكنة عند حافة السرير.. قلت: لماذا اختارتني من بين كل هؤلاء الرجال؟ كيف أسقط في كل هذا العذاب وحدي؟ لن يكف الشيطان عن بناء جهنم لنا لنسكن فيها.. ليس في الآخرة ولكن هنا في الدنيا نسقط كأفرع الأشجار الناشفة التي لا تصلح أن تتعلق بها الأوراق الخضراء التي ستنبت عما قريب.. الأفرع الناشفة ستحترق عما قريب تحت حرارة الشمس.. ستصبح رمادا.. أنا ذلك الرماد الذي يمتلئ بالحزن.. يجري كطفل خلف سيارة مصفحة وهو يصرخ: يا أبي أين سيضعونك في جب مظلم يمتلئ بالرطوبة والخوف، تبتلع وحدك أفكارك.. هل تصدقني إذا قلت إنني قابلت الشيطان فوق سطح بيت جدي هناك في الكيمان؟! قابلته كان مستلقيا على ظهره واضعا ساقا على أخرى، يردد أغنية عن الموتي الذين يبحرون إلى الفناء العظيم ويبتلعون أفكارهم السخيفة عن الحرية والعدالة.. الشيطان الذي قابلته وكان مستلقيا على ظهره رآني.. حاول أن يتجاهلني وقال بضع كلمات عن الأسماء التي أطلقها على الأشياء ثم نظر إلي وقال لي: هل أعلمك إياها؟ ثم نظر إلى البيت الذي نجلس فوقه وقال: هل تعرف اسمه؟ قلت: نعم. قال: لا. إنه تنور، ونظر إلى النجم في السماء وقال: إبريق، وإلى العصا الناشفة وقال: محاق، وإلى نفسي.. نعم نظر إلى نفسي وقال: محو، ثم قام من رقدته وجلس القرفصاء وقال: ما رأيك يا سراج؟ قلت: أنت حقا شيطان. قال: إذا تفوهت بعبارة أخرى كريهة فسألقي القبض عليك. قلت: أنت الذي فعلت بزوجتي ولاء هذا؟ ضحك حتى ظهرت أسنانه السوداء. "وجارنا الطيب كيف ألقيت به في السجن،وتركت ابنه طارق يفترش وحدته وعذابه و جدي يوسف

الواجدي الذي تركنا ورحل لا نعرف إلى أين. سيأخذون البيت منا. أنا لا أبكي على البيت ولكن أنت تعرف أمي لن تعيش إذا ضاع البيت منا، ونحن نريد الأوراق التي كانت مع جدي وحين رحل أخذها معه. لم يكن يعرف أنك ستغدر به وستوعز إلى الحكومة من بعد رحيله أن تطالبنا بأوراق البيت ونحن ليس لدينا أوراق تثبت ملكيتنا له.

جدي يوسف خرج إلى قصر رشوان وأنا لا أفهم ما علاقة جدي بـ سعيد عقرب.. منذ أن تقابلنا في الفجر بمنزل حسين حرب وأصر أن يصحبني معه إلى بيته الذي كان بعيدا عن البيوت يقترب من الجبل.. رأيت زوجته فرحة.. بدت سعيدة حين ذكر لها زوجها أنني حفيد يوسف الواجدي.. حملقت في طويلا.. جلست إلى جواره واحتسينا شايا وذكرت فرحة لزوجها أن ناسا كثيرين من البندر سألوا عنه وقال لها إنه قد أحضر معه من الجبل كل ما يطلبونه وإن سبب تأخره في الجبل أن الرزق كان كثيرا هذه المرة، وردت فرحة: "هذا رزق الأستاذ سراج.. هل تذكر جده كان الرزق يجري من بين قدميه.. هل تذكر آخر مرة حين ذهب معك إلى الجبل ومكثتما هناك أسبوعين كاملين حتى ظننت أنكما لن تعودا أبدا؟.. كان يوسف الواجدي جدك يحب سعيد جدا وكان لايذهب إلى مكان إلا ومعه سعيد". قلت في نفسي حتما سيعرف سعيد مكان أوراق جدي التي أقسم حسين حرب أنه لم يعلم عنها شيئا وأن جدي لم يخبره بها أبدا، وطالما أن سعيد كان قريبا من جدي كما تقول زوجته فسيعرف كل شيء عنه.. أنا أعرف أن أمي لن تستطيع أن تصبر أكثر من هذا وأن الوقت أصبح ضيقا وأن الحكومة لن تصبر علينا أكثر من هذا، وإذا فشلت ولم أحضر الأوراق التي تثبت ملكية جدي للبيت فستأخذه الحكومة منا.. أمي لن تعيش بعدها لحظة واحدة.. أنا أعرف تعلقها بالبيت وربما لا

تعرف أنني منذ فارقتها وأنا أسير من سيئ إلى أسوأ، وأن الكوابيس تلاحقني في نومي كل ليلة تطاردني الشياطين، وآخرها ذلك الشيطان الذي كان مستلقيا على ظهره على سطح بيت جدي أصبحت أرى فيها أشياء غريبة ربما تحتاج إلى من يفسرها لي.. أنا متعب يا أمي ولا أستطيع أن أخبرك بأمر ولاء.. أنت لا تستحقين كل هذا العذاب.. كل ما أفكر به الآن أن أفاتح سعيد في الأمر وأخشى إن هو أدرك أهمية هذه الأوراق بالنسبة إلينا أن يطلب مقابلا لا نقدر عليه؛ لهذا يجب أن أحتاط وألا أصارحه، وأخشى ألا أكون على قدر هذه المسؤولية وأن أتصرف بحماقة كما اعتدت مني.. هل تذكرين؟ هل نسيتِ.. إنها أشياء لا تنسى.. كانت الشمس قد توسطت السماء وفرحة تعد الغداء لنا حين أمسك سعيد يدي وقال:

- هل تحب أن ترى الخير الذي أحضرته معي من الجبل.

كانت الحيرة قد تملكتني.. ترى ماذا يفعل سعيد عقرب هناك في الجبل؟ لم أسأل حسين حرب هذا السؤال، رغم أنه كان يشغلني منذ أن حضرت إلى أرض قصر رشوان.. الآن سأعرف كل شيء منه.. عاد وقال:- بعد أن نتناول غدائنا سأطلعك على كل شيء فقط لا بد أن تكون أعصابك قوية.

زادني حيرة بكلامه قبل أن نتناول طعام فرحة الذي بدأنا نشم رائحته.. فرحة تختلف عن ولاء.. فرحة رغم أنها ترتدي ملابس بلدية ليست مثل أزياء ولاء التي تأتي بها من الخارج.. فرحة تبدو مثل عود النبات الذي يشق الأرض الآن.. فارعة مثل نخلة وابتسامتها تظلك كشجرة التوت مليئة بالحياة مثل بئر الماء الذي لا ينضب أبدا كلما أخذت منه عاد وامتلأ.. رغم قسوة الحياة هنا في القصر التي تقترب كثيرا من صلابة الجبل الذي يظلهم، إلا أن أهل القصر طيبون مثل النبات الضعيف الذي يشتد عوده يوما بعد

يوم.. لا أعرف كيف يدخل سعيد عقرب الجبل بمفرده؟! كيف يقضي هذه الأيام هناك؟! ولماذا يذهب إلى الجبل؟ هل هو ناسك يتبتل يعبد الله بمفرده هناك بعيدا عن الناس!! ربما لكن هيئته ليست هيئة ناسك أو متبتل.. تراه يبجث عن كنز أو آثار القدماء؟ وهل يكون مهرب آثار لهذا يأتي إليه التجار من كل مكان يسألون عنه؟ وربما كانت الحكومة تعرفه وتطارده وقد يحضر رجال الحكومة الآن ويقبضون عليه وطبعا سيأحذونني معه وعبثا أحاول إقناعهم أنني برىء ولا أبحث عن الآثار وأنني جئت من أجل أوراق جدي والمستندات التي تثبت ملكيتنا لبيت جدي الذي هناك في الكيمان، وإذا لم يصدقوني فسأطلب شهادة حسين حرب، هو الذي أرسلني إلى سعيد عقرب يجب أن أسرع في الخروج من هنا لكن ماذا أفعل وفرحة تعد الغداء الآن؟ لا بد أن أخرج سريعا.. لماذا تركني حسين حرب ولم يأت معنا متعللا بأنه ذاهب إلى الصلاة؟ رأسي لم تعد قادرة على التفكير وأشعر بدوار.. غربان كثيرة حلقت فوق رأسي وتأخذ في النعيق منذ رحل أبي إلى الحرب وأمي ترتدي السواد.. حتى خطاباته التي كان يرسلها من الأسر لم تفلح في إدخال السرور إلى نفسها كانت خطابات بحروف سوداء كأنها تنزف دمًا.. رائحة عرق أبي كانت تفوح منها، هكذا كانت تقول أمى.. عبد الناصر ترك أبي في الأسر ورحل.. رحل بطعم الهزيمة، ورغم مرور كل هذه السنوات الطويلة أمي لا تصدق أن أبي لن يعود من أسره.. تظل رابضة على حافة الشباك تنتظره في وقت عودته قبيل الغروب.. كان يقبل ووقع حذائه الميري وخطاه العسكرية تشق الطريق إلى بيتنا في الكيمان.. مازالت أمي تحتفظ بأشيائه.. الباريه.. السترة العسكرية.. الكتافات.. الحذاء الميري.. المخلة العسكرية.. الكاب.. حتى قمصان بذلة الفسحة والكرفت، كل شيء في مكانه منذ رحيله.. هل تصدق أمي ويعود أبي فعلا بعد مرور كل هذه

السنوات؟ كيف سيكون شكله؟ سيعود رجلا مسنا ليس كما تظنه أمي أو تراه في أحلامها وتصحو لتحكيها لي وتقول وعلى شفتيها ابتسامة عريضة:

-.. رأيت أباك أمس..

أتعجب.. وأنظر إليها باستغراب فترد سريعا:

- هل تظنني جننت.. أنا رأيته في الحلم وسيما كما هو كأن السنوات التي مرت لم تؤثر فيه.. عندما يحضر ويراني هكذا.. ربما لا يعرفني.. كنت أجمل من هذا بكثير.. أمك عائشة يا سراج كانت رائعة الجمال.. انظر السنوات التي مرت تركت آثارها في جسدي.. هل سيدهش لتلك التجاعيد التي بدأت تهاجم وجهي وتلك الشعيرات البيضاء التي نبتت فجأة في رأسي؟ هل سيلاحظ أبوك أنني كبرت.. عندما رأيته بالأمس كان مازال كما هو شابا تزين النجوم كتفيه وشاربه الأنيق ووجهه المضيء يسطع كالبدر..

كانت الدموع تملأ عينيها.. ورائحة الحنين تفوح في البيت.. كيف تحملت أمي كل هذا الحزن؟.. رحل أبي عنها ورحل جدي أيضا وهي مازالت تنتظر الاثنين.. إنها تريد أن تحتفظ بالبيت كما هو حتى يعود الاثنان من غيابهما والآن هي تنتظر عودتي وأنا أحمل معي البشرى لها.. أوراق جدي.. الأيام هنا في القصر بعيدا عنها وعن بيت جدي تمر بطيئة ثقيلة.. أخيرا أخذ يدي بعد أن فرغنا من طعام فرحة وقال وكله لهفة:

- هيا كي أريك ماذا أحضرت من الجبل....

4

'عبد الناصر أعلن خطاب التنحى وترك أبى فى الأسر وحيدا'

منذ أن عرفته تعلقت به وأصبحت لا أفارقه.. أحببت سعيد عقرب مثل كل أهل قصر رشوان.. بالأمس أخذني إلى بحر تنهلا.. البحر الذي يفصل ما بين الجبل والقصر وعند شجرة صفصاف عجوز جلسنا.. نظر إلى الجبل وكنا نواجهه، قال: "في بلاد الصين وفي كتبهم القديمة قرأت عن الديك السماوي، ووفقا لمعتقدات أهل الصين بأنه طير بلون أرجواني مذهب يصيح ثلاث مرات في اليوم؛ الأولى حين تأخذ الشمس حمامها في البحور صباحا، والثانية حين تصير الشمس في الأوج والأخيرة حين تغطس في الغرب.. أول صياحه يهز السماوات ويقلق البشر من النوم، وتقول الأسطورة إنه من بين نسل الديك الذي يدعى اليانج أساس الكون الذكر، وفي وصف الديك يقولون إن له ثلاث أرجل ويجثم على شجرة تدعى فوسانج التي تنبت في أراضي الشروق، ويحسب طولها كما تقول الأسطورة بآلاف من الأقدام.. صياح الديك السماوي مرتفع وصاخب جدا بحيث يسمع كل الكائنات، وانطلاق صوته جليل وعظيم وهو يضع بيضا كما تزعم الأسطورة الصينية، وهذا البيض يفقس حين تحتضنه دجاجات ذات أعراف حمراء ترد على غنائه كل صباح، والصينيون يعتقدون أن كل ديوك الأرض قد انحدرت من هذا الديك السماوي الذي يدعى اليانج الذي له اسم آخر، هو طائر الفجر"، وحدثني عن ثعبان السمك الطائر وقال إن الصينيين يصورونه ثعبانا على شكل سمكة، لكن له جناحي طائر،

وهم يعتقدون أنه ينذر من رآه بفترة جفاف.. سعيد عقرب كان مولعا بكل شيء عن الثعابين، ولأنه صائد محترف يتردد عليه الباحثون من الجامعات وبعضهم يسأله ويدون كل ما يقوله سعيد.. والبعض يطلب منه اصطياد بعض الأنواع من الثعابين النادرة، وهناك بعض مراكز السموم تتصل به لتوفير الأمصال ولتدبير سموم بعض الثعابين والحيات لها، ويقصده هواة تربية الثعابين وكذلك هواة مشاهدتها.. لديه مجموعة نادرة من أنواعها المختلفة يضعها في بيته، وأذكر حين أخذني لرؤيتها أصبت بنوبة فزع شديدة لأنها المرة الأولى التي أشاهد فيها الثعابين عن قرب.. كان ذلك في بيت سعيد عقرب.. كان يتعامل معها كأنه يتعامل مع مخلوقات أليفة.. في الحجرة الواسعة التي تقع في نهاية البيت يضع صناديق من زجاج بداخلها أنواع كثيرة من الحيات والثعابين بعضها نادر كما قال لي.. الذي أدهشني إلى الآن أنه ذكر لي أن جدي يوسف الواجدي هو الذي علمه هذه الحرفة، حرفة صيد الثعابين، وقد بدأت لديه هواية، وقال إن جدي تعلمها من طول مكثه في الجبل عندما كان يهرب من الإنجليز أيام الاحتلال، فقد كان يلجأ إلى الجبل ويظل مختبئا فيه أسابيع طويلة حتى يمل الإنجليز ويرحلون عن قصر رشوان، وقد ذكر له جدي كيف كان يضطر للتعامل مع ثعابين الجبل طيلة هذه الفترة وكيف اكتسب الخبرة في اصطيادها رغم شراسة بعضها قال هل تصدق أن الجبل كان يحن لجدك كان يطعمه ويسقيه وكان جدك ماهرا بدروبه ومتاهاته ومدقاته ..الجبل أحب جدك وكشف له عن أسراره وكنوزه ورود له الوحوش والثعابين والأفاعى كان كلما سمعناه يشهق يخرج له جدك فيطمئن ويسكن ويظل جدك عنده زمنا حتى نخشى عليه ونتوجع ونحن ننتظر عودته ، وقال سعيد إنه سمع عن جدي وقدرته في المقاومة وعرف علاقته بـ حسين حرب وطلب

منه أن يدله على جدي، وفعل وأصبح من رفقائه منذ ذلك الوقت، وهناك في الجبل قضى مع جدي وقتا طويلا استطاع أن يتعلم منه طريقته في اصطياد الثعابين والتعامل معها.. لم أصدق أن جدي يفعل كل هذا.. هل كانت أمي تعرف ما حكاه سعيد الآن لي؟ ولماذا كانت تخفيه عني؟.. الناس هنا في قصر رشوان يعرفون جدي ويحبونه، حتى الشيخ حسان إمام الجامع حكى لي أشياء كثيرة عن جدي منها أنه وأثناء مطاردة جنود الاحتلال له بعد أن أغرق لهم عربة جيب في بحر (تنهلا) الغربي أسرعوا خلفه ولم يستطع أن يصعد الجبل هذه المرة وأخذوا يتتبعونه من شارع إلى حارة "حتى انتهى الأمر بجدك إلى هنا، وكنت أقف على باب الجامع وأشرت له بطرف عيني وفهم جدك ودخل من باب الجامع وحضر قائد الإنجليز وأراد أن يدخل الجامع ووقفت له بالمرصاد، وقلت له إنه لا يجوز أن تدخل بيت الله وأنت تحمل السلاح، لكن القائد أصر ولما رأيت ذلك منه صعدت إلى المئذنة وأذنت ولم يكن وقت صلاة، وتعجب الناس لهذا الأذان واندهشوا حين سمعوا الأذان فقد كان ذلك قبل صلاة العصر بأكثر من ساعة، وأقبل الناس من كل مكان حتى شهد الجامع زحاما شديدا وفوجئ قائد جنود الاحتلال بهذا الجمع الغفير من المصلين وقرر أن يرحل بعد أن تأكد أنه من المستحيل أن يقبض على جدك وبعده بيومين عادوا وقبضوا علي بعد أن عرفوا ما فعلت لكن جدك كان قد فر إلى الجبل بمعاونة بعض النسوة من أهل البلدة.. ذهب كرجل يرعى الغنم ويخشى عليها من الذئب أن يفترس واحدة منها يمسك عصاه كأنه ناسك ويسير خلفها يمر عبر الحقول وتطأ قدمه الأرض الخضراء ويعبر المصرف العمومي العميق عند حدود البلدة حاملا عصاته على كتفه.. ينام كرجل عظيم في ظل شجرة توت ويحلم مثل الصوفيين بالخلاص.. تتعجب الأشجار من صنيعه حين تراه يسخر من العالم

الـذي يحـط مـن قـدر البؤسـاء الـذين فـروا مـن الطغـاة واجتـازوا المتاهات في لحظة بهيجة أو تعسة لكنها أبدية خالدة ربما لا تنسى، أو تموت مثل الأشياء الرمادية.. عند ذلك الجبل مكث جدك أياما يأكـل مـن عشـب الأرض ويتكئ على عصـاته، بينمـا جنـود بكامـل عتادهم يطاردونه عند البحر ويسمونه قاتل وسارق وقاطع طريق.. يسـألون الفلاحـين عنـه وهـم يعزقـون الأرض المحروثـة وينتظـرون المطر في الصين حين تشتد الحاجة لري الأرض.. يتطلع الفلاحون إلى طائر يدعي شـانج يانج لـه سـاق واحدة فقـط هكذا يعتقدون ومنذ وقـت بعيـد كان الأطفـال يطوفـون في الشـوارع وهـم يقفـزون لأعلى على قدم واحدة وهم يرددون (سترعد وتمطر شانج يانج هنا ثانية) وهم يعتقدون أن الطائر يسحب الماء بمنقاره ثم ينفخه كالمطر على الحقول العطشى.. لقد حدثتني عن أمك وتقول إنها مازالت تنتظر جدك كأنه سيعود.. فعلا هل ستسخر مني إذا قلت لك إنني حين أقـف أمـام هـذا الجبـل أرى جـدك يوسـف الواجـدي يخـرج مثـل الطـائر شـانج يـانج يـروي الأرض العطشى ويسـوي الأرض للفلاحـين الأجراء؟!! متى يعـود شـانج يـانج.. تمـتم الشـيخ حسـان والـدموع في عينيه:

أصبحت لا أملك السلاح ولا أمسك رأس البعير إن نفرا
والذئب أخشاه إن مررت به وحدي وأخشى الرياح والمطرا

عبد القاهر الجرجاني في كتابه (المقتصد في شرح الإيضاح) قـال التقـدير: وأخشى الـذئب أخشـاه، فأضـمر فعلا ينصـب الـذئب ولم يرفعه ليكون مشاكلا لما قبله من الفعل، وقد حكي عن ورعه وتقواه ما رواه السلفي من دخول لص عليه وهو في الصلاة فأخذ جميـع مـا وجـد، وعبـدالقاهر ينظـر إليـه فلـم يقطـع صـلاته".. بكى الشيخ حسان حتى أغرق لحيته القصيرة.. الناس هنا يحبون جدي ويعرفون عنه كل شيء ومنذ أن التقيت سعيد عقرب وتعلمت منه

الكثير وما كنت أظن أن يأتي يوم وأمسك ثعبانا بيدي أو أن يلتف حول رقبتي.. فعل سعيد بي هذا.. كان يعرف كل شيء عن الثعابين واندهشت لذلك حين أدخلني أول مرة إلى حجرة الثعابين.. ارتعدت وكدت أسقط مغشيا علي من شدة الخوف لولا أن فرحة صرخت فيه وقتها وحملني سريعا إلى خارج الحجرة وأنا أنتفض وكل قطعة فيّ تصرخ وترتجف.. حين أفقت وجدت فرحة تلومه وتعنفه لأنه فعل بي هذا.. قال لها إنه معذور.. لم يتصور قط أن حفيد يوسف الواجدي يخاف هكذا.. فرحة لم تتركني حتى سرعان ما أحضرت كوب ليمون كانت مذعورة لما حدث لي وحين أفقت كان سعيد يضحك ساخرا من رجولتي.. ضحكت أنا الآخر لأنني لم أتصور ولم يدر بخلدي أن يكون سعيد صائد ثعابين أما فرحة فكانت مندهشة لردة فعلي.. كانت ماتزال مرتبكة خائفة من أن يكون قد حدث لي مكروه.. تعلمت من سعيد الكثير.. عندما يكون مسرورا لا يحب أن يتحدث إلا عن الثعابين.. في إحدى المرات أخذ يشرح لي بداية من اسمها وذكر أن للثعابين أسماء عديدة عامة لا تحصى وردت في لغتنا منها، الحيات والأحناش والاين والعثاء والصل والعيم والعين ولكل من هذه الأسماء معنى يميز بعض هذه الأنواع عن غيرها.. والثعابين تعيش عمرها الذي يتراوح ما بين خمسة عشر عاما وخمسة وعشرين عاما، وقد قرأ كثيرا عنها حتى أصبح أشهر صائد ثعابين بل وبعض الأجانب المهتمين بأمر الثعابين يعرفونه ويتصلون به.. سعيد قضى حياة طويلة معها ومن خلال خبرته بها منذ خروجها إلى الحياة حتى موتها كان سعيد فرحا وهو يحكي لي عن الثعابين وكأنه يحكي لي قصة رومانسية قرأها لإحسان عبدالقدوس.. قال إنه يبكي عندما يشاهد ثعبانا يموت أو يقتل على يد أحد الفلاحين حين يشاهده فجأة في بيته فيهم بقتله دون ذنب اقترفه الثعبان.. لعل ولعه بالثعابين قد صور له أن كل الناس

مثله.. فجأة توقف عن الحديث وهو يتطلع إلى حسين حرب الذي كان قد حضر وشرب معنا الشاي من يد فرحة:

- إذا كنت تبحث عن أوراق جدك فحتما ستجدها عند الأستاذ أرسطو.

تعجبت مما قال حسين حرب.

- أرسطو؟!!!

رد سعيد سريعا

- يقصد الأستاذ سيد خاطركان جدك يطلق عليه.. أرسطو وكنا نناديه بهذا الاسم لأنه كان مدرس فلسفة.

كنت قد نسيت الأوراق والعقود التي جئت من أجلها.. كيف حدث هذا؟ كيف حال أمي الآن؟ والبيت هل أخذته الحكومة؟ لا بد أن أتصرف بسرعة صرخت بصوت عال:

- وأين الأستاذ أرسطو هيا نذهب إليه بسرعة.. الآن.

نظر إلي سعيد وهو قلق ربما شعر بما دار في رأسي:

- مستحيل.. إنه في البر الغربي.. بعيد عن هنا إنه خلف الجبل وهذا يعني أن نعبر الجبل في الليل وهذا مستحيل.

- لا بد أن أذهب إليه ليس أمامي وقت الحكومة ستأخذ بيت جدي الذي في الكيمان.. هل تعرف معنى هذا؟ سيطردوننا منه.. أمي تنتظر الأوراق التي تثبت ملكية جدي لهذا البيت.. هل تعرف خطورة أن أتأخر؟!!

بكيت.. الدموع انهمرت من عيني.. لم أستطع أن أتماسك أمامهما.. ضمني حسين حرب إلى صدره وقال:

- لا تخف في الصباح سنتصرف.

ظللت قابعا في فراشي لم أستطع النوم. وجه أمي وهي تجلس في انتظاري شاخص أمامي على الفراش رأسي تدور مثل طاحونة وأظن الأفاعي التي يضعها سعيد عقرب في بيوت من زجاج

قد أطلق سراحها وتحوم حولي تقترب مني تريد أن تمص دمي وتقذف سمها القاتل في أوردتي.. فحيحها يصل إلى سمعي يملأ أذني تداهمني الأفعي الخبيثة.. قال سعيد إنها حية سامة من فصيلة الأفاعي تقبل ناحيتي تفتح فمها يبرز نابان طويلان أجوفان يتصلان بعظام الفك الأعلى المتحركة ينفثان السم وسرعان ما يرتدان إلى الوراء.. طولها ثلاثة أمتار أو تقل قليلا أراها تفتح فمها وأنا أهرب وأصرخ لا يسمعني أحد.. حتما ستفتك بي.. خلفي كانت تقف الأفعى المرجانية وبطون جسمها كما وصفها لي سعيد بالضبط.. عصائب لونية مرجانية اللون وصفراء وسوداء أعرف أن لدغتها تؤثر في الجهاز العصبي فتصيب الضحية بالشلل.. ولاء كانت تقف تنظر ناحيتي لا تتحرك وأنا أصرخ أتفتت أتمزق كقطعة صلصال ناشفة.. لماذا تبدين مثل الإنسان الثلجي البغيض أهلب قيل إنه يسكن جبال الهملايا العليا ويدعونه الإنسان الدب هل تظنينه خرافة.. حكاية وهمية من حكايات الصيادين البسطاء؟ لكنك رغم هذا تشبهينه.. أنا لا أصدق شيئا مما تقولينه.. أن الله أنزل (الأقدس) أنزله على رجل يدعي (البهاء) حسين علي المازنداراني واسمه حسين نوري والملقب.. بهاء الله وقلت إن الصلاة قد نسخت وقرأت (كتب عليكم الصلاة تسع ركعات لله منزل الآيات حين الزوال وفي البكور و الآصال وعفونا عن عدة أخرى أمرا في كتاب الله إنه لهو الأمر المختار) وتلوت آيات تحويل القبلة (وإذا أردتم الصلاة فولوا وجوهكم شطر المقام المقدس (عكا) الذي جعله الله مطاف الملأ الأعلى ومقبل أهل مدائن البقاء ومصدر الأمر لمن في الأرضين والسموات) هل تعرفين أين عكا الآن إنها في إسرائيل هل تفهمين ماذا أعني.. ثم تلوت (قد نزلت في صلاة الميت ست تكبيرات من الله ذي الآيات) هل تعتقدين مثلهم أن الأقدس الذي تقرئين منه نسخ القرآن الكريم.. حكي لي حسين قاسم الإخواني الذي

يسكن شارعنا عن امرأة تدعى قرة العيون هي التي صرخت في الرجال المجتمعين في مؤتمر بدشت وذلك للسعي لتخليص من يطلقون عليه حضرة الباب الذي كان مسجونا في قلعة ماكو بأمر من محمد شاه ملك إيران وإمبراطورها آنذاك وأثناء الاجتماع دخلت قرة العيون المؤتمر وقد أسفرت عن وجهها على غير عادتها وقد تزينت بأجمل زينة ولبست أبهي حلة وهي تصرخ بصوت جهوري (إني أنا الكلمة التي ينطق بها القائمقام التي يفر منها نقباء الأرض ونجباؤها.. إن هذا اليوم يوم عيد وسرور عام وهو اليوم الذي تفك فيه قيود الماضي فليقم كل من يشترك في هذا المجد ويقبل صاحبه فإن أحكام الشريعة المحمدية قد نسخت بظهور الباب..) أشعر بغبار كثيف يحط على رأسي وطائر أسود بحجم العنقاء يحط على كتفي هل تتصورين نفسك يا ولاء امرأة مثل قرة العيون؟! هل تعرفين أن الباب قد أعدم في 9 تموز- يوليو ستة 1850 م في مدينة تبريز؟ إذا كان هو الله فلماذا لم ينجُ؟ لماذا أخفيت عني حقيقتك طيلة هذه السنين؟ هل عكا هي قبلتك.. عكا الآن محتلة في أيدي الإسرائيليين.. الإسرائيليون الذين أخذوا أبي في حزيران ولم يعد حتى الآن جاء في سفر التثنية (إسرائيل يحكمها الله بصورة مباشرة) أنا أعرف.. ربما كان أبوك الأستاذ كامل الجوهري هو السبب في أن تكوني هكذا لماذا تصرين أن تلقي بي في بئر سحيق مظلم أقف وحيدا تشدني النوة إلى فراغ لا حوائط له.. فراغ لا نوم فيه ولا راحة أجلس كقنديل مظلم وجسدي يسقط في الأرق.. أبوح ككل العاشقين بألمي ليس لي قدرة على النطق لا أعرف حدا لهذا الأسى الذي أطل بوجهه الذي يشبه البوم داخلي والبنت التي أحببتها تصبح مدينة خاوية بلا أهل.. ولاء ضائعة وأنا ممزق لا أستطيع أن أبوح لأمي بما حدث من ولاء.. ليتني كنت حشرة يدهسها العابرون دون أن يشعروا بألم الضمير..

هل تذكرين زهرة القرنفل التي جمعت بيننا ذات صباح جميل في حديقة بيت جدي.. أنت مندفعة إلى أشياء لا تعرفين حجمها لكنها ككرة الثلج كلما تدحرجت على الأرض تضخمت.. الأشياء الصغيرة تسقط من أيدينا فجأة دون أن نشعر بها لكننا عندما نكتشف ذلك نحزن.. أنا أحبك يا ولاء.. لن أستطيع أن أخرجك من جسدي بهذه البساطة كما نصحني حسين قاسم.. هناك أشياء نود فعلها لكننا لا نملك القدرة على ذلك.. ربما كان هذا ضعفا ربما كان استسلاما ربما كان شيئا آخر لكنها أشياء لا تسقط منا أو ننفصل عنها بإرادتنا.. ولاء في دمي أحبها كما أحب بيت جدي كما أحب أشيائي الخاصة.. ربما لا تصلح بعض الأفكار أو قل المشاعر أن نعبر عنها بطريقة واضحة لأننا أحيانا لا نستطيع الإمساك بها لأنها تستعصي على التحديد، أو لأن اللغة تبدو عاجزة عن ذلك في كثير من الأحيان.. بل تبدو اللغة عائقا يحول دون ما نريد.. ليتني كنت شاعرا كنت ساعتها أكتب بحرية أكثر.. الشعراء يمتلكون حريتهم لأنهم يمتلكون لغة خاصة بهم.. لغة يستعصي على العامة فهمها بسهولة.. لغة لديها القدرة على اختراق الحواجز.. كنت لحظتها أكتب قصيدة يحار فيها النقاد سيلقون نظرياتهم الجامدة عن التكعيبية و البنيوية وعن الحداثة وما بعدها.. قصيدة لم تكتب من قبل ولم يمسسها ناقد.. تملا الأفق.. ستخرج على الناس حرة بلا قيود.. ولاء لماذا تبتعدين.. تفكرين في أشياء لا معنى لها.. أشياء ساقطة ربما لو استطعت أن أكتب عنك لكتبت مثل ابن الرومي:

أعانقها والنفس بعد مشوقة
إليها، وهل بعد العناق تدانِ
وألثم فاها كي تزول حرارتي
فيشتد ما ألقى من الهيمانِ
وماكان مقدار الذي بي من الهوى

ليشفيه ما ترشف الشفتانِ
كأن فؤادي ليس يشفي غليله
سوى أن يرى الروحين يمتزجانِ

الرومانسيون الألمان جعلوا الشاعر العبقري في منزلة أعلى من منزلة العالم لهذا انتقدوا بلزاك لأنه كان يتزلف لتافهين من الوضعيين في عصره ولأنه يظهر من مقدمة (الكوميديا الإنسانية) أن بلزاك لا يفرق بين الكاتب الفنان والفيلسوف والعالم ويضع بين الكتاب ليينتس وكانت وآخرين.. أنا أواصل الحياة هنا بعيدا عنك في قصر رشوان وبعيدا عن بيت جدي أشعر بفراغ هائل.. أنام نوما متقطعا وجسدي ينتفض أحس بها كتلك الانتفاضة التي كانت تنتابني وأنا صغير في حجر أمي حين يشتد نباح الكلاب الضالة أو يعلو عواء الذئاب ويحمل جدي بندقيته ويخرج إليها.. لم أكن أعرفه.. بالأمس أبكانا الحاج حسين حين ذكر جدي.. كانت فرحة تجلس عند عتبة الباب مدت يدها رفعت فردة حذاء مقلوب وعدلتها.. كانت تنظر إلى الحاج حسين بكت وأبكتنا معها ردد أبيات المهلبي:

ألا موت يباع فأشتريه
فهذا العيش ما لا خير فيه
ألا موت لذيذ الطعم يأتي
يخلصني من العيش الكريه
إذا أبصرت قبرا من بعيد
وددت لو انني مما يليه

كان يعرف أن نهايته قد قربت لكنه كان يريدها أسرع مما قدر له.. قام وانصرف في هدوء.. شيء بداخلي تحرك.. بكيت في ذلك اليوم بكاء مرا لم أبك مثله على أبي الذي تعودت على فقده منذ رحيله في ليل حزيران.. وجدي الذي تركني مع أمي وحيدين ورحل

إلى هنا.. منذ سمع سعيد ما قاله دخل إلى حجرة الثعابين ولم يخرج.. فرحة كانت قلقة عليه.. طلبت مني أن أدخل إليه قالت: كان يلازمه ولا يفارقه إلا عندما يصعد الجبل لصيد الثعابين حين دخلت عليه كان مشغولا في إطعام الثعابين بعضها كان يتناول الطيور والبعض الآخر كان يضع له الحلزون وبعض الحيوانات الصغيرة.. نظر ناحيتي وعندما لاحظ اهتمامي قال: يجب أن يكون في بيت الثعبان مكان يتخفى فيه عن الأعين وإلا فأنت تفقده أهم سلوك لديه ولن يشعر بالراحة أبدا لذلك يجب وضع صندوق كهذا للاختباء كما يجب أن نضع في بيت الثعبان بعض الاحجار وقطع الأشجار حتى يشعر كأنه في بيئته الطبيعية.. انظر إن الثعبان يأتي حركات مختلفة للسير فهناك مثلاً الالتواء الجانبي والالتفاف الجانبي والحركة الانقباضية لا تتعجب فقد قضيت عمرا مع هذه الثعابين عرفت عنها كل شيء أصبحت تعرفني كما أعرفها وتراني كما أراها.

- وهل الثعابين ترى يا سعيد؟

ضحك سعيد حتى خفت عليه وقلت قد أصابه مكروه من كلام حسين حرب حتى سمعت فرحة ضحكه وكانت بالداخل.. وقفت مثلي مندهشة عند الباب نظر ناحيتي:

- أعد السؤال أمامها.. اسمعيه يا فرحة.

نظرت فرحة ناحيتي وهي تتعجب.. كنت قد غرقت في الخجل وقلت بلسان معقود:

- سألته إن كان للثعابين عيون ترى بها مثلنا؟

غطس وجه فرحة في ابتسامة واسعة واقتربت مني نظرت إلى أحد الثعابين المحبوس في البيت الزجاجي:

- لبعض الثعابين فتحات فوق منطقة الفم وتسمي الندبة وهي عبارة عن ردار حراري بحيث يسمح للثعبان أن يري ليلا أو في الظلام الدامس.

شعرت برعب وأنا أراها تقترب من أحد بيوت الثعابين وتخرج أحدها وتتلمس جلده باطمئنان غريب صرخت وارتعش جسدي وجريت إلى خارج الحجرة.. كنت لا أستطيع أن أراها تفعل هذا اعتقدت أن سعيد وحده الذي يمتلك هذه الشجاعة إلا أن فرحة فجأتني ولم أتمالك نفسي.. خشيت أن ينقض عليها الثعبان فرحة تلك المرأة التي تمتلك كل هذه البراءة أي عالم أنا فيه الآن؟! بالأمس القريب كنت أهرب من المكان الذي تذكر فيه الثعابين واليوم أنام في بيت مليء بالثعابين؟ حتى جدي كنت لا أعرفه.. حين انطلقت ومعي سعيد لنذهب إلى الأستاذ سيد خاطر سرنا حتى بحر تنهلا وهناك انتظرنا حتى أتى قارب صغير.. كان المراكبي العجوز يسعل بشدة.. انتظرنا على الشاطئ حتى قذف المراكبي بنفسه إلى المياه الداكنة بلون الطين تزداد كثافة النباتات والعشب هنا بجوار الجسر وربما يحجب الغاب المنتشر على الشاطيء وفي وسط المياه الرؤية وأخذ يسبح حتى اقترب من الجسر.. جذب المركب بالحبل الذي كان معه حتى اقتربت من الشاطيء.. شاهدت قوارب كثيرة هناك في النيل حين كنت أهبط إلى العاصمة .كنت أضع ولاء إلى جواري وكانت تخشى اهتزاز المركب وتأرجحه بنا حين يدفعه المراكبي بيديه إلى المياه العميقة تصرخ وأنا أطمئنها واضمها إلى صدري تشعر بالأمان وتحوطني بزراعيها.. المركب هنا قديم وألواح الخشب غير مطلية السوس يأكلها.. شعرت بالقلق لكن سعيد طمأنني وقال ...إن هذا المركب متين و طول عمره ينقل الناس هنا إلى الجانب الغربي ولم يحدث شيء أبدا.. وجه المراكبي العجوز هادئ يتحرك بآلية.. يطمئن على أنه قد ربط الحبل جيدا ويصعد إلى الشاطئ..

بدأ بـ سعيد أخذه من يده.. سعيد وضع قدمه في القارب والأخرى على الشاطئ بينما استند إلى كتف العجوز بذراعه اليمنى ووضع القدم الأخرى في المركب.. جاء الدور علي شعرت بعدم اتزان وأنني حتما سأقع في المياه.. نظر العجوز ناحيتي طالع وجهي أخذ برفق يدي استسلمت له ترددت كانت كلمات سعيد دافعا لي شعرت بدوار وأن أضع قدمي الأولى في القارب بعد أن رأيت القارب يتأرجح فعلا صممت أن أسحبها وأعود إلى الجسر لكن العجوز ضغط بقوة على معصمي وحملني إلى القارب بينما شعرت بقدمه تنغرس في الطين ضحك سعيد وكنت مرتبكا لكن نظرات العجوز الواثقة هدأت من روعي سحب الحبل وشد القارب إلى المياه وحين أراد أن يصعد إلى القارب مال على أحد جانبيه حتى أيقنت أننا سنسقط حتما في المياه.. فاجأنا العجوز بقفزة في الهواء كأنه بهلوان وفي لحظة رأيناه يمسك بالمجدافين وينطلق بنا يتحرك القارب ويشق المياه السوداء المعكرة بالطين دون صوت تشعر به ينساب والمياه تعلو من الجانبين يعرف العجوز الأماكن التي يعلو فيها الطين ويحيد عنها خبر هذا البحر حتى أنه كما قال لنا أمضى حياته الماضية كلها فيه لا يفكر في البر أبدا يضع في القارب كل ما يحتاج إليه.. الصندوق الذي يضعه تحت قدميه الآن به براد شاي وأكواب وبعض الأرغفة البلدي وسمك مشوي حين يجوع يأكل لاحظت وجود لحاف قديم ومخدة.. رأيت بعض العشش المبنية من الخوص ومسقوفة بجريد النخل الذي ينتشر على الجانبين يطل على الوادى.. بعض هذه العشش يتصاعد منها دخان الشواء وأطفال عرايا يرتدون خرقا بالية من قماش التيل تستر بالكاد عوراتهم يجلسون أمام العشش يخيطون فتحات الشباك المتهالكة.. العجوز يحيي امرأة محلولة الشعر تنظف الأطباق والحلل في مياه البحر أمام عشتها يداعبها بكلمات تفهمها بعدها يصيح بموال عن الصبر

ترقص الأطباق التي تغسلها وينزلق أحدها إلى المياه.. كانت مشغولة عنه بمتابعة موال العجوز حين رأت طبقها يغرق صاحت وهي تدعو على العجوز الذي شغلها عن أطباقها وتحلف أنه سيدفع ثمنه حين يعود.. ضحكنا.. عويل المرأة يتلاشى بعد أن جاوز القارب العشش وابتعد دخلنا غابة من البوص لم نعد نرى الشاطئ.. طيور بحجم البط تحط سريعا وعندما تحس بدنو القارب منها تقلع.. لكنها حتما تشعر بالأمان.. من بعيد فتاة رفعت المنديل عن شعرها وحلت ضفائرها السوداء فرشت ظلامهما على ضياء جسدها مشت خطوات قليلة وهبطت إلى المياه وهي ترفع جلبابها عن الجسد البض وقد غطى شعرها كتفيها تغسل فخذيها وتمر بيدها حول ثدييها المتكورين مثل كرات الماس كانت قد قذفت بجلبابها إلى الشاطىء القريب ونزلت إلى الرمال برفق حكت باطن قدمها في حجر صغير وهي تتخلى عن آخر قطعة من ملابسها بعد أن شعرت أنها بعيدة عن الأعين.. رائحة البحر تفوح.. أحست بلسعة الشمس مر الهواء حمل شعرها إلى الخلف ضمت ثدييها بين كتفيها بعد أن شعرت بخجل ألقت جسدها على صفحة الماء أتى موج من بعيد حملها برفق كأنه يقبلها.. ذكر بط رآها حلق بعيدا حرك جناحيه في الهواء أطال المكث فيه كان يستعرض قوته أمام سرب البط الذي تجمع فوق شجرة كافور على ارتفاع قليل من الجبل في حضن ربوة بين صخرتين يعلوها تل من رمال حمراء.. ظله كان على الماء وهو فارد جناحيه لا يحركهما.. العجوز حك أنفه عدة مرات ومسح بلورات من العرق نبتت على جبهته.. الفتاة التي كشفت سرها للكائنات على الملأ رأتها السماء عارية والأرض والمياه والشمس التي سطعت والبحر الذي قضى شهوته منها ولم يرها غيرنا.. كنا عابرين إلى الجانب الغربي وحين أحست فجأة بالقارب البعيد غطست في المياه سريعا.. ظل العجوز منتشيا وهو يحدق حتى شعرنا بالقارب

يهتز.. أفاق العجوز وجده انجرف قليلا إلى الطين هبط وهو يسب ويلعن في النساء.. ضحكنا.. نزل وهو يتأفف.. أخذ يدفع المركب بيديه وقد ثبت قدميه في حجر تحرك القارب أخيرا إلى المياه بعد قليل رأينا قوارب الصيد المنتشرة هنا.. بعضهم كان ينادي العجوز بالريس عزب أحدهم أعطاه مقطف سمك وطلب منه أن يحمله في طريق عودته إلى العشش.. خلع العجوز عمامته.. رأسه كان يخلو من الشعر.. بعض الشعيرات البيضاء تنتشر على الجانبين يعود و يلفها حول رأسه بإحكام.. أشعل السيجارة التي أعطاه إياها الرجل صاحب مقطف السمك وملأ رئتيه بالدخان الأزرق أدخل يده في الصندوق بحث عن الشيء الذي يريده وأخرج قطعة حلاوة طحينية وضعها في فمه علق فتاتها بشاربه الكثيف رفع الكوز وشرب منه ومسح بظهر يده على ذقنه.. ارتفعت حرارة الشمس بعد أن توسطت السماء حين وصلنا هبطنا من القارب وأخذ سعيد بيدي وصعدنا الجبل.. حين تراه من أسفل يشبه غول الحكايات له أنف ضخم معوج وتعلوه مغارتان بأعلى الجبل تطلان كعينين جاحظتين في الفراغ ورأس صلعاء بدينة.. الرمال التي تميل إلى الحمرة وحصى كثير يعوقك عن السير هل كان جدي يختبئ هنا في هذا المكان المخيف؟ حين بدأنا طريق الصعود رأيت ثلاث تلال كأنها أصابع كف عملاق تشير ناحيتنا وفي الواجهة مدق ترابي يبدو السير به غير شاق.. المدق ينحني إلى اليسار انحناءة بزاوية حادة وبعدها تواصل السير المنتظم حتى تجد نفسك أمام صخرة عالية وهنا أشار لي سعيد بالحذر وقال إنه وجد الحية المرجانية العملاقة التي رأيتها عنده في البيت.. كانت هنا في شق بهذه الصخرة كان الصيادون يسمعون فحيحها وهم هناك في عرض البحر حتى أنهم يسمون هذه المنطقة بيت الحية.. مر بجوار الصخرة كأنه يتذكر شيئا عزيزا عليه طاف حول الصخرة وقال إنه أخذ معه أدوات

الصيد ومنها العصا الطويلة المعقوفة من جهة على شكل نصف دائري وعصا أخرى متشعبة من جهة واحدة على شكل حرف y ..وحكى كأنه يتذكر...." وكان معي ملاقط ومساكات وكيس كبير به فتحات صغيرة للتهوية وجاروف صغير وحذاء متين مصنوع من جلد قوي يصل إلى أعلى الكعب بمسافة كافية و لا تستطيع أنياب الثعابين تمزيقه، وأحضرت معي كشافا قويا للإنارة فقد يستغرق عملية الصيد وقتا يصل إلى الليل ووضعت القفازات في يدي وقد مكثت في الجبل يومين حتى أمسكت بها.. الصبر مهم جدا لصائد الثعابين والخبرة أيضا أنا أمضيت عمرا وعرفت سلوك معظم هذه الكائنات.." تحركنا من جوار الصخرة بعد أن أنهى سعيد حديثه وأنا قلق.. مضينا لأعلى حتى رأيت شقا طويلا في الجبل وهنا وقف سعيد وقال: "كان جدك يوسف الواجدي يختبئ هنا من الإنجليز وكان الحاج حسين حرب يأتي له بالطعام والشراب سرا.. لم يكن يعرف مكانه هذا إلا أنا وحسين حرب.. كان الإنجليز يطلبونه بأي ثمن فرحة أصرت أن ترى جدك هنا وبعد أن استأذنته أحضرتها معي.. جدك كان الناس يحبونه هنا كثيرا.. رأيت كيف تعلق بك الشيخ حسان إمام الجامع وسترى بنفسك الأستاذ سيد خاطر هو الآخر تعلق بجدك وأحبه وستجد عنده ما تريد.. كان جدك لا يفارقه أبدا.. لم يعرفه إلا بعد أن قامت الثورة.. جدك خرج في مظاهرات تأييدا لها ولكن سرعان ما قبضت الثورة على جدك لأنه كان يخطب في الناس وخرج الفلاحون خلفه قبضوا عليه وهناك قابل سيد خاطر وأحمد فؤاد نجم وكثير من الكتاب والصحفيين.. لم يصدق جدك أن تفعل الثورة هذا.. عندما أفرج عنه من المعتقل حضر معه الأستاذ سيد خاطر إلى هنا كان مرهقا ومريضا ولا يؤمن بشيء.. علمت أنهم في المعتقل وقعوا مكرهين تحت التعذيب على إقرار بأن لا يعملوا في السياسة.. صعد جدك الجبل

ومعه سيد خاطر".. كنا على وشك أن نقترب من مجموعة من البيوت التي تراصت على الناحية الأخري من الجبل أشار لي سعيد وقال إن هذه البيوت لم تكن موجودة حين حضر سيد خاطر إلى هنا وبنى هذا البيت.. كان البيت وحيدا وخلفه الجبل يبدو أنه منذ زمن بعيد لم يأت سعيد إلى هناك كان مندهشا وهو يحكي وعيناه تغرقان في البعيد.. "مرت سنوات منذ رحيل جدك عن قصر رشوان لم نشاهد الأستاذ خاطر عرفنا أنه تزوج وأن امرأته أنجبت له بنتا لكننا أبدا لم نره أو نرَ ابنته سمعنا أن اسمها شروق.. البيت هناك انظر كما تركته آخر مرة لم يتغير ياه لا أعرف كم أشكرك يا سراج لأنك أعدتني برفق إلى هذا الزمن الذي عشته بجوار جدك والشيخ حسان وحسين حرب .. كان بعاده بالطريقة التي فر بها أمرا غريبا.. لا أعرف كيف تكون الحياة في قصر رشوان بدونه لا شك يا سراج ستكون حياة سخيفة حياة بلا طعم أو رائحة حياة رتيبة مثل البندول لم تعد تتدفق مثل نهر.. هل ستتركنا وتعود عندما تجد أوراق البيت؟ لا يجب أن ترحل عنا بهذه القسوة.. أعرف أن الحياة هنا لا تروقك.. ليست صاخبة مثل المدينة.. ربما تمل من هذا الهدوء لكننا اعتدنا عليه وجدك كان يستمتع بالحياة هنا.. لماذا لا تكون مثل جدك يا سراج؟ الناس هنا يعرفون قدرك وقدر جدك كما رأيت لكنك هناك في المدينة البعيدة الرمادية لا أحد يمنحك كل هذا الحب.. أنا أعرف أن لك زوجة وقطعا أنت تحبها وأمك عائشة يجب أن تحضرهما إلى هنا لا تفعل مثلما فعل جدك وتترك عائلتك بعيدا.. جدك فعل هذا لأنه كان مشغولا بأشياء .. نحن اقتربنا من البيت".. كان قلقا مترددا.. نظر ناحيتي.. بدا مرهقا.. مسح وجهه بكفه.. كان سؤال قلق يتردد في رأسه لم تعرف أصابعه ماذا تمسك وهو يتأمل في زمن مرت عليه سنوات طويلة ولم تجف تفاصيله في رأس سعيد عقرب.. صعد درجتين حتى وصل إلى الباب

طرق طرقات خفيفة لحظات وخرجت فتاة بثياب البيت بوجه ذي ملامح أرستقراطية لا يتجانس مع قسوة الحياة هنا في قصر رشوان.. وضعت نظارة على عينيها وتأملتنا برهة ثم سألتنا عما نريد وعرفت أننا نريد الأستاذ سيد خاطر.. كانت تتابع سعيد كأنها تعرفه حتى أنه ارتبك وشعر بالخجل.. لم تلتفت إلي كثيرا.. دلفت إلى الداخل وانتظرنا حتى عادت.. كانت قد سوت شعرها قليلا وأصلحت من هندامها.. لاحظت أنها تمسك فرشاة وبقع الألوان تسقط منها مضت أمامنا وسرنا.. أجلستنا في الحجرة التي على اليمين وأغلقت خلفها الباب.. أنتريه أرابسك مصنوع من خشب الزان ومائدة مستديرة تتوسطه.. الإضاءة خافتة تنبعث من لمبة على شكل دائرة... تتكوم في جانب الحجرة لوحات عديدة تتراص فوق بعضها وفي الركن المقابل شباك صغير وفوقه ستارة بها نقوش فرعونية باهتة.. كان استقبالا باردا جعلني أتحسس ساعتي لكي أعرف الوقت.. شعر سعيد بالقلق الذي خيم على وجهي عبث بأحد جيوب سترته وأخرج سيجارة وأخذ يبحث عن علبة كبريت لإشعالها وجدها في جيبه بأعلى السترة لكنه تردد في إشعالها عندما دار بعينيه في الحجرة ولم يجد طفاية سجائر تركها بين أصابعه.. كان يسعل بشدة وهو قادم إلينا.. كان يتكئ على عصاة خشب تنتهي برأس منقوش على هيئة رأس أفعى تتلوى.. وقف سعيد وبقيت جالسا.. أفلتت السيجارة من بين أصابعه ولم يشعر حين رآه.. اغرورقت عيناه.. كانت شروق تتابع مشهد العناق هذا وكنت أتابعه أيضا.. وقعت العصا من يده وسعيد يتلقفه في حضنه.. طيور الدهشة حلقت فوق رأس شروق.. هكذا لاحظت وهي تمسح بيدها شعرها الثائر وخصلات صفراء تسقط على عينيها وعندما تزيحها تعود ثانية العينان الزرقاوان تمرحان في سماء صافية.. تختلف شروق عن فرحة وعن ولاء أيضا.. شروق تمتليء بالغموض

كأنها قطعة من الجبل الساحر ربما كانت كتلك الفتاة التي رأيناها هناك في البحر وسحرت عين العجوز تابعتها ومشهد العناق الطويل لم ينته وصوت كلاهما متقطع مبحوح يتبادلان العتاب والحب كمشهد قديم... قدم هذا الكون الذي حار العلماء فيه.. المساء الذي أتى سريعا وأحاط بيت سيد خاطر وابنته شروق وحلق برأسه عند الشباك.. مضى زمن طويل وهما يمرحان في ذكريات طويلة وحين أتى ذكر جدي توقف الأستاذ سيد عن الكلام.. نظر إلي وسعيد يشير ناحيتي.. قال بلهفة وحروف مبعثرة وقدمه تدفع المنضدة أن تتحرك دون أن يشعر.. نظر ناحيتي.. حاول الوقوف استند على عصاته واقترب مني في خطوات مرتبكة تابع ملامحي وأبرق في عينيه لمعان.. كان شعره الأبيض ونظارته السميكة وارتعاشة كفه التي تقبض على رأس الأفعي.. كانت تتابع كل ما يحدث داخل حجرتنا.. هكذا شعرت دون أن أراها لكنني شعرت بوجودها ربما كانت خلف هذه الستارة أو كانت خلف كومة هذه اللوحات المتراصة لكنها أرادت أن تشاهد مشهدا مؤثرا حين دخلت علينا وهي تحمل صينية القهوة.. رأت والدها وهو يحملني بين يديه تاركا عصاته الأبنوس بينما دموع لم تسقط منذ سنين تجمعت الليلة وانهمرت في براءة طفل.. قبضت شروق على صينية القهوة التي كادت أن تفلت منها عندما شاهدت المنظر.. أحد الفناجين تحرك من مكانه وانسكب منه قهوة قليلة.. لم أفهم كثيرا مما يحدث حولي.. كنت كطائر غريب يمتلئ بمشاعر باردة حين يقترب من رأس شجرة مليئة بالطيور.. قالت شروق بعد أن قدمت القهوة لنا:

- بمقدور أي فنان ردىء أن يرسم هذا المشهد الرائع الذي أراه الآن.

أدركت على الفور أنها تجيد الرسم وبالتأكيد هذه اللوحات المركونة هناك تخصها.. تبدو شروق رائعة حين تحلق كفرشاة تمتلأ بهجة حين تحس بها سعيدة تمرح كطفلة داخلك.. ربما يكون سر سعادتها التي جعلتها تتحرك بيننا كفراشة حين رأت أباها سيد خاطر قد عاد إلى يقظته التي فارقها منذ سنين.. قالت وهي تتدفق بالحيوية:

- أنا ذاهبة إلى حجرة الرسم هل تريدون شيئا.

هز أبوها كتفيه بالنفي.. خرجت.. امتلأ الحديث بالدخان وأفرغ سعيد عقرب السجائر التي أحضرها معه.. حكى لي سيد خاطر أشياء كثيرة عنه.. عرفت أنه أحد أبطال المقاومة.. قاوم الإنجليز حتى خرجوا من مصر وكان يحب سعد زغلول وخرج في مظاهرات الوفد مثل كل المصريين واعتقله الإنجليز عدة مرات وبعد حركة الضباط الأحرار وثورة يوليو خرج في مظاهرات لتأييد محمد نجيب وضباطه وبعدها قبض عليه عبد الناصر.

- عبد الناصر فعل أشياء عظيمة؛ الثورة.. الإصلاح الزراعى.. السد العالي.

الإمبراطور شي هوانج تي هو الذي أمر ببناء سور الصين الهائل لكنه وفي الوقت ذاته أمر أن تحرق الكتب التي كانت تتحدث عن الماضي الذي كان يفتخر به الصينيون؛ لأنه تاريخهم.. خمسمئة فرسخ من الحجارة تبنى بقدرة هائلة وفي الآن نفسه تحرق آلاف الكتب.. الزعماء في التاريخ لهم منطقهم غير المفهوم لنا.. الأمراء في التاريخ يبنون التحصينات لحماية ملكهم ويحرقون الكتب لأنها تمثل المعارضة وبناء سور بيت أوحديقة شيء هين بالطبع لكن بناء سور عظيم وتسوير إمبراطورية شاسعة المساحة كالصين هذا أمر يشبه المعجزة.. بنفس القدرة ربما أراد أن يمحو الماضي كله ليبدأ التاريخ من تحت قدمي شي هوانج تي الذي جعل عقوبة من

يخبئون الكتب أو يخفونها الوشم بحديدة ساخنة إلى حد الاحمرار ويحكم عليهم بالعمل الشاق لباقي أعمارهم في ذلك السور الهائل.. هذا الإمبراطور الذي أمر شعبه بأن يحرق ماضيه هو الذي نفى أمه لأنها كانت عبدة وأعتقت؛ وربما يكون فعل ما فعل لأنه أراد أن يمحو عار أمه فيمحو كل ذاكرة التاريخ.. بنفس منطق فرعون الذي تحدث عنه التاريخ حين أمر بقتل كل الأطفال لأنه أراد أن يقتل طفلا بعينه.. رجل مثل أبو الحسن الماوردي حين ألف كتابه الشهير (الأحكام السلطانية) أوصى بعدم نشره إلا بعد وفاته.. لم أعرف جدك إلا في سجن عبد الناصر مكثنا معا شهورا.. هو الذي أتي بي إلى قصر رشوان بعد خروجنا من معتقل القلعة.. كنا نبحث عن مكان آمن.. جدك تحمل الكثير.. حدثني كثيرا عنك في ليالي السجن الطويلة.. كان يحب البيت الذي بناه في منفاه هناك في أرض الكيمان التي تبتعد عن العمران ولا تصل إليها قدم إنسان، وحين كنت أضيق بالسجن وأفقد صبري وأشعر بالأرق وربما قضيت أياما لا أنام.. كانوا يجيدون إذلالنا يضعوننا في غرف تملؤها الرطوبة ويسحبوننا على بلاط المعتقل في ليالي الشتاء، وفي الليل يأتي أحد الحراس وكنا مستغرقين في النوم ويلقي بدلو مياه بارد على أجسادنا.. عانينا وعانى جدك وكنت أشفق عليه لكبر سنه، لكنه كان أكثر جلدا منا نحن الشباب.. ذات يوم وكان التعذيب قد اشتد علينا ورآني أبكي، ضمني إلى صدره ورأيته يبتسم.. حكى لي ليلتها ما فعله العباسيون بابن حزم الأندلسى صاحب المكانة في الأدب العربي وصاحب الثقافة الواسعة في اليونانية والفارسية وصاحب طوق الحمامة، هذا الكاتب الذي تجرأ وكتب (رسالة الصحابة) وأرسلها إلى المنصور لكنه طلب منه أن يهتم بجند خراسان وأوصاه على أهل العراق وطلب منه أن يعدل في أهل الشام لم يصدق المنصور أن واحدا من الرعية مهما بلغ قدره وارتفعت مكانته أن

يتجرأ وينصحه وأرسل المنصور إلى والي البصرة سفيان بن حبيب يأمره بقتله فدعاه الوالي إلى ديوان حكمه وأدخله المقصورة وإذا بها تنور وقال له: "والله لأقتلنك قتلة يسير بذكرها الركبان" وأخذ يقطع من جسمه أجزاء ويضع كل قطعة في النار وهو يراها تحترق حتى مات.. وقد استلقى جدك على بلاط المعتقل وقال.. ألا ترى أننا أفضل حالا من ابن حزم؟!!

ضحك وضحكت معه حتى استلقيت إلى جواره وكلانا ينظر إلى الشباك الصغير الذي ستطل منه الشمس غدا.. كان يحكي كطفل ويده لا تفارق السيجارة وحين أخذني إلى حجرته كانت تعج بالفوضى؛ الأوراق المبعثرة.. رواية زقاق المدق لنجيب محفوظ وتحتها كتب عن الاشتراكية.. وكتب عن الثورة الفرنسية ومجموعة من المجلات والجرائد القديمة المتراصة فوق بعضها.. وكرسي مقلوب وطفاية سجائر مليئة ولوحة تظهر فتاة تمسك آلة الكمان وحولها كائنات تشبه القطط وفي الخلف يظهر باب خشبي لبيت قديم وظل كف إنسان مطبوع على الباب عرفت منه أن شروق هي التي رسمت هذه اللوحة الجميلة كانت تضع توقيعها أسفل اللوحة عبارة عن حرف الشين مندمجا بحرف القاف وأسفلها تضع بالأسود الثقيل حرف الواو لكنها تقرأ بصعوبة.. أعدت شروق لنا العشاء وقلت إنها فرصة سانحة لكي أفاتحه في أمر الاوراق وعقود الملكية وقد تأكدت أن الأستاذ سيد خاطر يعرف مكانها لأنه كان ملتصقا بجدي في آخر أيامه ولا بد أنه عرف منه كل شيء بل إنه كان يعرف بيتنا الموجود في الكيمان ويعرف وصفه تماما كأنه يعيش معنا ورآه رغم أنني عرفت منه أنه لم يره ولم يأت إلى الكيمان أبدا.. وضعت شروق العشاء وقالت إنها ذاهبة إلى المرسم.. كانت رأسي بلا أفكار.. أشاهد أمي حائرة في البيت تنتظر قدومي إليها وأنا أحمل الأوراق لنلقيها أمام القاضي في المحكمة ونقول

بصوت عال.. ها هي الاوراق التي تثبت ملكية جدي لهذا البيت الذي ولدت فيه.. إنها الآن تبدو حائرة تطل أحيانا من الشباك ربما تراني قادما من أول الشارع.. وربما لا تنام وتظل يقظة طوال الليل تحدث نفسها أنني ربما آتي في الصباح وأحمل البشري التي تنتظرها وأنا هنا جالس أتناول العشاء مع الرجل الذي لازم جدي طويلا ويعرف عنه كل شيء.. لا تقلقي يا أمي الوقت اقترب سوف أفاتحه وحتما سنجد الأوراق التي تريدينها بالضبط.. فقط أنا أنتظر الوقت المناسب للحديث معه.. الرجل ما زال يحكي عن جدي.. نحن لم نكن نعرفه صدقيني يا أمي إذا قلت هذا الرجل الذي كنا نعيش معه ليس هو جدي.. جدي رجل آخر.. عندما نتقابل سأحكي لكِ كل شيء ولن تصدقي.. ستعاودين سؤالي مرات عديدة عن تفاصيل صغيرة لا أعرف بالضبط ما إذا كنت سأذكرها أم لا وربما أحتاج إلى أن أقسم لك.. إنها أيضا أشياء لا تحكى.. ربما تحس.. هل يمكنك تخيل هذا؟ هل تفهمين ما أعني؟ الناس هنا مختلفون عن الكيمان.. حتى شروق سأحكي لك عنها.. إنها فتاة تشبه البحر تشبه الطبيعة مثل الزهور النادرة التي زرعها جدي في حديقة البيت.. هل تحافظين على الحديقة كما طلبت منك.. شروق تبدو حتى الآن لوحة سريالية كثيرة الخطوط في تشابكها.. ذكرت لي بالأمس وكنا جالسين على المنضدة بعد أن استيقظت مبكرا وكان الأستاذ سيد خاطر مازال نائما.. دعتني لتناول الإفطار معها؛ بيض مقلي وشرائح جبن رومي وسلطة طحينة وطبق فول.. ناولتني شريحة جبنة رومي.. قالت لي إنها اعتادت أن ترسم الخطوط الأولى لأي لوحة على ورق أبيض ثم بعد أن تكتمل الفكرة تنقلها إلى اللوحة.. نهضت إلى الدولاب المواجه لنا فتحت الدرج وأخرجت ورقة بيضاء كان بها رجل حافي القدمين يسير في الهواء كانت إحدى قدميه منثنية تحته وعيناه تحلقان في الفراغ.. إحدى يديه يضعها

خلفه ويبدو متكئا على جذع نخلة يظهر في خلفية الرجل حروف على شكل مستطيلات وأشكال حيوانات وطيور لم تكتمل.. لا أعرف لماذا اعتقدت أنني الرجل الذي في اللوحة.. تحدثت شروق يومها بطلاقة.. كانت تعرف أشياء كثيرة لم أكن أعرفها يومها هاجمت الدادائية.. قالت إنه لا اتصال بينهما وأنه اتجاه في الفن الغربي لا يعبر عن الشرق ولا يصلح لنا هنا رغم افتتان بعض الفنانين به لأنه يعتمد الوسائل المنافية للمنطق.. إنه نشأ ضد التقليدية العمياء والقيود البرجوازية في فرنسا بالتحديد وألمانيا حيث ساد هذا الفن.. ثم تحدثت عن الكولاج قالت إنها حين تنظر إلى الطبيعة وبرغم ما بها من جمال فإنها لا ترغب أن تكون ناسخة.. وضعت نظارة على عينيها وقالت: "هل تريد أن تصحبني إلى البحر؟ تلك هي هوايتي.. أسير هناك ساعة في هذا الصباح الباكر بمقدورنا الان أن نرى الأزهار وهي تصحو".. نظرت نحوي وضحكت عندما رأتني مندهشا وقالت إنها ليست رومانسية كما يمكن ان يتبادر إلى ذهني الآن.. إنها فقط تحب الحياة على فطرتها كما خلقها الله.. جرت بعيدا.. لم تكن ترتدي حمالات الصدر.. كان شعرها المتكوم على شكل ذيل حصان يطير مع هواء البحر.. جلست على صخرة صغيرة ورفعت النظارة وقالت:

- لماذا تبدو مهموما هكذا؟ لماذا لا تعيش سنك الحقيقية؟ أنت تتحرك كدب سمين.. مشاعرك مترهلة.. أنت ما زلت شابا.. انظر إلى البحر واملأ صدرك بهوائه الطازج.. إنه منعش.. انظر وافعل مثلي.

أخذت شهيقا.. وجرت ثانية عدة خطوات سريعة ثم استلقت على الرمال حركت قدميها لأعلى مرات عديدة.. حركت الطيور أجنحتها مسحت بكفها على الرمال وأخذت عود قش ورسمت خطوطا متشابكة ظهرت في النهاية على شكل وجه امرأة

منكمش يبدو وكأن الصقيع يلف ملامحها.. لم تلتفت إليّ حين فرت سريعا إلى البيت.. دخلت إلى حجرة الرسم وأمسكت بالفرشاة.. كان وجه المرأة قد بدا أكثر.. الخطوط الأولية التي وضعتها شروق لوجه المرأة كانت منحنية بحيث يبدو الوجه ناعما لم أسألها عن شيء لكنها قالت:

- حين تأتيني الفكرة أتخلى عن أي شيء لحظة الابتكار.. الإبداع لحظة تائهة حين تقبض عليها بيدك يجب ألا تفلت منك.. الإبداع مراوغ بطبعه هكذا قال أبى.

وجه المرأة الذي يطل من اللوحة يشبه كثيرا ملامح ولاء. لماذا تبدين غامضة؟ أين الأيام التي عشناها معاً.. كانت رائعة.. لماذا تبدلت فجأة كنت كالحصان الذي يحمل سرجه كاملا أفعل كل ما يحلو لك ثم بدأت أفقدك شيئا فشيئا.. لا أفهم سر إصرارك على اتباع والدك كامل الجوهري في اعتناق هذه الأفكار البدينة هل تعرفين.. ربما لا تصدقين.. نعم ربما تظنين أنني أروج أكاذيب لكنها الحقيقة.. لقد فكرت في أن أقتلك.. أحضر سكينا عريضا من المطبخ وأقتلك.. هل كنت أستطيع ذلك؟ لا أعرف على وجه دقيق.. لكن المدهش أن ذلك طرأ على تفكيري.. تبدو الجريمة هنا مستحيلة.. الفقيه الألماني فوبرباخ هو أول من أثار مشكلة الجريمة المستحيلة في سنة 1808م، ورأى أن الجريمة تعتبر مستحيلة إذا لم يحقق الجاني أي نتيجة بسبب عدم توافر محل الجريمة، كمن يقتل إنسانا ميتا.. وأنت منذ فترة طويلة أصبحت جثة هامدة لا تتحرك.. هل تعرفين أن قرة العين التي تتحدثين عنها بكل هذا الحب قال لي جارنا الإخواني حسين قاسم إنها اقتيدت إلى ساحة حديقة الأليخانية في طهران حيث نفذ فيها الموت شنقا بعد أن احتجزت في بيت محافظ طهران محمود خان ثم أرسل إليها الصدر الأعظم رئيس الوزراء العثماني عالمين في الدين لسؤالها ومعرفة

حكم الشرع فيها؟!.. هل تعرفين أنني قبلت هذه المهمة حتى أبتعد عنك هل تصدقين ما أقول؟.. أبوك كامل الجوهري يتحدث عن دين جديد يقول إنه سينتشر بين الناس وقدم لي نسخة من دستور المحفل الروحاني البهائي بالقطر المصري، وأوضح في صدره أن واضعي هذا الدستور تسعة أشخاص من القاهرة والإسكندرية وبورسعيد والسويس والإسماعيلية ذكروا أسماءهم وكلاءً للبهائيين وأعلنوا الدستور في أول مايو سنة 1928م وقرأت فيه (ومنذ ذلك التاريخ تكون جميع الواجبات والحقوق والامتيازات والمسؤوليات التي أوكلها حضرة بهاء الله قاموس الدين البهائي التي بيّنها ومثّلها حضرة عبد البهاء التي يقوم حضرة شوقي رباني أفندي على حفظها وصيانتها، راجعة إلى المحفل الروحاني البهائي، وإلى المحافل التي في ظل هذا الدستور).. وهذا الدستور كما فهمت من الأستاذ كامل الجوهري مكون من ثماني مواد وملحق به لائحة داخلية ويشير إلى وجوب تأسيس بيت العدل العام المنصوص عليه في الآثار المقدسة للأمر البهائي ووجوب الاعتراف التام بحضرة الباب مبشرا وبحضرة بهاء الله مؤسسا وبحضرة عبد البهاء مبينا والتسليم التام والطاعة والخضوع لكل عبارة من العبارات الواردة في وصية عبد البهاء المقدسة.. كما أوجبت أن تكون جميع أعمال المحفل البهائي المركزي حائزة لرضاه واعتماد ولي أمر الله شوقي أفندي رباني أو بيت العدل.. قال لي يومها أبوك إن الصلاة عندنا تسع تكبيرات وقبلة الصلاة إلى عكا حيث قضى البهاء مدة سجنه بها وتوفي هناك.. كنت أجلس القرفصاء أمامه لأني لا أصدق ما يقوله.. أمي لا تعرف شيئا ولم أستطع أن أقول لها شيئا ربما لا تتحمل.. إنها تحبك يا ولاء.. أمي التي مازالت تنتظر عودة أبي الأسير إليها ولا تصدق أبدا أنه مات حتى شهادة الوفاة التي ختمتها الحكومة بشعارها لم تصدقها.. أمي كانت تغضب مني إذا جاء على لساني

سهوا أن أبي مات في الحرب كانت لا تسامحني في هذا الخطأ أبدا وأظل أعتذر لها.. حتى عندما كانت تذهب لصرف معاش أبي من الحكومة تقول إنها ذاهبة لقبض راتبه.. هل تعرفين كيف مات أبي يا ولاء؟ مات هناك بعيدا.. على أرض فلسطين يقاتل اليهود الذين احتلوا أرضنا بينما كان الميرزا حسين الملقب بهاء الله في أدرنة بسالونيك في تركيا حيث نفاه السلطان العثماني يخالط اليهود هناك والتي يطلق عليها البهائيون أرض السر التي أرسل منها إلى عكا بعد أن حاول دس السم لأخيه صبح أزل الميرزا يحيى علي الذي أوصى له الباب بخلافته من بعده ثم نفاه السلطان إلى عكا ونفى صبح أزل إلى قبرص وعندما تولى عباس أفندي الملقب بعبد البهاء على الفور زار سويسرا وحضر مؤتمرات الصهيونية ومنها مؤتمر بال 1911وحاول تكوين طابور خامس وسط العرب لتأييد الصهيونية، كما استقبل الجنرال اللنبي عندما دخل فلسطين بالترحاب الشديد لدرجة أن كرمته حكومة بريطانيا بمنحه لقب سير وقلدته أرفع الأوسمة الأخرى.. ماذا أقول لأمي يا ولاء عندما أصبح بهائيا مثلك؟ أقول لها إنني أصلي في اتجاه قبلتي إسرائيل.. عكا هناك تحت أقدامهم حيث قبر بهاء الله الذي قتله بعض أتباع أخيه صبح أزل ودفن بالبهجة بعكا بعد أن كتب الأقدس الذي ادعى أنه نسخ به القرآن.. جمالك وحده لا يكفي لكي أعتنق البهائية كما تريدين أو يريد أبوك الأستاذ كامل الجوهري.. حكى لي الشيخ حسان إمام جامع قصر رشوان كثيرا عن ما قرأه عن جمال قرة العين التي كانت تلقب بزرين تاج أي صاحبة الشعر الذهبي بالفارسية ابنة الملا محمد صالح القزويني أحد علماء الشيعة، لكن جمالها لم يمنع زوجها أن يطلقها وتبرأ منها أولادها بسبب اعتناقها البهائية.. هل تظنين أنني لا أستطيع أن أطلقك لأنني أحبك؟ ربما كان عندك بعض الحق.. أنا لا أستطيع.. جربت ذلك عدة مرات.. كنت أريد

التخلص منك.. لم أستطع.. هل تفهمين؟ أنا لا أستطيع أن أبتعد عنك.. ولاء هل تقدرين ما أقول؟ حكيت كل ذلك لـ سعيد عقرب أخذني في حضنه.. بكيت بحرقة انهمرت دموعي فجأة في حجر سعيد.. حتى فرحة رأت دموعي.. أحضرت كوب الليمون البارد وضعته في يدي.. هل رأتني فرحة رجلا ضعيفا إلى هذا الحد؟ سعيد أخذني في تلك الليلة إلى بيت الحاج حسين حيث مكثنا هناك ساعتين.. لاحظ الحاج شرودي أخذني سعيد وانصرفنا قال لي ساعتها:

- هل تريد أن تصعد الجبل معي؟ أنا ذاهب إليه غدا.

لم أصدق ما سمعت.. قلت له:

لنصطاد الثعابين من الجبل؟

- نعم يا سراج.

لكنني لا أقوى على ذلك.

ربما. لكن عليك أن تحاول وقد تكتشف في نفسك قدرات كامنة لا تعلمها.

هل أقدر؟

كنت مثلك أقول ذلك حتى أصبحت أشهر صائد ثعابين هنا وفي بر مصر.

أنت كنت تخاف الثعابين يا سعيد؟

مثلك تماما وكنت أرتعد من مجرد رؤيتها تمر من أمامي.

سأحاول ربما أصبح مثلك صائد ثعابين.

إنك تفكر في منافستي.

لا تنس أن جدي هو الذي علمك هذه الحرفة.

وها أنا ذا أرد الجميل إلى حفيده.

حكى لي سعيد في الهند عندما كان الحواة يخرجون بأقراطهم الدائرية الكبيرة المصنوعة من الكهرمان يحظون

بالاحترام كرجال مقدسين في أساطير الهند.. حيث توجد معابد لها وتقام مهرجانات لتكريمها وتنتشر صور الإله شيفا وثعبان يلتف حول عنقه وإلى الآن لا توجد منطقة سياحية تخلو من رجل معمم ينفخ في مزماره فتخرج من سلة من القش كوبرا تتراقص على النغمات مع أن علميا الثعابين لا تسمع.

5

الزعماءالذين يشيدون الأسوار والسدود العظيمة فى الوقت نفسه يحرقون الكتب

آخر مرة التقيت حسين حرب كان في بيته وكان يأكل التوت كعادته ويشعل سيجارته.. جعلني أحب التوت مثله وأصبحت أطلبه كلما ذهبت إليه حتى أنه أطلق علي "آكل التوت".. في هذا اليوم طلب مني أن أصحبه إلى بيت سعيد عقرب.. دنا مني وقال:

-أريد أن أشرب الشاي من يد فرحة إنها أحسن امرأة تعمل الشاي الثقيل الذي يضبط الرأس في القصر كله.. هيا بنا يا سراج.

انطلق بي وفي الطريق طلب مني أن نمر على منزل الشيخ حسان وحين لم نجده بالدار أوصى الحاج حسين زوجة الشيخ أن تخبره أن الحاج حسين يريد أن يراه وفي طريقنا إلى بيت سعيد عقرب مررنا بالمقابر وهنا توقف فجأة عن السير حتى أنني اندهشت وحاولت أن يكمل معي السير إلى بيت سعيد لكنه كان قد توقف ولا يريد أن يكمل حاولت أن أفهم سر توقفه لكنه رفض الكلام معي وقفنا هكذا عدة دقائق ثم نطق أخيرا ولم أصدق ما قاله إلى الآن:

-جدك الواجدي لم يدخل قبرا.. لم نره يدخل قبرا أبدا.. هل تراه حيا إلى الآن لم يمت طوال هذه السنين؟ أين هو الآن؟.. أين جدك يا سراج؟

كان وقع ما قال على نفسي مخيفا ألقى بي في بئر سحيق في الصحراء التي تمتد داخلي بطول الأفق.. ماذا يقصد حسين حرب؟ حين أردت أن أستبين منه حديثه صمت.. قرر ألا يتكلم بعد أن جعلني مسخا مشوها من الداخل.. دخل بي إلى المقابر استسلمت له كان الليل يحيط المكان والأشباح تتراقص أمام أعيننا أخرج منديله ومسح عرقا هاجم جبهته تعلقت جيدا بجلبابه وسرت ملتصقا به.. كان بوسعي أن أتركه وأهرب سريعا ما الذي دفعني أن أمضي خلفه كتابع مسلوب الإرادة حتى أجدني هنا معه في وسط المقابر؟ هل كنت ساعتها أظن أنني سأرى جدي يوسف الواجدي.. جدي يرى حفيده سراج.. هل كان الحاج حسين يعرف مكانه ويخفي عن أهل القصر ذلك؟ هل يعرف مكان أوراق جدي؟ وقف أمام شاهد أحد القبور مسح بكفه عليه تمتم ببعض الآيات ومسح ثانية اقترب أكثر حتى لامسه بجسده نظر إلى أسفل كأنه رأى شيئا يتحرك تابعته نظر ناحيتي كنت مرتعدا فرك كفيه:

-هل تعرف ما هذا يا سراج؟

هززت كتفي وكانت شفتاي عاجزتين عن النطق.. دار حول القبر ومال بجسده على عود صبار مسح عنه التراب جلس على الأرض والتصق به:

-إنه قبري

العرق أغرق وجهي حاولت أن أجذبه للخروج لكنه أصر على البقاء.. لو كان بوسعي أن أتركه وأعود سريعا إلى بيت سعيد لكن كيف أقطع هذه المسافة بمفردي؟

في أيام المقاومة أحضرني جدك إلى هنا لنختبئ وكنت مثلك مرتعدا هكذا كانوا يطاردوننا بقوات كثيرة ولم يجد جدك مكانا آمنا إلا هنا وسط هذه القبور ومكثنا فيها حتى الصباح.. أشاعوا بين أهل القصر أننا مجرمون.. هل تظن يا سراج أن مقاومة المحتل

إجراما يعاقب عليه القانون؟ ولولا المقاومة ما خرج الإنجليز من أرضنا.. بالأمس كانت هذه هي حجة المحتل وكانت لا تنطلي على أحد أما الآن فنسمعها من بني جلدتنا ونسمعها بلغة عربية مبينة وليست بلكنة المحتلين.

ملأ كفه بحفنة من تراب المقابر وأخذ يشمها ثم قربها إلى أذنه كأنه يستمع إلى شيء ما رماني بنظرة فاحصة مد يده إلى وجهي تحسسه مر على الأنف والعينين مسح الجبهة بكفه..

تشبه جدك يا سراج لماذا لم تصبح مثله؟ جئت تبحث عن أوراق بيت جدك ولا تبحث عنه!!

لم أفهم ماذا يعني بحديثه عن جدي.. بدا مجهدا قلقا يصمت طويلا ولا أستطيع أن أشرح له ما كنت أود أن أقوله.. إذا كان يعرف مكان أوراق جدي فلماذا لا يدلني عليها!! أنا أحتاج إلى أن أثبت للحكومة أن بيت جدي ملك لنا وأن جدي لديه الأوراق والعقود التي تثبت ذلك إذا لم نقدم هذه الأوراق ضاع البيت وصرنا أنا وأمي وولاء في الشارع.. لن يكون لنا بيت نفخر به كما كنا في الماضي ليس أمامي خيار آخر سوى أن أعود ومعي الأوراق.. الحاج حسين لا يقدر ما أنا فيه إذا لم أعد إلى أمي ومعي أوراق البيت فستنهار وربما يحدث لها مكروه.. كفى ما حدث لها حين لم يعد أبي النقيب علي الباسل من الجبهة وظل يراسلها من الأَسر حتى انقطعت أخباره وحضر إليها رجال الهلال الأحمر قدموا لها شهادة وفاته لكنها لا تصدق أنه مات وتنتظر عودته ثم تركها جدي هو الآخر وليس لها إلا أنا الآن.

لو كان معنا ماء لسقينا الصبار.. انظر لقد أهملناه كثيرا.. الأصفر بدأ يهاجمه لم يكن هكذا هل تلاحظ؟ جدك هو الذي زرعها هنا.. أنا لا أهذي هذه حقيقة.. عندما دفنت أبي أحضرها جدك وزرعها لم تكن بهذا الحجم طبعا ولكن مع مرور الزمن كبرت

والآن هاجمها الاصفرار مثلي ويبدو أنها ستموت حتما.. كلنا سنموت.

أحاول أن أبدو متماسكا أمام هدوء أعصابه لكنني مرغما بدأت أستمع إلى كلامه ونبرة حديثه التي كانت قطعا مختلفة.. ليس هو الرجل الذي عرفته.. المكان موحش والظلام يحيطه من كل اتجاه.. ما الذي أتي بك يا سراج إلى هنا.. كان صوت الكلاب الذي توالى الآن يشبه نباح الكلاب التي كان جدي يطاردها عندما كان بيته يقف وحيدا في أرض الكيمان لا تحيطه بيوت ولا عمارات شاهقة.. كان شبح يتحرك حولنا أشعر به حاولت أن أطرد هذا الخاطر.. نطق حروفا متكسرة وكلمات خرجت من شفتيه متعبة مرهقة يبدو مستغرقا في حديث صوفي يترنح كأنه في مجلس ذكر قال فجأة:

-انظر جدك

- ماذا؟

- جدك يوسف الواجدي

- وهل حضر هل تراه الآن؟

-جدك لم يغب عني لحظة

-لكنه حتما قد مات.. مرت سنوات طويلة على رحيله.

-أنت لا تعرفه مثلي.. دخل الموت برجله أكثر من مرة ولم يمت.

-هل هو حي الآن؟

- وربما مات بعيدا وحيدا كما كانوا يريدون له. ألقوا جسده في قبر غريب لا يعرفه أحد.. قبر بعيد لا تصل إليه قدم زائر.. قبر بارد لن يقرأ عنده أحد الفاتحة.. أين قبر جدك يوسف الواجدي يا سراج

أنت حفيده لماذا لا تبحث عنه؟!

كلمات حسين حرب دوت في أذني.. لماذا لم أبحث عن قبر جدي عن تاريخه الذي يرويه غيري؟! لا أعرف عن جدي شيئا سوى أنه صاحب البيت حتى قبره لا يعرف مكانه أحد.. لم يسأل عنه أحد منا.. لماذا لا نبحث عن أوراقه التي تركها.. كل ما يشغلنا هو العقود فقط.. أمي لم تسألني في آخر محادثة بيننا على الهاتف إلا عن العقود.. حين أردت أن أحكي لها ما جرى هنا في قصر رشوان وما سمعته من سعيد عقرب وضعت سماعة الهاتف كانت مشغولة بأمر البيت الذي تريده الحكومة حكت لي أن الحكومة أعطت لها مهلة لتقديم أوراق جدي وعقوده التي تثبت ملكيته للبيت الذي في الكيمان كانت كلماتها مبعثرة.. حاولت أن تذكرني بأوقات سعيدة قضيناها معا في البيت ذكرتني بليلة العرس التي أقمناها في حديقة بيت جدي كانت ولاء ليلتها كبدر مكتمل تسطع بوجهها المستدير وبعينين يحفهما الكحل الأسود وعلى رأسها طرحة بيضاء مطرزة بخيوط دقيقة.. كنت أرى دموع أمي في كل مرة تحدثني في الهاتف كنت أشعر ليلة ذلك العرس أن السماء قسمة بيني وبين ولاء وقد تجمعت النساء كلهن وأصبحن ولاء.. قلت لها في ذلك اليوم لنقتسم الخطى والقمر وذلك الصباح الذي يطل علينا غدا سنسير إلى آخر الطريق معا يدي تعانق يدك دمنا يسير في شريان واحد.. حين دخلنا غرفتنا لأول مرة وجلست هي عند حافة السرير كعروس خجلة وأنا أقاوم ارتباكي والضوء الخافت المنبعث من المصباح ورائحة برفان أنثوي وزهرة القرنفل ترقد في الجانب الأيمن من الحجرة والرغبة تصهل في صدري كنت أوشك أن أهم لأضع قبلة على شفتيها الغارقتين في الأحمر تخذلني جسارتي وأذهب كطفل أعبث بطرحتها المدلاة على الأرض مازالت.. تبتسم تطير العصافير النائمة في حديقتنا كانت تدخر كل هذا الجمال

لتلك الليلة.. المسافات كلها تلاشت وساد السكوت غير أن انبعاث موسيقي عبد الوهاب من شريط الكاسيت الذي أدرته حالا جعلها تهم من مكانها لتخلع الطرحة وتفرش أنوثتها في غرفة النوم مشيت أول خطوة نحو بلاد لم أعرفها نحو جسد امرأة بكل تضاريسه وأمضغ رغبة وأقطف زهرتها لأول مرة بدوت كمستعمر غاشم يتسلق أسوار مدينة محصنة ويفتح أبوابها المستعصية على الفاتحين.. ليلة تستعصي على النسيان حين أطل الفجر علينا كنا غائبين لم نعد إلا على قهقهات العصافير وهي تمر عند النافذة تُسِر واحدة منهن للأخرى بما كان.. كفى يا ولاء حشوت فمي ملحا بكلام أبيك.. لماذا تبحثين لك عن نهاية مثل نهاية قرة العيون حتى نهايتها اختلف الناس عليها.. نعم.. بالأمس الشيخ حسان إمام جامع قصر رشوان حكى لي وكنا في طريقنا إلى بيت سعيد عقرب.. نهاية أخرى لذات الشعر الذهبي غير تلك التي حكاها لي الإخواني حسين قاسم.. قال لي الشيخ إنه عندما اشتركت قرة العيون في مؤامرة قتل الشاه ناصر الدين القاجاري قبض على قرة العيون وحكم بأن تحرق حية ولكن الجلاد خنقها قبل أن تحرق وكان ذلك عام 1852ميلاديا.. شعرت برعشة شديدة عندما صارحتني.. يدي لا تعرف ماذا تمسك كانت تحكي لي عن عيدها عيد النيروز21 آزار وعن السنة ذات التسعة عشر شهرا وأن الباب هو الذي خلق كل شيء.. وأخذت تتلو في خشوع كمن يقرأ في كتاب مقدس من كتابها الأقدس "يا ملأ الإنشاء اسمعوا نداء مالك الأسماء إنه يناديكم من شطر سجنه الأعظم أنه لا إله إلا أنا المقتدر المتكبر المسخر المتعالي العليم الحكيم.. إياكم أن تتوقفوا في هذا الأمر الذي خضع له الملأ الأعلى وأهل مدائن الأسماء اتقوا الله ولا تكونن من المحتجبين احرقوا الحجبات بنار حبي والسبحات بهذا الاسم الذي به سخرنا العالمين" كنت أشفق عليها وأنا أراها تسقط عن آخرها في بقعة من التيه..

حاولت أن أقنعها.. بدت عنيدة.. كانت تلك الأيام التي قضيتها بجوارها حتى سافرت إلى قصر رشوان مليئة بالأوجاع قضيت أغلبها راقدا في السرير لا آكل غير قطعة من الخبز وشريحة جبن وأرقد هناك بعيدا عنها.. كيف استطاعت هذه الأفكار البليدة أن تهاجم رأس ولاء وتستقر به وحين عرضت على أمي فكرة السفر إلى قصر رشوان لم أتردد كانت فرصة لكي أبعد عن ولاء وحين هممت بالرحيل وضعت خطابها في يدي.. كان خطابا مليئا بالأخطاء الإملائية وحروف مكورة لا تقرأ كانت مترددة لا تعرف ماذا تقول بالتحديد الكلمات التي كتبتها لا معنى لها كلمات مثل الكلاب الضالة تسير في الشوارع بلا بيت.. كان جدي يطاردها ببندقيته هناك في الكيمان.. حكت كيف استطاع والدها أن يقنعها بهذه الأفكار بعد زواجنا رددت عبارة أنها تحبني كثيرا وقالت إنها لا تستطيع أن تعيش من دوني ثم تركت مسافة بيضاء وكتبت كلمات لم تكتمل وشطبتها بالقلم الجاف الأزرق قالت إنني إذا لم أقتنع بالدخول مثلها في البهائية فهي لن تغضب ولن تطلب الانفصال عني.. هبطت إلى السطر الذي يليه وكتبت عبارة أن البهائيين يتعاونون مع كل الأديان هكذا عرفت من أبيها وأن زواجنا سيستمر .. حين تعالى نباح الكلاب هنا في المقابر ذكرني ببندقية جدي التي كان يطارد بها الكلاب الضالة في الكيمان حين كان بيتنا يقف هناك وحيدا.

أفقت لأجد الحاج حسين غارقا في نوم عميق أشفقت عليه حملته بالكاد إلى منزله وفي اليوم التالي طلب مني سعيد عقرب أن نصعد الجبل معا قال إنه يريدني معه ربما لا يعرف لماذا لكنه مصر على أخذي رغم خوفي الشديد ودهشة فرحة التي لم تتردد في معارضة زوجها.. كانت فرحة تخشى عليّ من الجبل وما به ومهمة سعيد متعبة وتحفها المخاطر هناك.. قالت له: "سراج ليست له

الخبرة الكافية ليصعد معك" لكن إصرار سعيد قوى عزيمتي وهو يقول لفرحة:

- لا يجب أن ننسى أن جد سراج هو يوسف الواجدي.. أن سراج هو حفيده ويجب أن يأخذ شيئا من صفاته.

كلام سعيد عقرب جعلني لا أتردد في أن أعلن موافقتي على صعود الجبل معه صرخت فرحة في وجهي.. انخلع قلبها حين أعلنت موافقتي على صعود الجبل مع زوجها سعيد وهي أخطر مهمة أقوم بها في حياتي وهي صيد الثعابين كانت فرحة قلقة من موافقتي كانت تعرف أنني خائف وأرتعد حاولت بشتى الطرق أن تثنيني قالت: "يا سراج أنت لا تعرف الجبل إنه مخيف في الليل ربما تراه هكذا هادئا صامتا لكن أحشاءه مليئة بالثعابين والحيات التي تخرج في الليل وفي فمها السم تنفثه هنا وهناك.. سعيد اعتاد هذه الحياة واعتاد الصعود إلى الجبل أما أنت يا سراج ربما لا تعود من هناك.. الأمر ليس سهلا كما تظنه هو ليس نزهة تمرحان فيها كما تعودت هناك في حياة المدن الجبل صعب ومن لا يعرفه ويحذره فسيبتلعه في بطنه... شباب كثيرون صعدوا الجبل ولم يعودوا.. حكايات العجائز مليئة هنا بالموت". قالت: "إذالم تصدقني اذهب إلى الحاج حسين وخذ رأيه.. لم أنم ليلتها رغم أن سعيد نبه على بشدة ضرورة النوم مبكرا حتى أصحو نشيطا لتلك المهمة رجوته أن نمر على الحاج حسين في بيته قبل أن نصعد معا الجبل كان راقدا على غير عادته حين يرى سعيد.. كان يحبه كثيرا ويفرح إن رآه حين دخلنا عليه نظر إلى سعيد وأطال النظر ثم ردد قول أبي العلاء المعري:

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة
وحق لسكان البسيطة أن يبكوا
يحطمنا ريب الزمان كأننا

زجاج ولكن لا يعاد له سبكُ

بكى سعيد وبكيت معه.. أمسك حسين حرب عن الكلام.. حاولت أن أشرح له أنني ذاهب مع سعيد إلى الجبل وأنني خائف من هذه المهمة لكنه أشاح بوجهه عني وحين هممت بالانصراف ورأيت سعيد قد وقف سمعته ينادي علي: "انتظر أنت يا سراج لا تخرج".. فهم سعيد مقصد الرجل استأذن وخرج وتركني وحدي مع حسين حرب.. حينها التفت ناحيتي ودقق النظر كأنه يرى شيئا ويلاحظه.. بدا مرهقا في ذلك اليوم نظر ناحيتي وقال بصوت خافت: "جدك يوسف الواجدي كان معي بالأمس نهضت من فرشتي هذه واستقبلته أكلنا التوت معا رأيته شابا كما رأيته أول مرة في السجن في الزنزانة رقم 11 الأوقات تمر ببطء حين تكون عصيبة" سعل وأكمل: "عبرنا معا النور الذي يهبط من الشباك الوحيد الذي بالزنزانة كان يدور حولنا كلما دار قرص الشمس يقتل الوقت يقاوم صلابة جدران الزنزانة التي يبدو أنها صنعت من الصخر وربما كانت منحوتة في جبل ضخم عملاق يمسكها بكفه كنا ننتظر الضوء الذي يسقط من النافذة الوحيدة كي نعرف أن صباحا جديدا قد أطل.. كنا نحلم أن نطير مع الدخان ونصعد حتى نمر من بين قضبان تلك النافذة المعلقة هناك دون أن يشعر بنا الحارس الغليظ الذي يقف في الخارج نمر عليه نمنحه تحية الصباح ونبرق من أمامه ونحن نضحك وهو في غفلة عنا.. كان يفتح عينيه عن آخرهما ولكنه لا يرانا لأننا صرنا دخانا لا يرانا أحد من الحراس.. كان جدك يهتف في المساجين: تحيا الحرية تحيا الحرية، والحراس يقفزون في أماكنهم يشعرون بالضيق مما يحدث لكنهم عاجزون.. ندخل إلى ميس السجن ونهتف ولا أحد يرانا لأننا صرنا دخانا.. السجن الذي حفره الحاكم في الجبل ثم نسي مكانه فجأة طمست معالمه حتى أن الذي يمر بجواره لا يعرف أنه سجن وبداخله أناس

طيبون يرقدون كل يوم في الفراغ تغسلهم الشمس بنورها كلما انحدرت إلى الغرب هي لا تمل وهم لا يملون كنا كل يوم ننتظر الحيات التي ستأتي من الجبل بأعداد كبيرة تشق نفقا في هذه الصخرة يعلو فحيحها وحينها يصعد الحراس مرجوفين إلى الطابق الأعلى حيث صورة الحاكم تزينه.. أنا وجدك رأينا تلك الحيات منقوشة على جدران الزنازين كانوا يظنون أنها تخيفنا لكننا نعرف أنه في المساء وحين يشتد البرد في الشتاء تمر على أجسادنا تمنحنا الدفء دون أن يتنبه الحراس حتى سيد خاطر لم يكن يصدق جدك كان يظننا نهذي لكنه رأي بنفسه ذات يوم حين صحا من نومه سعيدا متهللا وأيقظني وجدك وراح يحكي لنا كيف رأى البحر البعيد ومر على شاطئه حكى أنه قرأ عن أناس من المتصوفة يأتون الخوارق بإرادة الله لكنه كدارس للفلسفة لا يصدق هذه التخاريف لا يعلم كيف حدثت والكيفية التي حدثت بها ولا في أي زمان هناك أحداث لا تستطيع أن تقيسها بوقت أو زمن.. الخوارق جميعها تحدث دون التقيد بهذه الأشياء.. الذي حدث لي بالأمس خارج الزمن حين تتحدث الديانات جميعها عن نهاية الكون وكيف يطال التخريب كل شيء وتنقضي السماوات والأرض ويحكمنا قانون جديد بكلمة من الله.. تصورت كيف يكون أول ضوء يشرق علينا ساعتها ونحن نقوم من رقدتنا التي لم نشعر بثقلها.. ضوء يسقط في أرواحنا التي ستدخل أجسادنا توا أول ضوء نراه ساعتها وتشبع أرواحنا حين تحضر الأجيال جميعا دفعة واحدة.. هل سيتذكر بعضنا بعضا؟ هل يمكننا ساعتها أن نمسح على ظهور تلك الحيات التي تخرج من بطن الأرض ومن كهوف الجبال المتصدعة ومن الممر الطويل الذي يشق سجن القلعة؟ هل يوجد مساء لذلك الصباح الذي سيشرق بكلمة من الله أم أنه صباح دائم لا يعقبه ليل؟ بإرادة الله سيساق الجميع إلى مكان فسيح يسع المخلوقات جميعها

تسير القطعان إلى موعدها الذي أذن به الرب صاحب الكلمة.. في هذا الزمان لن تشرق علينا شمس ثانية ولن نرى قضبانا حين نبحث عن مصدر الضوء ونحار ولا نجد شمسا ولا قمرا نلتفت ونحن حيارى يسأل بعضنا بعضا: هل هو نور الله؟.. حين نسمع جلجلة في الخارج كان الحارس يدير المفتاح في الباب ليدخل لنا قطعة من الجبن القديم ورغيفا ناشفا يلقي به أمامنا.. كان جدك يسند ظهره للحائط وسيد خاطر يجلس القرفصاء وأنا أتابع خيط النور الذي بدأ ينسحب من النافذة.. قال سيد خاطر يومها إن علينا أن نفعل كما فعل جاليليو حين تحرر من القول بمركزية الأرض في النظام الفلكي.. كان يقصد أن يقول إن علينا أن نكف عن الدوران حول عبد الناصر.. استرسل سيد خاطر في حديثه عن فن الحكم الذي رآه أرسطو أسمى الفنون صارخا بصوت مرتفع أننا لا يمكن أن نعتبر أن الحكم هو أسمى الفنون.. كان جدك ينصت لحديثه بينما كنت مستغرقا في متابعة نملة تحاول تسلق الجدار الأملس لكنها كلما صعدت إلى أعلى سقطت فعلت هذا عدة مرات لكنها لم تكف أبدا عن الصعود حتى تمكنت أخيرا من التسلق إلى أعلى كنت أتابعها.. أنا أدهش من تلك الإرادة التي جعلتها تحاول وتظل تحاول حتى تمكنت أخيرا من النجاح وها أنا أتابعها حتى وصلت إلى حدود النافذة ثم تخطتها سريعا.. نملة صغيرة تمتلك كل هذه الإرادة!! نظرت إليهما كانا مازالا يتحاوران في حدة عن معنى الحرية.. ضحكت من قلبي وقلت: عن أي حرية تتحدثان ونحن قابعون في سجن بارد!! ليتكما تمتلكان إرادة نملة لما قضيتم هذا الوقت الطويل في الحديث عن الحرية دون أن تنظرا إليها.. هناك عبر النافذة الحديدية انظرا جيدا.. الحرية لا يمكن الحديث عنها فقط الحرية هناك حيث تنطلق الطيور في الهواء حيث لا يوجد قضبان ولا حراس الحرية هناك في الأرض

الواسعة حيث يمكنك أن تجري وتجري حتى تلهث دون أن تجد أسوارا عالية تمنعك.. لا يمكن أن نتحدث عن الحرية ونحن هنا بين تلك الأسوار.. سراج نحن جيل دفع ثمنا باهظا من أجل أشياء لم تتحقق من أجل أحلام سقطت على الأرض.. هل تفهم؟! انظر إلى شجرة التوت التي تظل البيت إنها شجرة عجوز ربما تسقط في أي وقت.. ستقع قريبا.. كم جلست مع جدك يوسف الواجدي تحتها وأكلنا منها.. كان مثلي يحب التوت.. أنا أعرف أنك مثله لديك إرادة وحتما ستعرف جدك وستجد الأوراق التي تبحث عنها.. سيد خاطر حتما يعرف كل شيء لا تيأس لن يضيع بيت جدك أعرف أنك لن تتركه يضيع لو كان باستطاعتي أن أذهب معك إلى سيد خاطر.. اشتقت إليه لم أره منذ سنوات بعيدة منذ رحيل جدك عن هنا صوته وهو يردد شعر رامبو أحس به داخلي كان يعشقه لدرجة الجنون كان يقول عنه إنه سارق النيران الحقيقي أذكر أنني صحوت ذات يوم ووجدت سيد خاطر يردد مقطوعة من شعره.. كنت أطلب منه دائما أن يعيدها حتى حفظتها.. أظنني الآن في حاجة لكي أرددها هل تريد أن تسمعها.. هززت كتفي أغمض عينيه وراح يردد كلمات رامبو التي كتبها في (فصل الجحيم).. إنني سأكشف جميع الألغاز؛ الدينية أو الطبيعية، الموت، الولادة، والماضى، والمستقبل، وخلق الكون، والعدمية. أصغ! "إنني أملك جميع المواهب! فليس هنا من أحد وهناك شخص ما . أتريد أغاني زنجية؟ رقص حوريات؟ أتريد لي أن أختفي، وأن أغوص لأسترجع الخاتم؟ أتريد ذلك؟ سأصنع الذهب.. سأشفي المرضى.. "لنفكر بي إنني محظوظ أنني لم أتعذب بعد. لقد كانت حياتي مجرد حماقات حلوة.. إنها مؤسفة" نظر ناحيتي: ياه لكم أصبحت عجوزا هرما كما تراني ربما تتعجب لأنني أردد شعر رامبو.. أنا قارئ جيد ربما لم أكن مثل جدك أو مثل سيد خاطر لكنني تعلمت منهما الكثير.. الأيام هي

التي أقعدت هذا الجسد.. كل ما أتمناه أن لا تكف عن زيارة قبري.. لقد عرفت مكانه لا تتركني وحيدا يا سراج هل تعدني بذلك؟ بكيت ليلتها كثيرا.. رغم أنني لم أمض مع حسين حرب وقتا طويلا ليلتها أدخل يده تحت الوسادة التي يضع رأسه عليها ومد يده ناحيتي وأنا أتعجب قال: خذ هذا مفتاح.. خذ.. مددت يدي أخذته هذا مفتاح صندوق وضعت فيه كل كتبي وأوراقي الخاصة خذها معك إلى قصر رشوان ستجد فيها حكايات كثيرة عن جدك ستقترب منه ستجد رجلا بسيطا يعيش مثلنا لكنه عاش من أجل فكرة.. من أجل بشر أحبهم حلم كثيرا ودفع ثمن هذا الحلم ..في بلادنا يا سراج لا يجب أن تحلم يجب أن تحيا داخلك في ذاتك يجب على المرء هنا أن يتخلص من أحلامه سريعا.. يلقيها في القاذورات يمعن في قتلها بسكين عريض هنا عليك أن تخوض حروبا طاحنة من أجل أن تعيش.. إننا هنا نعيش بالشعارات والكلمات الملتهبة عن الحرية والفضيلة بينما شوارعنا مليئة بالقاذورات وبيوتنا بالخوف ومصائرنا دائما في يد مجهولة لقاطع طريق يسرق من أرواحنا الأمن قبل أن يسرق من جيوبنا.. ربما تظنني أهذي أو تتصور أنها كلمات سخيفة لرجل يشرف على الموت الآن لا تعبر عن شيء ذي قيمة.. لا تتصور هذا مطلقا ما أسهل أن أموت الآن وما أصعب أن تعيش يا سراج وعلى كاهلك كل هذه الإحباطات.. الخريف الأخير من حياتي قضيته في قراءة الصوفيين ربما كان هروبا أو بحثا عن ضوء في سرداب معتم كان بودي أن يتسع بنا الوقت لكي أحكي لك عنهم.. اقرأ ديوان عمر ابن الفارض يا سراج ربما تجده في البداية ثقيلا على نفسك تقبل ما يقول لكنك في النهاية سترى رجلا حرا.. قليلون هم الأحرار في هذه البلاد التي نعيش فيها.. الموت هو الخيار الوحيد الذي أمامي أين يكمن ذلك الموت الذي يلاحقنا ولا يكف عن ملاحقتنا؟ لماذا أشعر أنه أصبح قريبا مني ربما يجلس قبالتي

الآن.. حين تموت سترتخي عضلاتك تماما ويكف الدم عن السريان.. الموت يحاصرنا في كل مكان.. الموت هو السبيل الوحيد كي ننجو بأنفسنا من هذا العالم الضيق.. لم يعد أمام رجل مثلي شيء يفعله الآن.. نحن جيل انتهت أحلامه لم يعد بوسعه أن يحقق شيئا ذا قيمة ربما اختار جدك الموت.. ذهب إليه بنفسه كرجل شجاع يختار نهايته.. الجميع يزعق لا أحد يسمع.. جيلنا انتهي يا سراج جيل فعل ما بوسعه لكنه فشل.. سرقوا أحلامنا البسيطة وذبحوا أفكارنا.. جدك صمد إلى آخر وقت أما نحن فقد انشغلنا بحياتنا وتفاصيلها التافهة.. لم يعد للأفكار الكبيرة مكان في هذا العالم.. أعرف أنني حين أنزل إلى قبري سأشعر بارتياح شديد لأنني أنزلت حملا ثقيلا عن كتفي.. ربما وفي ظلام القبر الدامس أرى بصيص نور.. ربما يجد هذا الجسد حريته في ذلك المكان الضيق.

6

ملعونة السياسة تبدو مثل المرأة الجميلة تأخذك الى حتفك

أخيرا أفاق سيد خاطر.. لم أره إلا وهو يمسك زجاجة البراندي في يده.. قالت شروق إنه منذ زمن بعيد أدمن الخمر وكتابة الشعر.. تعجبت كيف تعيش فتاة رقيقة مثل شروق مع رجل مثل سيد خاطر لكنها حكت لي أنها كانت تعيش مع أمها التي انفصلت عن والدها بعدما اعتقل لفترة طويلة ويئست من خروجه من السجن وخاصة أنه ما كان يخرج من المعتقل حتى يعود إليه سريعا.. حذرته أكثر من مرة عانت كثيرا في الحياة معه كانت تتدبر أمورها بصعوبة وزوجها لا يكف عن المشاغبة مع السلطة.. والدة شروق لم تتحمل تلك الحياة الصعبة وخاصة بعد أن ولدت شروق وأصبح لها ابنة أرادت أن تؤمن حياتها ومستقبلها من أب لا يعبأ كثيرا بهذه المهمة الثقيلة.. طلبت الزوجة الطلاق رغم أنهما تزوجا عن حب كانت تخشى على شروق هذه الحياة.. رحلت وحملت شروق معها عاشت شروق بعيدا عن والدها سنوات طويلة في كنف زوج الأم.. تبدو رائعة وهي منهمكة في الرسم كنت أرقبها بالساعات ولا تشعر بي مطلقا.. كانت تحب الرسم بجنون تقضي الساعات منهمكة في تفاصيل اللوحة.. حياة مدهشة تجمع أبا مخمورا طوال الوقت وابنة منشغلة طوال يومها في الرسم وربما لا يلتقيان إلا على المائدة أحيانا وأحيانا أخرى تعد شروق الطعام وتتركه لأبيها على المائدة حتى يفيق.. رغم هذا كانت شروق مبتسمة مقبلة على الحياة.. لكن لحظات شرودها التي تخفيها وراء

النظارة تفضحها تحاول أن تخرج منها سريعا.. كنت أنتظر إفاقة الأستاذ سيد خاطر بفارغ الصبر حتى أعرف منه إن كان جدي قد ترك معه أوراق بيتنا الذي في الكيمان.. هذا آخر أمل بالنسبة إلي.. في الأيام التي قضيتها هنا أنتظر كنت أتصفح الكراسات التي أخذتها من صندوق حسين حرب.. وجدته رجلا مختلفا عما رأيته.. كان شابا مبتهجا سريع النكات خفيف الظل عرفت أنه أكمل تعليمه حتى حصل على شهادة المعلمين العليا وكان يعمل مدرس ابتدائي.. عمل في بداية حياته بمدرسة في البحر الأحمر والتقى اللواء محمد نجيب.. الذي أصبح أول رئيس للجمهورية بعد الثورة.. لم يكن يطلق عليها ثورة كان يسميها حركة.. انقلابا.. وكان ضابطا صغيرا بالجيش وقتها كان يحمل معه أرغفة الخبز والجبن وأكياس الملح.. وقتها كانت الحياة صعبة في البحر الأحمر.. كنت أسمع سيد خاطر يردد بصوت مبحوح الأغنية الإنجليزية الشهيرة.. يا ريح الغرب متى تهبين.. فينزل المطر الخفيف على الأرض.. يا إلهي، ليت حبيبتي كانت بين يدي.. وأنا في فراشي مرة أخرى.. توقف عن غنائه حين لمحني أتابعه شعر بالضيق من طريقتي في التلصص عليه.. تقدم بضع خطوات في اتجاه الصالة كان مخمورا على ما يبدو لكنه يمتلك شيئا من الوعي قال منفعلا: هل تظنني مخبولا لا أفهم ما يدور؟ هل تظن السياسة أكلت عقلي؟ هل قرأت شعر ييتس..

تستطيع جميع الأشياء أن تلهيني عن صناعة الشعر هذه
فمرة ألهاني عنه وجه امرأة، أو ما هو أسوأ من هذا
ومرة حاجات مزعومة تتطلبها بلادي التي يقودها الحمقى..

كانت عيناه تلمعان.. مضى يحدثني باستفاضة عن وليم بتلر ييتس أدركت أنه مولع بشعره قال لي إن ييتس كان يقصد في شعره امرأة بعينها هي مون جون كانت مون جون هذه هي التي جرته إلى تسع سنوات من الثورة السياسية وأصبح رئيسا لجماعة سياسية

هي وولف تون وأصبح أيضا عضوا في منظمة الإخوان الإيرلنديين الجمهوريين السرية التدميرية وحب مون جون ظهر في قصائد بيتس قصائد تعتبر من أروع قصائد هذا العصر.. أشعل سيد خاطر سيجارة وجرني إلى الشرفة حيث نرى الجبل العالي أمامنا وقد أختفى البحر تماما نظر ناحيتي برفق وسألني عن حسين حرب كأنه تذكره فجأة صمت بعض الوقت لم أستطع أن أخبره بحاله لكنه أحس شيئا ما في ترددي مكث برهة..

- ملعونة السياسة تبدو مثل المرأة الجميلة تأخذك إلى حتفك

بدا نشيطا حين ملأ صدره بهواء الجبل الطازج.. أحضرت شروق كوبين من الشاي كان البخار مازال يتصاعد منهما كان منهمكا في حديثه عن السياسة التي لم أقترب منها يوما في حياتي رأيت نفسي لأول مرة غير واثق من شيء أبدا هذا الجيل الذي ضحى بكل شيء أتي بعده جيل آخر تماما لا ينظر إلى الوطن إلا كسلعة رخيصة.. إنه جيل انغمس في الحياة العامة.. كانوا يسيرون رائحين غادين يتساءلون عن مصير هذا الوطن يديرون نقاشهم بهمة يحملون أرواحهم على أكفهم وهم يقولون: هل سنعيش إلى الصباح التالي؟ المساء هنا يختلف عن مساء كيمان فارس الناس هنا في قصر رشوان لديهم أسئلة مهمة عن الحياة والوطن والمصير أما في الكيمان فلا أهمية لتلك الأسئلة على الإطلاق.. إنهم هناك يهتمون أكثر بأنفسهم منغمسين في الأسئلة اليومية عن الخبز والرواتب المنخفضة والأفلام السخيفة التي تعرضها السينما الحكومية هل حقا كما قرأت في كراسة حسين حرب أن بلادنا ستنهار أنها تتفسخ تحت أرجلنا ونحن نسير في شوارعنا ببلاهة وربما نسقط فجأة أننا لا نبالي بما يحدث لنا من كوارث ولا نعيها وربما نسقط في المستنقع ولا نستطيع السباحة إلى الشاطئ نتعاطى الأفكار الجاهزة ونحشرها

في عقولنا كما نحشر سندوتش الهامبرجر في أفواهنا ونحن نسير إلى أعمالنا بسرعة.. أخذ سيد خاطر رشفة من الشاي تحدث كأنه لم يتكلم منذ سنوات.. تحدث عن الشعر الذي يكتبه مكث يتحدث عن مأساة الشعر في هذا العصر وفي بلادنا بالتحديد كان يرى أن الشعر جزء من ثقافتنا التي تخلينا عنها إلى الأبد الشعر هو الروح التي يجب أن تدخل الجسد كي نستطيع أن نتحدث عن حياة بمعناها الحقيقي.. "لقد دمروا الشعر والتاريخ معا أفرغوا الذاكرة العربية.. الحياة مليئة الآن بأبواق السيارات والرغبة في الوصول إلى أقصى متعة مادية.. إننا نعيش في عالم أشد حاجة إلى الشعر من ذي قبل نحتاج أن نستعيد أرواحنا التى نفرت من أجسادنا المنهكة.. إن الشعر قادر أن يفعل ذلك.. لا توجد محرمات في الفن".. كانت شروق سعيدة بحديث أبيها حين تركنا فجأة وانصرف جلست شروق بجواري أمام النافذة.. قالت كلمات كثيرة عني.. وقالت إنها لم تر أباها يفعل هذا منذ سنوات طويلة ربما شعرت أن لي يدا في تغيره لكنها كانت منطلقة في حديثها كعصفور يغني لأول مرة في حياته أخذتني إلى المرسم وأزاحت عن إحدى لوحاتها ورق الجرائد الذي كان يغطيها وقفت أمامها مستغربا لم أصدق مضى وقت طويل حتى أصدق أن ما رأيته حقيقة.. تركتني أمام اللوحة وانصرفت كانت مرتبكة قلقة لم أرها في ذلك اليوم ....كانت تمر فجأة أمام الصالة لم تعطني أي فرصة للحديث معها حتى العشاء تركت لي ورقة أمام الكمدينو في غرفة النوم.. إنها قد أعدته فوق السفرة الصغيرة الموضوعة في المطبخ.. لم أنم في تلك الليلة الأرق صاحبني طوال الليل قطعت الحجرة ذهابا وإيابا وفي منتصف الليل شعرت بها كانت تسير في الصالة شعرت بباب المرسم يفتح حين تلصصت عليها رأيتها تمسك الفرشاة وتضع خطوطا صفراء متقاطعة مع دوائر تبدو بنية كانت على ما يبدو تشرع في رسم لوحة

جديدة لم أرد أن أشغلها عن مواصلة الرسم ظللت أرقبها حتى أطلت خيوط الفجر من شيش النافذة.. شروق ابنة لرجل قضى ما يقرب من نصف عمره في قعر مظلم رطب بارد مخيف قضى نصف عمره في زنزانة حقيرة في سجن القلعة يردد أفكارا بلهاء عن الحرية هو ورفقاؤه بينما الحراس يسخرون منهم ويرونهم أعداء الشعب.. كيف مضغوا كل هذه السنوات التعسة.. لماذا لم يعد بوسع أحد أن يضحي سوى ببضع كلمات خرقاء لا تعني شيئا على الإطلاق كلمات بليدة ممزقة كلمات خارجة لتوها من بئر عطن ما هذه الخيول التعبة التي تركض في لوحة شروق خيول تلهث تتدلى ألسنتها ويسيل لعابها تراها هزيلة.. بماذا كانت ترمز بهذه الخيول لماذا بدت حوافرها متآكلة وشعرها يسقط على مدق السير تبدو مفعمة بالحزن أمام التلال الممتدة أمامها بلا نهاية وكأنها رحلة أبدية؟ لماذا لا تحلق في الأمام كهيئة الخيول العربية وترفع زيلها بإعجاب وتمشي في رشاقة وجمال؟ لماذا تبدو الخيول في لوحة شروق مذعورة خائفة؟ ظلت طوال الليل ترسم وربما أوشكت على الانتهاء والخيول التعسة نائمة في حضن الجبل ما الذي دفع شروق أن تعود فجأة إلى اللوحة وتضع طوقا في عنق إحداها طوق من حديد طوق يتدلى من رقبته وضعت لمسة من الفرشاة على ظهر أحدها بدا حينئذ أكثر عجزا مرت بالفرشاة تطايرت بضع شعيرات من الذيل ابتعدت عن اللوحة وحملقت فيها اقتربت وضعت الفرشاة في الزيت بعد أن جمعت بين لونين ونزلت بيدها على أسفل العينين ورسمت ما يشبه قطرات دموع خفيفة ربما يراها البعض شعيرات تسقط.. لماذا أشعر أن سيد خاطر غائبا عن الوعي يبدو كرجل توقفت به مركبة الزمن؟! حين أمسك بيدي ووقفت إلى جواره أمام الشرفة بدا كرجل قديم يروي الأساطير.. حدق في وجهي أكثر من مرة كان يتوقف عن الحديث ويفعل ذلك..

- أين جدك يا سراج؟!! هو الوحيد الذي يمكنه

أن يعيدني إلى نفسي.. الأيام بطيئة جدا يدفع بعضها بعضا ثقيلة كأنني أحملها فوق رأسي حين دخلت السجن أول مرة بكيت بحرقة كطفل.. جدك هو الذي خفف عني آلام السجن.

مضى يحكي لي عن جدي الذي لم أعرفه أبدا.. عندما تضغط الدولة ذلك الكائن الخرافي العملاق الذي لديه القوة والعسكر على رجل ضعيف مثل سيد خاطر تجعله يصرخ يتألم.. لماذا شعرت الآن والآن فقط أنني أولد من جديد.. من يستطيع أن يقف في وجه هذا الكائن الخرافي الجبار حين يطلع علينا بوجهه العابس يمزق أحلامنا ويحشر أنفه الأفطس في كل أمورنا الشخصية.. حين طلب مني أن نسير بمحازاة البحيرة وسألني عن حسين حرب لم أجب لم أستطع أن أقول له إنه مريض ويمكث فى الفراش كان صعبا أن أقول ذلك لرجل ينهار يسقط كشجرة توت عجوز.. أجلسني على ربوة من الرمال وسألني برفق:

- هل عاد أبوك.. النقيب علي الباسل من الأسر؟

هل تركه اليهود يعود إلى زوجته وإلى ابنه الوحيد سراج.. رأيت النقيب مرة واحدة كان لديه حماس وعزيمة وعرفت من جدك أنهم أسروه لماذا لم تأخذ بثأر أبيك يا سراج؟ هم دفنوه حيا في الرمال هل تعرف ذلك؟ لماذا تحاول أن تنسى ما حدث لأبيك؟

كانت كلماته كنصل سكين مدبب يمرق في لحمي.. طوال حياتي الماضية لم أفكر بتلك الطريقة أبدا لم أحاول أن أعرف مصير أبي.. لم تفكر الدولة أن تعرف مصيره كان يدافع عنها ونسيته هناك في الصحراء.. حتى ولاء نسيته وأبوها كامل الجوهري.. الجميع نسي أبي.. سرقوا أبي مني والآن يسرقون زوجتي ولاء... يملؤون رأسها الفارغ بالبهائية.. الدولة انشغلت بمد الطرق وتوصيل المرافق وإنشاء المدن الجديدة والحديث عن المشروعات..

لم يعد يشغلها أمر النقيب على الباسل ولم تعد تفكر فيه كل ما تريده هو أن تحصل على بيتنا لتضيفه إلى أملاكها.. أملاك الدولة.. حتى حين سألني سيد خاطر:

- أين جدك يا سراج هل مات؟.. أين قبره أريد أن أزوره؟ هل زرت قبر جدك؟!

لم أفهم ماذا يقصد سيد خاطر.. هل مات جدي أم لم يمت وإذا كان مات فأين قبره؟ لماذا لا نعرف قبر جدي حتى الآن؟ هل تعرف أمي ذلك؟! أمي لم أسمعها تتحدث عن زيارتها لقبره أبدا كيف سقط هذا السؤال من يدي؟ لماذا لم نسأل عنه إلا عندما أرادت الحكومة أن تأخذ منا البيت؟ هل يعرف سيد خاطر أن الحكومة تريد أن تأخذ منا بيت جدي الذي نسكن فيه وتلقينا في الشارع بحجة أن جدي لم يكن لديه عقود بملكية البيت الذي بناه هنا منذ سنوات طويلة؟ كانت الحكومة غائبة عن هنا حين حضر هو وصارع الذئاب والكلاب الضالة وحده وكنت صغيرا وأذكر الخوف الذي كان ينتابني حين أسمع صياحها بالخارج ويخرج إليها جدي حاملا بندقيته.. أين كانت الحكومة يومها لم تتذكر هذا المكان إلا بعد أن أصبح عامرا ومليئا بالناس هل أستطيع أن أسأل سيد خاطر عن أوراق جدي سيعرف حتما أنني جئت من أجل الأوراق حين يعود سعيد عقرب إلى هنا كما وعدني كي يأخذني حتما سيسألني عما إذا كنت قد وجدت الأوراق التي أبحث عنها لدى سيد خاطر وحينها سيعرف أنني حضرت من أجل الأوراق ولم أحضر من أجل جدي.. كي أعرف جدي.. هل سيفكر بي بطريقة سيئة؟ أمي لا تكف عن ترديد سؤالها المعتاد عن العقود كلما اتصلت بها...و أنا أعدها أنني لن أعود من دونها شعرت في حديثها آخر مرة بأسى كانت ترجوني أن أعود قالت كلمات لم أفهمها قالت بصوت مكتوم:

-عد ياسراج لا تهتم لا تهتم بأمر أوراق جدك عد يا سراج عد سريعا يا ولدي.

لم أفهم ماذا تعني بحديثها اليائس هل أخذت الحكومة البيت منا؟ هل استولت عليه ولم يعد لأوراق جدي وعقوده جدوى؟ أم تراها عرفت أمر ولاء وأبيها وتريدني أن أعود.. هي تتصورني لا أعرف الحقيقة هل ترى ذلك أهم من أن أعثر على أوراق بيت جدي؟ هل هذا حدث؟.. ستكون كارثة لو عرفت أمي بأمر ولاء أم أن أمي تخشى أن أعرف أشياء هنا في قصر رشوان تود ألا أعرفها وكانت تخفيها عني طوال هذه السنوات وربما رأت في بقائي هنا خطرا علي وتود أن أعود سريعا دون أن أحقق ما تريد.. كان سيد خاطر يطل من النافذة مشغولا بمتابعة سرب من الطيور كان يحلق بعيدا فوق سماء البحيرة نظر ناحيتي بأسى وألقى بالسيجارة التي كانت في يده ودهسها بقدمه.

- حين كنت في معتقل القلعة أنا وجدك ورأيت ذات يوم من شباك الزنزانة طائرا يحلق في السماء حرا تمنيت ساعتها أن أكون طائرا وأمتلك جناحين.. ساعتها كنت أطير بعيدا عن أسوار السجن المرتفعة والحراس يقفون مشدوهين حين يرونني أحلق أمامهم في السماء وقد امتلكت حريتي فجأة الطائر هو الكائن الوحيد الذي يمتلك حريته رغم أنف الجميع.

وضع سيجارة أخري في فمه لكن لم تكن لديه رغبة ملحة في التدخين اقترب مني أكثر حتى شعرت بسخونة أنفاسه..

- في الجزء الأول من كتاب جمهورية أفلاطون جاء على لسان تراسيماكس حين عرف العدالة بكونها مصلحة الأقوى.. بينما يأتي لينين في العصر الحديث ليعرف الدين فيدعوه (أفيون الجماهير)..

نظر ناحيتي كأنه يشك في مقدرتي على استيعاب ما يقول ثم أكمل دون أن يهتم بذلك رأيته يفعل هذا مرارا حين يتوقف فجأة ويتابع ردة فعلي..

- كان هانيبال أكبر عبقري عسكري أنجبته قرطاجنة هو نفسه الذي هدمها حتى أن نابليون نفسه كان مصيبة على فرنسا.. موسوليني كان يعتقد أن رفعة الأمم تتحدد بمجدها العسكري وقوتها المسلحة.. المؤرخون لا يهتمون كثيرا بحياة الشعوب ورخائهم قدر اهتماهم وانشغالهم بتدوين سير المعارك الحربية التاريخ يغفر للحاكم بطشه بشعبه وانفراده بالسلطة لكن التاريخ ذاته لن يغفر للحاكم إن طالته هزيمة عسكرية في إحدى معاركه.. التاريخ هو الذي يعلم الحكام البطش والظلم لأنه لا يحتفل بالحكام الطيبين..

الانسان في رأي برتراندرسل ما هو إلا جزء ضئيل من الطبيعة أفكاره تحددها العمليات التي يقوم بها الدماغ.. هو إذن محكوم بقوانين الطبيعة.. كانت شروق تتابع حديث أبيها المنساب معي.. بالأمس ونحن سائرين بمحازاة البحيرة.. قالت إنه شاهدنا من النافذة قال إننا ذكرناه بسيرة أمي معه حين كان يمسك يدها ويسيران معا على بحر يوسف يطلان على جامع الشيخ علي الروبي وهناك يديران ظهرهما لشركة عمر أفندي.. لم يكن أحد يفكر بعد في أن تتحول أرض الكيمان التي سكنها جدك منذ زمن إلى مدينة بهذا الحجم كان حديثه متقطعا حين قال برفق:

- إن علينا أن نضع أنفسنا موضع أم مرض طفلها إنها لا تحتاج إلى دعاة أخلاقيين بقدر احتياجها إلى طبيب ماهر يستطيع أن ينقذ ولدها من الموت.

كان سيد خاطر مازال يردد أفكار رسل على ما أعتقد.. شروق كانت تتابعنا من الصالة بين الحين والآخر كانت تراقبه

كانت تخشى عليه الانفعال الزائد هكذا حذرها الأطباء منه.. قال ولسان حاله يقطر أسى:

- إنني كلما رأيت ما يجري حولي أردد عبارة جابريل مارسل التي كان يذكر بها نفسه كل يوم (إنني لا أحضر عرضا مسرحيا) كان يقصد على ما أعتقد أنه ليس خارج الوجود ومتفرجا عليه بل هو مندمج فيه.

كلام سيد خاطر أصبح صعبا علي أن أفهمه هكذا أدركت شروق حين لاحظت بلورات العرق التي نبتت فوق جبهتي وكلما مسحتها بباطن كفي ظهرت من جديد.. دخلت شروق مسرعة وهي تحمل صينية الشاي نهضت وحملته عنها أخذتها منها شعرت بارتباك حين لامست أطراف أصابعي كفها مسحت خجلها بابتسامة عريضة.. وفي الصباح سرنا معا إلى البحيرة.. اعتدت أن أصحو مبكرا.. قالت وهي تنظر إلى الرمال التي تحيط شواطئ البحيرة:

- الأستاذ سيد خاطر استاذ الفلسفة
أصبح مغرما بالحديث معك.. هنيئا لك
-سأقول لك سرا فى أحيان كثيرة لا أفهم
شيئا مما يقول لكنه يرتاح للحديث معى
ربما أذكره بأيام جدي
وصحبتهما معا.
- في السجن حيث الإقامة على النيل؟
- نعم.. معتقل القلعة الذي يقدم أشهى
المأكولات.
- خمس نجوم.

ضحكت وضحكت.. بدت بريئة مثل طفل حدثتني يومها عن آمالها في أن تكون فنانة عالمية تلف لوحاتها كل معارض العالم

قالت إنها تعشق هنا حيث البيت البعيد عن العمران وحيث البحيرة والصيادون والناس البسطاء. قالت: الخريف هنا شيء مختلف خريف البحيرة مدهش حين تصل الأمواج لتضرب ألسنتها بيتنا هل تصدق أن المياه تصل إلى هناك إلى جدار البيت.. كنا نصحو لنجد مياه البحيرة أمامنا كانت ترتدي الجينز وتربط شعرها على هيئة زيل حصان خلعت النظارة ومسحت عينيها وأخرجت منديلا ونفخت في عدساتها ثم أعادتها إلى عينيها ثانية.. كيف ترضى فتاة مثل شروق بحياة هنا بطيئة مملة بسيطة إلى حد الفقر مع رجل مثل أبيها يصارع أفكاره؟ قلت لها إن الحياة هناك في المدينة صاخبة ....مثل الرمال المتحركة.. ليست مثل هذه الخلوة التي تعيشين فيها إنها تشبه حياة الصوفيين هل أنت راهبة يا شروق هل تزهدين في الدنيا وترهقين نفسك بهذه الحياة هل هنا يوجد جمال لا أعرفه.. "كل شيء لا تبحث عنه لن تجده" هكذا رددت عبارة مولانا جلال الدين الرومي. أعرف أن رأسك مليئة بأفكار لا أعرفها برغم بساطتك أنت امرأة غامضة مثلك مثل البحيرة التي نقف أمامها الآن باطنها مليء بالغموض لن تصل إليه أيدينا أبدا.. لماذا أشعر الآن أنني قريب منك وأنني أدنو.. أدنو حتى أصبحت داخلك أنت ساحرة يا شروق تمتلكين قوة السحر التي قرأت عنها في الأساطير.. بالأمس حلمت أنني أدخل إلى إحدى لوحاتك رأيت وجهي وأنت تضعين تفاصيله بفرشاتك نعم كنت أنا ...كانت السعادة تغمرني رأيت امرأة بجواري في اللوحة كانت مثلك كنت بفرشاتك تضعين يدها في يدي تمرح الأصابع في كفها كان خلفنا يوجد طائر العندليب عيناك التي تقبعان خلف النظارة تملآن الحياة بهجة وتشعلان أمواج البحيرة النائمة.. لماذا أشعر الآن أنني أسقط في قاع بئر مظلم وأنني أنهار مثل جدار أسقط عن آخري في ماء البحيرة تبتلعني البحيرة أغرق كمركب العجوز المتصدع أرقد

الآن في قاع البحيرة في ظلمات بعضها فوق بعض الغثيان والدوار أسقط وأنا أسمع خبر موت سعيد عقرب هناك في الجبل وحيدا مات سعيد عقرب في شق الجبل.. فرحة تنزف دما ترقد بمفردها رحل سعيد عقرب وتركني بعد أن أحببته لم أكن أصدق أنني سأبكي على فراق إنسان مثلما بكيت سعيد رغم أنني لم أعرفه إلا منذ زمن قريب إلا أنه استطاع أن يدخل إلى قلبي.. شعرت شروق بما أصابني لم تكن تظن أن يحدث لي ما حدث مكثت لديهم أياما لا أتكلم فعلت شروق كل ما بوسعها من أجلي.. الموت ذلك الكائن الغريب الذي يحلق فوق رؤوسنا ليل نهار أخذ جدي وأخذ أبى ولم يترك لي سعيد الذي أحببته كيف يرحل بهذه الطريقة.. كيف يرحل ويتركني وحيدا غريبا عن كل شيء هنا في قصر رشوان.. حتى سيد خاطر اقترب مني شعر بما أصابني رغم أنه مثلي لم يستطع أن يتقبل حقيقة أن سعيد مات.. قرأت هيدجر (الوجود والزمان) قال.. إنني قد أموت في أية لحظة ومن ثم فإن الموت هو الإمكانية التي أحملها الآن وفي أي وقت.. إنه بمثابة الشرك الذي تنزلق إليه قدمي في أي لحظة.. سعيد يبدو بالنسبة لي مثل دون جوان عند كامو.. دون جوان الفارس المتوج على مملكة العشق الفانية.. إن عظمة الملوك وهمية والموت قادم ليقضي على الجميع.. الظلام دامس والليل مقبل بسرعة فائقة يحيط بالبحيرة وحينها سيهرع الصيادون ولكنهم سيبحثون عن شاطئ النجاة ولن يجدوه.. أين ولاء الآن؟ هل هي مستغرقة في سذاجتها تقرأ كتب البهائيين.. ماذا ستقولين.. ستقولين إنه وحسب شريعة الباب يجب أن يدفن الميت في قبر من البلور أو في قبر منحوت في صخر مصقول ويلبس في يده اليمني خاتما نقش على فصه فقرة من (البيان) وهي (حتى لا يخاف في قبره) هل تعرفين ما حدث.. في عام 1950 حين رفع مصطفى كامل عبدالله الموظف بمصلحة السكة الحديدية في مصر

دعوى أمام مجلس الدولة ضد المصلحة لأنها رفضت أن تمنحة علاوة زواج وقدرها جنيه واحد واستندت المصلحة في رفضها إلى أن الموظف قدم لها عقد زواج غريبا لم يسبق له نظير وهو عبارة عن وثيقة صادرة من المحفل الروحاني المركزي للبهائيين بالقطر المصري موثق بتاريخ 20 مارس سنة 1947 م الموافق (يوم الاستجلال من شهر العلا سنة 103بهائية بمدينة الإسماعيلية بحظيرة القدس حيث جرى الزواج بين مصطفى كامل عبدالله البالغ من العمر 24سنة والآنسة بهيجة خليل عياد البالغة من العمر 17 سنة على صداق قدره تسعة عشر مثقالا من الذهب الإبريز) وتم العقد وفقا لشريعة البهائية ومذيلا بتوقيع رئيس المحفل الروحاني وسكرتيره ومختوما بخاتم المحفل وأعلى الوثيقة شعار مطبوع (بهاء يا إلهي) وتحته عبارة (قوله في كتابه الأقدس (تزوجوا يا قوم ليظهر منكم من يذكرني بين عبادي هذا من أمري عليكم اتخذوه لأنفسكم معينا) وقد نظرت القضية أمام محكمة القضاء الإداري – الدائرة الرابعة- برئاسة صاحب العزة علي منصور بك رئيس المحكمة وبعضوية صاحبي العزة –عبد العزيز البلاوي وحسن أبو علم بك وبتاريخ 11يونيو سنة1952 م أصدرت المحكمة حكمها بعد أن سردت الوقائع والأسانيد القانونية والشرعية التي استندت إليها قضت في حكمها الذي جاء في منطوقه (حكمت المحكمة برفض الدعوى وإلزام المدعي بمصروفاتها ومبلغ 200 قرش مقابل أتعاب المحاماة) هل كنت تريدين أن يكون عقد زواجنا بهذه الطريقة يا ولاء؟!.. إنني الآن لا أستطيع أن أعثر على معنى لأي شيء.. إننا لا نستطيع أن نعبر للموت بإرادتنا ولا نستطيع أن نختبر تجربة الموت حين مات سعيد عقرب.. قررت أن أرحل عن هنا سريعا.. لم يعد للأوراق التي أبحث عنها جدوى من وجهة نظري.. حين قابلت فرحة المتشحة بالسواد

كانت شروق معي ضمتها إلى صدرها لم تشعر بوجودنا قطعا كانت تائهة لا تعرف ما يدور حولها حين أفاقت قالت إنه مات بسم الكوبرا لدغته حين حملوه إليها عرفت أنه سيموت قالت: تحدث عنك كثيرا يا سراج كان يحبك لماذا تركته وذهبت بعيدا؟ كانت الدموع تسبق حديثها وقعت في فراغ هائل وشعرت بدوار رأسي حملتني شروق إلى الخارج وأجلستني بجوار الباب من أجل الهواء بعد أن رأتني أختنق حدثتها عنه طوال الليل كانت تطلب مني أن أكف عن الحديث إشفاقا علي.. يوم أن صعدنا إلى الجبل معا قال إنه ذهب مع جدي إلى بيت الزعيم مصطفى النحاس ورأوا زينب هانم.. كانت سيدة في منتهى اللطف يومها حضر جدي إلى سعيد وكان مستبشرا تطل السعادة من وجهه حين رآه سعيد استبشر خيرا كما حكى لي حينها طلب منه جدي أن يجهز نفسه للسفر إلى القاهرة في مهمة عمل وعندما اندهشت لطلبه فهذه أول مرة يطلب منه أن يغادر قصر رشوان قال جدي له إنه على علاقة وثيقة برجل في الحزب يعرف مدير مكتب مصطفى النحاس باشا زعيم الوفد وأنه طلب منه سرا أن يحضر حاويا له خبرة في التعامل مع الثعابين حيث طلبت زينب هانم منه أن يحضره لأنها تشك أن في جنينة البيت ثعبانا.. وتلك كانت فرصة لا تعوض حينها حمل جدي سعيد عقرب إلى بيت زعيم الأمة مصطفى النحاس باشا هناك وكما حكى لي سعيد رأوه أمامهما ورأوا أيضا زينب هانم وحكى لي سعيد أن جدي تكلم في السياسة كثيرا مع مصطفى باشا وكنت أنصت لحديثه بينما كنت أعمل في الجنينة وزينب هانم شغوفة بمتابعة ما أعمل وكانت قلقة ربما كانت تظن أن الثعبان ربما يقفز فجأة من مكمنه و يقترب منها.. من يومها وصارت علاقة وطيدة بين جدي وبين مصطفى النحاس وأخذ يتردد عليه مرارا وكل مرة كان يحكي لـ سعيد ما حدث في اللقاء ودارت الأيام ورأينا الضباط

والعسكر يدوسون بأحذيتهم الميري بيت زعيم الأمة ويطلبون من زينب هانم وكان الباشا نائما وقتها كعادته أن يقابلوه لكي يتلو عليه أمر مجلس قيادة الثورة بشأن تحديد إقامته في بيته.. بعد كل هذه السنوات التى مرت عرفت أن الرجل الذى يقف بجوار جدى فى اللوحة التى فى صالة بيتنا الذى فى الكيمان هو زعيم الأمة.

7

حياة الأسر تبدو وضيعة لا قيمة لها حين يظفر بك أعداؤك

اليوم سأذهب مع شروق إلى خور عيسى الذي يقع على ضفاف بحيرة قارون حين عرفت أنني ذاهب مرغما إلى خور عيسى طلبت أن تأتي معي وألحت على ووالدها سيد خاطر أن يدعها تذهب معي لكي تدلني على الطريق كان الجو متقلبا كنا في الخريف.. الخريف الذي يبدو مطلا في أغلب لوحات شروق.. كنت أنتظر الفرصة لكي أقترب من شروق.. كنت أود أن أقول لها كلاما كثيرا ربما لا أعرف معناه الآن ولا ما الذى كنت سأبوح به.. ربما كنت سأحدثها عن حياتي الخاوية التي لا معنى لها تبدو مثل محطة قطار مهجورة ... أنا تائه.. لا ربما أبحث عن شيء لا أعرفه.. حياتي فارغة مثل كوب مشروخ.. كلها طنين.. منذ أن حضرت إلى قصر رشوان وأنا أعيش حلما أردد كلمات لم أكن أعرفها.. لأول مرة أحزن لفراق أحد.. منذ رحيل سعيد عقرب وأنا تائه.. شروق لاحظت ذلك كانت مندهشة حين اقتربت مني ذات يوم وصرحت لي بذلك كانت ترى أن المدة التي قضيتها مع سعيد ربما لا تتناسب مع قدر حزني وأنا أراها محقة ولا أعرف من أين أتى كل هذا الحزن ربما كان كامنا في نفسي وخرج كبركان هائل.. أنا لم أدرك رحيل أبي رحل عني وكنت صغيرا.. الحرب التهمته والأسر قضى عليه لا يستطيع المرء أن يجرب إحساس الأسر ولا مرارته كيف يقضي المرء أوقاته هناك وهو في قبضة أعدائه حتما لن يبكي ولن يصرخ رغم

أنه يحتاج إلى أن يفعل ذلك لكنه ربما يريد أن يخفي إحساسه بالقهر.. لا يريد أن يعطي أعداءه فرصة أن يهنؤوا.. ربما يبتسم وربما يضحك وحتما سيحاول أبي مهما فعلوا أن يبدو متماسكا رافع الرأس.. الحياة في الأسر تبدو وضيعة لا قيمة لها حين يظفر بك أعداؤك.. ربما يكون الموت هنا أفضل من حياة كهذه لكن الإنسان ليس بوسعه أن يختار كيف يموت.. الإنسان يبدو ضئيلا أمام الموت حين يحول تلك الحياة المشتعلة داخل هذا الجسد إلى فراغ هائل بحجم الكون تسقط فيه الظلمة.. فرحة لم تعد تنتظر قدوم زوجها سعيد عقرب أمام البيت كما كانت تفعل ...جلست داخل بيت سعيد حاولنا كثيرا معها.. بذلت شروق محاولات كثيرة لكي تخرجها إلى ضجيج العالم لكنها رفضت... مسحت بلورات الحزن التى نبتت على جبهتها وظلت صامدة .. لم يعد يشغلها سوى ثعابين سعيد التي تركها في البيت تفعل كل ما كان يفعله سعيد معهم.. في الأيام الأخيرة كانت تخرج حين يستنجد بها أحد لكي تخرج ثعبانا شاهده في بيته.. الناس في القصر لا يصدقون أن سعيد مات.. مازالوا يترددون على بيته ويطلبون منه النجدة حين يحسون بحركة مريبة في بيوتهم.. تخرج فرحة على الفور وهي ترتدي جلباب سعيد وتضع الكوفية على وجهها وتحمل عصاة سعيد وتفعل كل ما كان سعيد يفعله تقرأ نفس الآيات وتردد نفس العبارات والأدعية وما هي إلا ثوان وتسمع فحيح الأفعى وهي تطل برأسها من أحد شقوق البيت وكأنها أمرت أن تخرج طائعة مختارة وإلا سقطت اللعنات عليها.. تخرج الحية تتلمس الطريق بعد أن تعطيها فرحة الأمان بكلمات مبهمة وكأنها لغة تخاطب تعرفها تلك الكائنات وتفهمها جيدا وحين تستسلم الحية لتلك القوة الجبارة تبدأ مراسم تسليم نفسها تدور عدة دورانات حول نفسها وتخرج لسانها وكأنها تتذوق طعم الأمان أو تشتم رائحة خيانة وحين يتبين لها

صدق النوايا تسير في طريقها حيث تكون فرحة جاهزة وتفتح لها بابا وتدخل الحية في أمان.. أمر اندهشت له كثيرا حين شاهدته يحدث أمامي وسعيد يقف رابط الجأش مهابا لا يتحرك أو يهتز وكأنه متأكد تماما من استسلام الثعبان له.. لم يحدث مرة أن حالفه الحظ وظهر الثعبان المتمرد الذي لم يخضع لسلطانه.. كم مرة رأيت ذلك وتعجبت هل يستيقظ أهل قصر رشوان ذات يوم ويرون فرحة وهى تطلق الثعابين والحيات من أسرها.. من بيوتها الزجاجية أين يهرع الناس منها وأين يهربون وكل هذه الثعابين تزحف خلفهم .. أنا ماذا فعلت في حياتي الماضية غير أني جلست كقطعة أثاث ثمين لا تتحرك في بيت جدي هناك في الكيمان بجوار أمي وزوجتي ولاء التي اكتشفت بعد كل هذه السنوات أنها على دين أبيها وأنها تعتنق اليهائية وتؤمن بكتابهم الأقدس وتقرأ فيه وتحفظ آياته ولاء لا تعرف ماذا يريد هؤلاء منا ؟!، وأمي التي تنتظر عودتي وأنا أحمل معي أوراق البيت، بيت جدي الذي عرفت منها في آخر مكالمة بيننا أننا فقدناه وأن الحكومة نجحت واستولت عليه وألقت أشياءنا في الخارج.. أمي تتصور أنني حين أعود بأوراق البيت ستعيده الحكومة على الفور لنا، لكنني أعرف نوايا رجال الحكومة، فالذي أخذته الحكومة لن يعود أبدا.. عرفت منها أن ولاء ذهبت كي تعيش في بيت أبيها المحامي الشهير الذي علمها اليهائية.. حين سألتها أين ستذهب بعد أن أمهلتها الحكومة أسبوعا لكي تغادر البيت لم تجد ما تقوله.. صمتت.. لا أعرف ربما كانت ساعتها تنظر إلى الأرض تبحث عن إجابة لسؤال تافه مثلي.. سؤال لا معنى له في وسط كل هذه الفوضى التي نعيش فيها.. حتى ما تركه جدي لنا ضاع لم نستطع أن نفعل شيئا وقفت عاجزا في هذا اليوم بكيت بحرقة كبكائي على فراق سعيد عقرب.. ضاع بيت جدي الذي بناه لنا منذ سنين.. الحكومة قالت إن جدي استولى

على الأرض وليس لديه مستندات ملكية وأمي تقول إنها متأكدة تماما أن جدي اشترى هذه الأرض من أصحابها قديما وإن الحكومة تفعل ذلك لأنها تريد أن تستولي على البيت لكي تحوله إلى مبنى للمجلس البلدي الجديد الذي تزمع إنشاءه قريبا كما تقول.. قعدت مثل فوتيه قديم يحيطني عجزي من كل اتجاه أجلس مثل عربي قليل الحيلة يعد الحصا في وسط صحراء شاسعة تمتد تلالها أمام عينيه.. ما جدوى الذهاب إلى خور عيسى كي نبحث عن تاريخ رجل ربما مات منذ زمن طويل لا نحصيه وأصبح جثة باردة في قبر مجهول لا نعرفه ولا حتى نعرف ملامحه الجديدة التي رسمتها السنوات على وجهه الأسمر ولا نستطيع أن نصل إليه أبدا.. نحن نركض خلف سراب يتلاشى بمجرد الاقتراب منه.. حتى حسين حرب دفعني أن أذهب إلى خور عيسى.. سيد خاطر قال: هذا المكان الذي حمى جدك من العسكر الذين طاردوه ليالي طويلة وهم يتتبعون أثره.. وفي ليلة حالكة السواد جاء رجلان من الخور وتسللا دون علم أحد حتى وصلا إلينا خشيت أن يكونا مرشدين وجاءا من عند العسكر لكن جدك بفراسته التي كنا نطمئن إليها رحب بهما وفي الليلة التالية أعد الرجلان له خطة الهروب إلى خور عيسى حيث حملاه عبر البحيرة في شق مركب قديم واختفت المركب فور نزولها إلى مياه بحيرة قارون إلى أن وصلا إلى شكشوك ومنها بات سهلا أن يرحلوا في أمان إلى خور عيسى حيث أعواد البوص والغاب تحجب الرؤية تماما.. رجح سيد خاطر أن تكون أوراق جدي كلها عند أهل خور عيسى.. شروق كانت سعيدة بهذه الرحلة كانت تتحدث عن طموحها في أن تحصل على مناظر طبيعية من هناك تعينها على رصد تفاصيل البيئة هنا.. طالما سمعت عن الخور لكنها لم تذهب إلى هناك أبدا وحانت لها الفرصة وعلقت بها.. ورغم معارضة والدها إلا أنها نجحت في إقناعه وذهبت معي.. كانت شروق هي

الدافع لي أن أخوض هذه المعناة ولولا إصرارها لما ذهبت إلى الخور بعد أن شعرت باليأس وبعد رغبتي في إكمال هذا العبث رأت ذلك شروق وأحست بي وشعرت أنه ربما ذهبت من أجلي لذا وافقت على الذهاب معها.. كنت أتحين الفرص لكي أجلس معها ساعات طويلة أقضيها وأنا أتأملها ترسم منهمكة مشغولة عني وعن العالم كله.. حين تمسك الفرشاة تنسى كل شيء.. ليت ولاء كانت مثلها.. حين تضع شروق النظارة على عينيها تبدو أجمل رغم أن والدها سيد خاطر كان ينهرها عندما يراها تضعها على عينيها.. كان يظن أن تلك النظارة تعطيها سنا أكبر من سنها لكنني كنت أراها أجمل هكذا.. حين تتفحصني من خلف النظارة أشعر بارتباك وأهرب بابتسامة ساذجة لا معنى لها.. ابتسامة كتلك التي كنت أضعها على شفتي الباردتين أمام زميلاتي في كلية التجارة وأنا طالب في الجامعة.. كن يضحكن حين يرونني خجلا منهن.. كنت أحسد زملائي على شجاعتهم في التعامل مع بنات الجامعة.. لم أخض تجربة واحدة مع إحداهن.. البنت الوحيدة التي استسلمت لها ورأيتني أتخلى عن خجلي وأقف أمامها في حديقة منزلنا يوم أن تسلقت سورها وكنت أرقبها عن بعد.. ولاء.. حين رأيتها لم أشعر بما كنت أشعر به من خجل كانت الكلمات تتحرك داخلي لكنها كانت تموت صريعا على شفتي رأيت خجلها يسقط من عينيها ويومها أحسست بالقلق ليس كالذي أشعر به الآن.. إنني أشعر أنني أسقط في فراغ.. نوع من الخوف المبهم يتملكني.. حالة من عدم الاتزان والتوتر حين أشعر فجأة بالدوار كأنني أقف على حافة الوجود وأنني أسقط لا محالة في هاوية من الظلام اللانهائي.. حين أمسكت يدي وشعرت بدفء أصابعها ونحن ندخل إلى خور عيسى حيث المكان الذي يمتلئ بعشش الصيادين والشباك المتهالكة التي يلتف حولها النسوة والصبيان يخيطون ما تهتك منها أثناء رحلة الأمس داخل

البحيرة يتابعون غريبين هبطا فجأة إلى الخور الذي لا يرتاده غرباء أبدا.. حين استوقفت شروق صبيا يحمل مقطفا ممتلئا بالسمك البوري وسألته عن بيت الشيخ صالح النويهى أحد الرجلين الذين أعدا خطة هروب جدى... تفحصنا الصبي وبدا مسرورا بحديثه إلى شروق حين أشار بيده إلى بيت بعيد في آخر الطريق تركنا الصبي وانصرف تحرك نحوه النسوة التففن حوله يبدو أنهن يسألن عن وجهتنا وعمن نسأل.. رائحة السمك.. ورذاذ الأمواج وهواء منعش يأتي من البحيرة.. لاحظت انشغال شروق في متابعة المنظر حولها رأيتها مرات عديدة ترفع النظارة من على عينيها وتعيد مسحها في طرف البلوزة الأبيض ثم تعيدها كأنها تستوثق من كفاءة العدسات.. أهش الذباب عن وجهي أحاول أن أتبادل معها بعض العبارات لكنها كانت مشغولة عني.. الصيادون الذين يمرون إلى جوارنا يحدقون فى غريبين هبطا فجأة على شاطىء البحيرة ..حينها يفاجئنا موج البحيرة ويلطم وجهينا بالمياه المالحة.. في الأيام الأخيرة قبل رحيلي إلى قصر رشوان بحثا عن عقود البيت.. كنت أشعر أن ولاء تتحرك خلفي تراقبني فى البيت.. أشعر بها كظلي تعد على أنفاسي لم أعد أطيق تصرفاتها المريبة معي.. القلق تسرب إلى نفسي حتى أنني قبل رحيلي إلى هنا بدأت أفكر في الموت.. الموت وهو الطريق الوحيد للنجاة من هذا القلق من هذه الحياة المزعجة التي لا جدوى منها.. صارت فارغة لا معنى لها على الإطلاق.. تبدو كجدار صامت بلا فتحات.. حتى ولاء فقدتها الآن.. لا يمكن للمرء أن يعيش في عالم بتلك الفظاعة وهذه الوحشية كيف يبدو العالم بدائيا إلى هذه الدرجة رغم مظاهر الحضارة الصارخة في كل مكان؟ كيف تسيطر الهمجية على معالم الحياة الآن وليس أمامنا مخرج؟.. أين جدي وأبي الذي ضاع في الأسر وأمي المتألمة وولاء التي تضيع وتسقط بلا معنى هناك حيث لا جدوى من العودة؟ كيف تتسرب

قطرات المياه من بين أصابعنا التى تقبض عليها ونحن لا نقدر على فعل أي شيء.. إنني أتحدث عن تلك المرأة التي أحببتها وصار وجهها غير مألوف بالنسبة إلي.. إنني أفقد كل الذين أحبهم بلا إرادة مني رغما عني بعضهم التقمه الموت سقطوا في حفرة عميقة لن يعودوا منها أبدا.. لا أحد يعود من تجربة الموت كي يحدثنا عنها.. يظلون هناك في صمت.. لن أرى سعيد عقرب مرة ثانية لن يعود من هناك.. آخر مرة قابلته حيث كنا هناك في شق الجبل حدثني عن رغبته في بناء بيت كبير في حضن الجبل يسكن فيه مع فرحة كان يحبها كثيرا هكذا شعرت من حديثه عنها وسيصنع للثعابين بيوتا مجهزة وربما يفكر في الاستعانة ببعض الخبراء في تجهيز معمل لاستخراج الأمصال من سم الثعابين.. حدثني طويلا عن تجربته مع الأطباء في القاهرة وبعض كبار الباحثين وكيف كانوا يحضرون إليه ويطلبون منه سموم بعض الحيات والثعابين النادرة كي يدرسوها وكان لا يأخذ منهم أجرا على ذلك.. ربما كان يكتفي بالقليل الذي لا يتجاوز بضع جنيهات تكفي بالكاد ثمن المواصلات.

حين دفعنا الباب الخشبي القديم لمنزل الشيخ صالح النويهى وتجاوزنا السور القصير الذي يحيط بالبيت من الخارج ورأينا شجرة توت عظيمة تطل فروعها الكثيفة من فوق السور نظرت على الفور إلى شروق وجدتها تبتسم.. كنا قد تذكرنا حسين حرب وقالت شروق ساعتها: لو كان معنا لفرح كثيرا لأنه وجد غدائه هنا.. البيت القديم يواجهنا بشموخ كأنه قلعة صغيرة عاشت أزمنة جميلة و شهدت معارك رائعة تتحرك في الحديقة كلاب أليفة لا تنبح ويرقد أحدها على درجات السلم المؤدي للبيت رغم أن البيت يبدو مهجورا لا تحس أن بداخله حياة أو ناسا ربما تسكنه الأشباح.. كانت شروق تطل بعينيها على قعر بئر قديم ربما كان في الزمن الماضي مصدرا للمياه لكنه الآن بات مظلما تستقر في

بطنه حيوانات وطيور نافقة سقطت فيه سهوا.. أمواج البحيرة تتلاطم خلفنا نسمع هديرها كأنها ستسقط على رؤوسنا.. يتحرك شباك قديم مع حركة الرياح الآتية من البحيرة بقوة.. على الباب الخشبي القديم توجد كف حديدية تقبض على كرة أمسكت بها وطرقت الباب برفق.. أعرف كيف أسير الآن بلا هدى أتدحرج ككرة تسقط من فوق جبل.. لم أستطع أن أتمالك نفسي وأنا أضع يدي بين أصابعها.. نفرت مني لم تصدق هكذا بدت.. في عينها صباح لم يولد بعد.. أتمنى أن أسقط الآن في البئر العطن الذي هناك.. تراجعت خطوتين إلى الخلف لكنها حسبما شعرت لم تكن أبدا مستاءة.. الرمال التي تحركت في صدري ريح تقتلع كل شيء يمزق أوصالي يفتح لي عالما من الكوابيس من السراديب التي لم أدخلها قط.. أين أنت يا جدي إنني أتمزق بحثا عنك.. ربما كنت تقف هناك بعيدا في إحدى الزوايا لا يشعر بك أحد تراقب حفيدك وما عساه أن يصنع الآن؟.. لا تدعني هكذا أركض في بحر من الرمال المتحركة لا تدعني أغوص حتى أوشك على الهلاك لا بد أنك ستظهر مثل كل أساطير التاريخ التي دائما يظهر أبطالها في الوقت المناسب.. هل هذا هو الوقت المناسب لظهورك؟ ربما تدعني أسقط عن آخري.. ليتني عرفتك يا شروق منذ زمن بعيد ولى.. أنا لا خبرة لي بشيء يبدو أنني رجل أحمق لا يعرف على وجه الدقة ماذا يريد.. يخرج ما بداخله دفعة واحدة.. ما الذي فعلته الآن مع شروق؟ هل أعتذر لها عما بدر مني الآن أم أتركها تظن بي سوءا؟ هل ستفزع مني ستقول حتما إنني إنسان مجنون أتصرف بلا وعي وعندها كل الحق.. حين يخرج الرجل العجوز الذي يسكن هذه الدار ويفتح لنا فجأة ويرانا ربما يتصور أننا زوجان.. حتما سيرانا هكذا لن يتصور شيئا آخر.. ربما كان الفراغ الهائل الذي رسمته شروق في لوحتها الأخيرة ورجلا منكفئا على نفسه ووجهه ضائع

الملامح يبدو ممزقا كانت هذه اللوحة بعد موت سعيد عقرب حين همت حية بعضه لم يكن يصدق ما حدث له هكذا بدا كما حكت لنا زوجته فرحة قالت إنه تفوه بكلمات قليلة.. قالت إنه لم يصدق ما حدث له.. الحية كانت على غير عادتها قلقة ربما كان السبب أنها لم تفرغ بعد من تغيير جلدها وفي هذا الوقت تبدو غير معتدلة المزاج.. لم يكن سعيد يقدر الأمر كان يراهن على تلك اللغة المشتركة بينهما كان يراهن على أن أحدا من الثعابين أو الحيات يقدر على عضه ولو حدث ذلك فلن يؤثر السم فيه.. كان يقول ذلك بكل ثقة ربما لأنه تعرض لهجوم الأفاعي كثيرا وربما أيضا تعرض لكثير من العض.. كان لا يحسب أبدا أن نهايته ستكون بهذه الطريقة.. قالت فرحة إن سعيد حين حملوه إلى البيت بدا مستهينا بالأمر غير مصدق حين أحس بالتعب رفض أن يحملوه إلى المستشفى هناك بعيدا حيث تقع كان لديه الثقة بأن هذه العضة لن تؤثر فيه وأنه لم يكن يدري أن السم يسري الآن في دمه.. كانت جفونه قد تثاقلت لم يقدر على حراكها ظل مغمضا ثم أصاب الشلل لسانه وسار السم في جهازه العصبي حتى شعر بضيق في التنفس بعدما وصل الشلل إلى رئتيه وحينها فقط تيقن أنه مشرف على الموت.. ذلك الموت الذي خيم على لوحة شروق الأخيرة. وبعد فقد سعيد كنت أراه كظلام هائل يدخل إلى جسد سعيد.. ظلام بحجم الكون يسيل قي شراينه.. تري ما الموت..؟ هل يبدو معنى يستعصي على الفهم لن نستطيع إدراكه؟ هل بوسع سعيد الآن أن يحكى لنا ما جرى له ....يحكى كيف شعر بالسم يسرى فى جسده كيف تذوق طعم الألم الأخير كيف تجمد هذا الجسد الذي كان مفعما بالحياة .. جسد بارد ربما يشعر بالوحدة الآن.. هل هو نوع من الحياة لا نستطيع إدراكه بحواسنا المجهدة العاجزة التي لا تستطيع إدراك إلا ما هو محسوس فقط لذا نفارقه؟.. شعرت بالوحدة.. لم أكن أشعر برغبة

في البقاء هنا ولولا شروق لكنت رحلت إلى الكيمان.. شروق تستيقظ مثل لوحاتها لا تضع زينة تبدو جميلة كشجرة التوت.. تقرؤها مثل البحيرة ثائرة أحيانا تمتزج ألوانها بجنونها ورقتها.. تخرج كامرأة بلا مساحيق كأنها تلك القصيدة التي يقترب الشاعر من كتابتها لكنه كلما اقترب ابتعد وتاه.. لن يستطيع أحد أن يمسك بمعانيها.. إنها تستعصي على الكتابة تبدو شروق كقطعة ماس أصلية.. لماذا تصورت في لحظة جامحة أنك ربما تكونين لي.. أن بوسعنا أن نقترب أكثر.. أنت ربما تتحدثين عن ولاء.. ولاء خرجت من حياتي منذ زمن.. نحن زوجان فقط.. هل تدركين ذلك؟ ليس بيننا ما هو أكثر.. ليس بيننا تلك المشاعر التي أشعر بها الآن.. هل تفهمين ماذا أعني؟ إنني رجل يسقط في بئر عطن أردد أفكارا بلهاء.. هل تفهمين؟ فقدت كل شيء فجأة؛ ولاء، وبيت جدي، وأمي التي لا أعرف أين هي الآن بعد أن أخذت الحكومة البيت منها وتركتها تئن في فراغ هائل.. لم يعد بوسعي فعل شيء.. أنا رجل عاجز.. آسف يا أمي لا أعرف متى سأعود إلى الكيمان.. أنا أحتاج إليك يا شروق هل تفهمين.. كانت تنصت لي ولا تتكلم.. ربما كانت لا تصدق حتى حين فتح لنا الرجل العجوز الباب الذي طال وقوفنا أمامه حتى ظننا أن لا أحد بالداخل.. أول شيء وقعت عليه عيوننا هو صورة عبد الناصر التي تحتل مساحة كبيرة من الحائط الممتد بعرض الصالة.. صورة قديمة له وهو ببذلته العسكرية وشنبه الأنيق وهو يضع الكاب فوق رأسه.. صورة أخذتنا إلى زمن بعيد وقفت عندها أنا وشروق بينما تحرك الشيخ صالح النوبى خلفنا.. ضحك وهو يهز عصاته التي يتكئ عليها بعد أن حرك نهايتها في التراب ونظر ناحيتي ودقق النظر حتى شعرت بارتباك ورأيت الحيرة في عيني شروق.. قال وهو يحرك عصاته في الهواء: - أنت حفيد يوسف الواجدي.. أخيرا تذكرت أن لك جدا يا بني؟

طيـور الدهشـة حلقـت فـوق رأسـي.. بينمـا كنـت أسـقط بمفردي في فضاء هائل من الأسئلة.. شروق تلتصق بى

هل ذقت طعم الملح ...ملح البحيرة؟

تقصد مرارته ؟!

أشياء كثيرة وثمينة تركها جدك لك.

لي؟

لك وحدك.

جدي؟

لماذا تأخرت كل هذه السنوات؟

لم أكن أعلم.

لم تكن تعلم أن لك جدا؟

الحكومة استولت على البيت وطردت أمي منه.. عرفت منها ذلك في الهاتف.

ومن الذي دلك على خور عيسى؟

سيد خاطر وهذه ابنته شروق حضرت معي.

هل تحب الفطائر المحلاة بالعسل مثل جدك يا سراج؟

وهل كان يحبها جدي؟

سوف نأكلها معا على الغداء.

تركنا وانصرف إلى الداخل بعد ان استند إلى عصاته.. رأيته يتجـه إلى اليمـين وسـمعت صـوت خطواتـه وهـو ينزل على سـلم حسبته سلما من الحجر بعدها ساد الصمت ولم نشعر إلا بنظرات عبد الناصر التي تخترقني ودوامة من الأفكار تجتاحني وقد شعرت بـدوار والهـواجس الملعونـة تـنهش جسـدي المبتـل بـرذاذ البحيرة.. السـنوات التي مرت وأنـا راقـد في سـريري لا أدري مـا الـذي يجـري هنـاك مـن أحـداث.. الشـيخ صـالح النـويهى يتحـدث بلغـة كالبحر .. لماذا صمت كل هذه السنوات التي مرت من عمري غريبا كأني في

منفى.. قسمات وجه الشيخ صالح تفتح لي آفاقا جديدة لسيل من الأسئلة التي تتربص برأسي الذي اعتاد الخمول وجسدي الذي يحن إلى الرقاد.. كيف انفرط عقد الزمن وسقطت حباته في حجري دفعة واحدة؟ شعرت شروق بما ألم بي اندفعت ناحيتي رأيتها لأول مرة تحوطني بذراعيها لأول مرة أقترب منها بهذا القدر رأيت نظرتها التي تفتح آفاق الخصوبة وتروي ظمأ القلب الذي انكسر اقتربت بشفتين تحملان كل أبيات الشعر ونغمات الموسيقي رأيت أبا نواس يعبئ كؤوس خمر ولا يسكر رأيت الجنيد منتصبا في خرقته ينشد ما ينشد وما حسبته يتوقف أبدا ورأيت الحلاج يعتصره الألم في صلبه ولا يصرخ وأبي الذي يصرخ هناك في الأسر.. النقيب علي الباسل الذي دفنوه حيا جعلوه يحفر قبره بيده.. وحسين قاسم الذي رأيته بعيني يضعونه في سيارة مصفحة ويحملونه إلى البعيد المجهول حيث الرطوبة والوحدة والصقيع وبينما تضيع نظرات ابنه الصغير طارق الذى وقف عند سور البيت يصرخ ...أبى.. تطير حروفه فى الهواء إنه يعانى مثل الذي عاناه جدي من قبل حين كانوا يحملونه إلى معتقل القلعة ويلقونه هناك كخرقة بالية ولا يبالون.. هذه المرة استجمعت قواي وأمسكت بأصابعها وضممتها بكفي.. كنا سائرين على شاطئ البحيرة ورأينا سماء الخريف صافية خالية من السحب الرمادية وموج البحيرة يقذفنا بمشاعر طازجة لم أحسها من قبل.. لم أعرف ساعتها لماذا شعرت برغبة في طبق من التوت ألتهمه وحدي مثل حسين حرب.. حين جلسنا قبالته على الغداء نأكل الفطائر التي أجاد صنعها حتى أنني فتنت بها وكان يتابعني بفضول .. شروق أيضا شاركتني هذا الإعجاب.. كنا جائعين وكان يتحدث هو عن أزمنة مضت وعن بقائه في هذا البيت منذ سنوات لا يحصيها وحيدا رغم أن الناس هنا يحبونه جدا وينتظرون خروجه إليهم، إلا أنه قليلا ما يحب الخروج.. كان يرى

أن زمانه ولى وعليه أن ينتظر الموت الذي ربما يأتيه قاعدا أو قائما في أي وقت.. نظر ناحيتي وقال:

هل تعرف أن جدك الواجدي كان يحب أن أصنع له هذه الفطائر كلما حضر إلى خور عيسى؟

لم أحس أن من حقي أن أمد يدي إلى هذا الطبق الذي أمامي رغم شراهتي وجوعي الشديدين.. ليس من حقي أبدا أن أفعل ذلك وأنا أنتمي إلى هؤلاء المتخاذلين الصامتين القابعين داخل أنفسهم لا يريدون أن يبرحوا دواخلهم.. ليس لي انتماء لهذا العالم ولا أستحق هذا الترحاب ولا نصفه ولا حتى ربعه.. قضيت حياتي السابقة بعيدا مذموما مطرودا من رحمتها بعيدا عن عذابها الجميل وشراستها المشتعلة التي توقظ الهمم وتدفع النفس أن تتوق إلى عالم أفضل عالم نستحق أن نحيا فيه بشرف لا أن نسند رؤوسنا إلى جدار منهار سيقع حتما علينا.. متى نستطيع أن نمد قامتنا إلى السماء؟ طوال هذه السنوات وأنا تائه.. حتى شروق التي تقف أمامي كعاشقة متيمة تحمل في قلبها لوحة النور السرمدي وبيدها فرشاة النجاة لي لم أستطع أن أقبض على لحظة عشق أسكن بها كصوفي أو أن أمسك بتلابيبها مستسلما لأفكار بلهاء لمشاعر بليدة.. الأنثى التي تتمناها أمامك على بعد خطوات منك ها هي تقترب وتقترب لكنك مشغول بتفاصيل تافهة مغرقة في التفاهة منشغل عنها رغم أنك متيم بها قضيت حياتك في وظيفتك تحتل كرسيا تافها في سلم وظيفي مهين داخل بناية حكومية متهالكة تحصل على راتب وضيع لا يساوي ثمن فردة حذاء لامرأة أنيقة.. تتسول في نهاية كل شهر من صهرك كامل الجوهري مصاريف علاج أمك ومصاريف ولاء.. حتى ولاء التي قضيت عمرك في محرابها دنست كل شيء.. هل نسيت ذعرك حين رأيت زملاءك يهتفون في مظاهرة ضد معاهدة السلام التي أبرمها السادات مع اليهود؟ كنت

خائفا مذعورا تجري هنا وهناك كنت تخشي أن يظنك العسكر الذين التفوا حول سور الجامعة أنك واحد منهم.. هممت بالانصراف زاعما كذبا مرض أمك وأنها تحتاج إلى الدواء.. يومها هربت كفأر يلوذ بجحر آمن.. كنت تجري هربا من الذين يهتفون ضد السادات وضد المعاهدة بينما كان الجنود متحفزين للانقضاض عليهم بمجرد تلقيهم الأوامر من ضابطهم الذي يقف في استعلاء هناك على بعد خطوات من سور الجامعة.. استسلمت لخوفك وهربت إلى حضن أمك وفي اليوم التالي عرفت ما جرى لزملائك في الجامعة وعرفت أنهم اعتقلوا الكثيرين منهم وبعضهم أصيب ودخل المستشفى من ضرب العصي السوداء التي يحملها جنود الأمن المركزي الذين حاصروا زملاءك.. كثيرون أصيبوا ورقدوا هناك في المستشفى وآخرون كثيرون ذهبوا إلى حيث ذهب جدك إلى المعتقل.. ما زالت تقبع في ذاكرتي حين كنت أقوم من نومي فزعا على صوت العربات المصفحة التي تقتحم شارعنا وأشاهدها من خلف شيش شباك حجرة نومي.. كانت ترج الأبنية وتهتز معها كل قطعة من جسدي وأنا أتابعها تفتح بابها الخلفي يخرج من بطنها جنود مدججون بالسلاح يتحركون صوب بيت حسين قاسم جارنا الإخواني كما كانت تسميه أمي ويسوقونه في منظر مرعب إلى بطن العربة المصفحة ثم يأمر الضابط وتتحرك العربات بشكل يبدو عشوائيا حتى تغادر شارعنا بعد أن قبضت على فريستها كوحش هائل.. كنت أرتجف في حضن أمي وهي تحاول طمأنتي ولا تفلح وأظل راقدا بجوارها طوال الليل.. كلما أغمض جفني من التعب أفيق مرتجفا بعد أن طاردتني الكوابيس التي لا تدعني أنام أبدا حتى الصباح وأظل أراقب بيت حسين قاسم كلما مررت عليه ذاهبا إلى المدرسة كل صباح أو عائدا منها أقف لثوان معدودة حتى لا يلاحظني أحد أحاول أن أتلمس أي شيء يشير إلى

عودته.. أظل هكذا ربما شهرا أو أكثر حتى أشاهده وأعرف أنه عاد وحينها أسرع إلى أمي وأنا فرح لأنهم أفرجوا عن جارنا الإخواني وفي هذا اليوم فقط أجهز على طبق الأرز الذي طالما كانت تلح أمي في أن آكل نصفه على الأقل..مشهد ظل متكررا طيلة سنوات عديدة مرت وكنت فى الجامعة حين تزوج جارنا وأحضر زوجته الى البيت لم أعرف السر أبدا في ذلك الإحساس الغامض الذي كان يتملكني وأنا صغير.. كنت دائما أسأل عن أبي وكانت أمي لا تجيب تظل تصمت.. والأسئلة تعربد في رأسي لا أعرف سببا لغياب الأب.. الأب الذي يتحدث عنه كل زملائي في المدرسة وأحفظ النشيد الذي يتحدث عن ضرورة أن أحب أبي.. كنت أريد أبا حقيقيا ليس كالذي تتحدث عنه أمي بوصفه بطلا بل أريد أبا أتحدث عنه مثل كل الأطفال الذين يتحدثون عن آبائهم في الفصل من لحم ودم.. أب أراه في الصباح وحين أعود من المدرسة.. أب أتعلق بيده حين يأخذني إلى الحديقة ويحملني على كتفه حين أشعر بالتعب وأصعد على ظهره وهو يصلي.. حتى عندما كبرت وعرفت أن أبي ذهب إلى الأسر وأنه لن يعود من هناك أبدا رغم أن أمي لا تصدق ذلك رغم مرور كل هذه السنوات على غيابه حتى أنها جعلتني أحلم مثلها أن يوما سيأتي ونراه قادما من أول الشارع مرتديا بذلته الميري ويحمل حقائبه ويحضر متلهفا لرؤيتنا.. آمنت بهذه الفكرة وعاشت معي حتى كبرت.. لم أبكه أبدا ولم أر في عيني أمي سوي أكوام الضياع المتراكمة.. كنت أحس أن بداخلها فراغا عميقا من الحسرة والألم .. كنت أشعر أنها تؤجل انهيارها من أجلي.. كانت كأي امرأة ستنهار على تلك الفاجعة كانت تهتم بكل تفاصيل حياتي حتى أنني كنت أشعر أن ارتباطي بأي فتاة من زميلاتي في الكلية خيانة لها.. كلما كنت أحس باقتراب إحداهن مني أسرع بالخروج من المأزق سريعا حتى أنني صرت مثار سخريتهن من تصرفاتي.. إحداهن أشاعت أنني

ربما ليس لي مأرب في بنات حواء.. ورغم شدة النقد كنت أتصرف معهن بنفس الطريقة.. . واحدة فقط هي التي استطاعت اقتحام حصوني.. سماح.. كانت تسكن في دار رماد وهي منطقة تبعد عنا قليلا واتصلت بي وأخبرتني أنها مريضة وأنها تحتاج إلى كشكول المحاضرات لكي تدون ما فاتها.. وكنت فعلا ألاحظ غياب سماح عن المدرج عدة أيام متتالية وحين رفضت متذرعا بانشغالي طلبت من أمي في التليفون بعد أن تلطفت في الحديث معها حينها ألحت أمي علي أن أذهب إلى سماح لكي أعطيها كشكول المحاضرات.. نزلت من البيت وأنا أتأفف وحين طرقت باب شقتهم في الدور الثالث في مساكن النويري هناك كما وصفت لي.. اندهشت.. حين فتح لي رجل طاعن في السن منكوش الشعر يرتدي بيجامة كستور مقلمة مثل التي تباع في محلات عمر أفندي .. نظر ناحيتي وكان يترنح كالمخمور فتح عينيه بصعوبة بالغة كمن يحاول الرؤية ولا يستطيع.. حينها أسرعت سماح من خلفه وهي تقول:

- سراج يا بابا زميلي في الكلية

نظر إلى الكشكول الذي بيدي وأشار لي بالدخول دون أن ينطق بكلمة.. دخلت رأيت في الواجهة صورة لـ محمد نجيب وبجواره رجل يشبه إلى حد كبير الرجل الذي فتح لي الباب منذ ثوان.. حين لمحت سماح استغرابي قالت:

- لا تستغرب إنه بابا في الأربعين من عمره.. كان وسيما أليس كذلك؟ ورثت الوسامة منه.. أم لك رأي آخر؟

ضغطت على حروفها الأخيرة وضحكت جعلتني أجر خجلي.. ولم أرد.. سحبتني من يدي إلى غرفتها كانت مليئة بصور نجوم السينما وسرير ملقي عليه بطانية حمراء مكورة وقميص نوم معلق خلف الباب وساعة على هيئة كرة وأوراق مبعثرة ومراية صغيرة

ملقاة فوق الفوتيه الوحيد وعلبة سجائر جذبتها وشدت واحدة وقالت وهي تقدمها لي مبتسمة:

- تشرب؟

رفضت.. ذهبت لتصنع الشاي الذي ألحت في أن أشربه معها اندهشت حين رأيت صورة علاء زميلنا في الكلية موضوعة بحرص تحت الساعة التي على هيئة كرة.. أعرفه جيدا قائد المظاهرات وصاحب الخطب الرنانة في انتقاد الحكومة واعتقل أكثر من مرة.. رأيت كتبا سياسية كثيرة ربما لهيكل وفردة حذاء بها شراب حريمي وعلبة مكياج وأحمر شفاه.. هذه أول مرة أدخل إلى حجرة امرأة بتلك الحرية التي أنعم بها الآن.. حين عدت أخذت تتحدث معي عن رأيها بصراحة في زملائنا في الكلية ولاحظت أنها لم تأت إلى سيرة علاء.. أخذت رشفة من كوب الشاي وأشعلت سيجارة كرجل أنيق وأخذت تصارحني بما يرويه الفتيات عني في الكلية وحين شعرت أنني ربما أغضب كفت عن الحديث ودفنت باقي جسد السيجارة الذي لم تجهز عليه في الطفاية التي جذبتها من تحت السرير.. تحدثت أخيرا عن علاء قالت إنها تحبه لأنه شجاع ووطني ويحب هذه البلد وكانت تخشى عليه من تهوره في انتقاد الحكومة.. قالت إن الأمن يجند بعض الطلبة لكي يتجسسوا على زملائهم يجندون بعض الطلبة الفقراء يدفعون إليهم المال ويعطونهم الملابس وكتب الجامعة ويعدونهم بالوظائف ومرتب حكومة قليل بعد التخرج.. اندهشت.. لم أكن أعلم شيئا عن حياة الجامعة.. كنت طالبا عاديا يذهب إلى المحاضرات في الصباح وآخر النهار يعود إلى بيته يتناول الغداء في هدوء وينام ليستيقظ.. سماح التي أراها الآن ليست تلك التي الفتاة التي اعتدت رؤيتها في الجامعة.. لم أكن أحسبها تمتلك كل هذا الوعي.. لم أحسب أن فتاة على قدر كبير من الجمال تشغل رأسها بكل هذه الأفكار عن

السياسة.. كنت أحسبها تنشغل بمتابعة الموضة وتفاصيل أكثر عنها كأنثى.. ترسل شعرها على كتفيها وملامح جادة تخفي جمالا خاصا.. تمتلك عقلا لا جسدا جميلا فحسب.. لا أخفي أن هذا هو أول اندهاش بأنثى تحركت داخلي مشاعر لا أستطيع الإمساك بها تختفي بمجرد الظهور لا تمكث سوى ثوان تضيع محاولاتي هباء كأنني أقبض على ريح حاولت أن أنتزع نفسي من انهيار محقق ربما تسقط مني عبارات خائبة تعبر عن رجل لم يفتتن بأنثى من قبل.. سألتها لأخرج من سقوطي المتكرر وأرقي وأنا أراها منطلقة في حديث مشتعل عن زملائنا المعتقلين رددت أسماء كثيرة لا أذكر منهم واحدا بل ربما لا أعرف منهم أحدا.. تمنيت أن أنزلق أسفل المنضدة.. ماذا لو سألتني عن واحد منهم كيف أرد؟ قالت إنها زارت والدة كريم كانت تبكي ولدها ليل نهار منذ أن حملته السيارة المصفحة إلى قبو مظلم.. قالت إن أنظمة العالم الثالث مليئة بالقمع والوحشية حتى مع الصغار.. إنها حكومات ساقطة تطعمنا بالكاد وتضن على أحدنا أن يصرخ إذا شعر بالألم من قسوة قبضتها الحديدية.. ما الذي يجعل شروق تشبه سماح إلى حد كبير.. تنشغل عني بمتابعة خطوط متقاطعة على ظهر قوقعة ألقاها الموج توا تثني قدميها وتنحني فجأة لالتقاطها تتحرك أصابعها فوق الخطوط الدقيقة بخبرة رسام.. تضغط عل نظارتها التي انزلقت قليلا إلى الأمام على أنفها.. أي تاريخ نتعلق بأهدابه ونحن ساقطون في مستنقع من الطين العطن تفوح رائحة الخيانة من رؤوسنا الملوثة بأفكار غبية عن الحرية.. وكأي امرأة ساقطة لا تمثل لها الخيانة غير بضعة جنيهات يخرجن من حافظة نقود رجل ثري يركب عربة فارهة ويضع رابطة عنق غالية الثمن منقوش في نهايتها توقيع مصممها بحروف أجنبية.. لماذا يبدو المرء هنا ضئيلا مثلما يقف أحدنا أمام بناية شاهقة ويرفع رأسه ليعد طوابقها المتراكمة واحدا فوق

الآخر.. هل ننتظر حتى تسقط البناية على رؤوسنا.. .كنت سازجا حين حاولت أن أحقق أي انتصار لرجل خائب.. بدت خجلة حين رأتني أتبع عن قرب قميص نومها المعلق خلف باب الحجرة.. تلكأت في الحديث وحاولت جذب انتباهي إلى موضوع آخر.. ربما سمعتها تتحدث عن مظاهرات للطلبة ربما بمحاولة يائسة كانت تدعوني كي أخرج معهم.. كنت أتابعها وهى تقبض بكفها على فنجان الشاى لترفعه الى شفتيها كأنها تقبله وهي تحدثني عن المظاهرة التى ستندلع غدا ..لكنني تراجعت حين لمحت صورة علاء ..قالت أنهم ينوون الخروج الى الشارع برغم تحذيرات الأمن لهم..... كانت متحفظة معي في الكلام عن علاء رغم أنني لمحت في عينيها بريقا اختفت معه كل الشعارات وبدت أنثى تلم مشاعرها في رفق من أمامي.. وقد أدركت أن رؤيتي للصورة هنا لن تفلح بعدها كل محاولاتها لإظهار الأمر على أنه غير مقصود وأن علاء مجرد زميل في الكلية.. ربما ما أصابها من ارتباك يشبه إلى حد كبير ما أصاب ولاء حين وجدتها في حديقة بيت جدي تتطلع إلى زهرة القرنفل.. ظلال من ألوان رمادية تتماهى في الأزرق الخفيف تتجمع فوق وجه تسطع منه شمس أبريل الزاهية تتفجر كل الثورات من هاتين العينين الجميلتين أرى مون جون الجميلة التي حملت الشاعر بتلر ييتس أن يقود الثورة في إيرلندا.. سماح هي الأخرى ربما حملت علاء إلى الثورة.. كيف تجعل المرأة الجميلة الرجل عاشقا ثائرا يخرج في مظاهرات الطلبة؟! ربما يستعصي ذلك على أن أفهمه لأنني لم أجرب ذلك العشق الذي نقرأ عنه في الحكايات.. أما ما حدث لي مع ولاء فلا أستطيع أن أسميه عشقا بل ربما إعجاب أو ربما يتعدى ذلك قليلا أو هو اندهاش أو انجذاب لامرأة جميلة لكن لا نستطيع أن نطلق عليه عشقا.. وهو ما حدث معي عندما قابلت سماح لكن حين شاهدت صورة علاء إنطفأ ذلك الوهج داخلي؛

ربما لأنني شعرت أنني سأدخل منافسة مع علاء وأنا ليس لي أي فرصة للفوز.. رغم هذا لم أنس سماح أبدا حتى عندما عرفت ما حدث لـ علاء في المظاهرة التي قادها آخر مرة في الجامعة.. في هذه المرة لم يلق بالا بتهديدات الأمن له وتحذيره من الخروج بالمظاهرة خارج أسوار الجامعة لكنه خرج مرفوعا على الأعناق في تحد سافر لهم.. لم يستطع الضابط أن يتمالك أعصابه فقد سمعت ما حدث بالتفصيل من زملائنا في الكلية.. كانوا يحكون وهم يبكون بعضهم نزف دما من أنفه وبعضهم أضرب عن الطعام.. الذين شاهدوا موت علاء سقطوا في غيبوبة لم يفيقوا منها إلا في المستشفى.. قالوا إنهم شاهدوه يسقط بينهم حين اخترقت الرصاصة جمجمته.. شاهدوا قدميه يلتفان كأنه يبحث عن مكان للوقوف ولا يجد.. كان يتلوى.. مد يده كأنه يستنجد بهم لينقذوه من محنته.. تشبث بالهواء أخيرا.. لم يستطع أن يأخذ شهيقا كما نفعل نحن.. شهق شهقة مدوية.. ارتمى على الأرض.. ظل يتلوى بينما ارتفع ضجيجهم.. "حين سقط كنا نظنه مصابا بضيق في التنفس نتيجة دخان القنابل المسيلة للدموع التي أطلقها الأمن على دفعات مثلما يحدث لأحدنا حين يستنشق ذلك الدخان تشعر بدوار وضيق في التنفس وأحيانا لسعة في الحلق.. لم يكن هذا ما حدث يومها لـ علاء كان وقوعه بشدة وارتطامه بالأرض ونزيف الدم الذي سال من رأسه وأغرق أسفلت كوبري الجامعة وتلك النظرة التي طلت من عينيه ثم سكنت إلى الأبد جمدت كحجر وارتفع هدير الصياح إلى أعلى.. لم يكن يصدق أحد أن تكون نهاية علاء الآن.. تمدد جسده على الأسفلت وهو يرتدي الجينز كما اعتدنا أن نراه.. كانت نظرته تتجه نحونا".. ربما كان يبحث عن سماح.. أين أنت يا سماح.. أين اختفيت في هذه اللحظة حين اخترقت الرصاصة جمجمة علاء.. كان يبحث عنك.. الجميع بحث عنك.. ربما نطق أول

حرفين من اسمك.. نعم سمعوه ينطقهما بصعوبة بعدما سيطر الجمود على لسانه وتجمدت باقي حروف اسمك على شفتيه اليابستين.. حين رجعت إلى البيت يومها كنت قلقا على سماح من سماعها هذا الخبر.. لم أكن أعرف ماذا يمكن أن يصيبها.. أشفقت عليها ولا أخفي أنني فكرت أن أذهب إليها في شقتها لكنني ترددت كثيرا.. لم يكن لدي خبرة التعامل مع هذه المواقف أبدا لذا ليس هذا مناسبا أن أذهب.. اخترت القعود على مضض.. يومها فكرت جيدا في سماح.. طول الليل لم أستطع أن أنام.. لم أشعر إلا ودموعي تنهمر على خدي.. شعرت بتعاسة وضيق.. أحست أمي بما ألم بي وحين حكيت لها ما حدث لـ علاء الذي قتله الأمن على كوبري الجامعة هذا الصباح بكت أمي ويومها تذكرت أبي واشتد بكاؤها حتى أنني ندمت على أنني حكيت لها ما حدث ولولا إصرارها لما حكيت.. الطبيب كان يحذرها دائما من الانفعال ها هي بدت منهارة.. شعرتُ بالذنب.. كان أبي الذي مات في الأسر منذ سنوات بعيدة قتلوه هناك مرغما بعد أن تخلت عنهم قيادتهم وتركتهم في صحراء شاسعة بلا إمدادات أو خطة للانسحاب تركتهم في العراء فريسة سهلة لليهود وراحت تعلن التنحي على شاشة التلفزيون في مشهد مسرحي ميلودرامي وفي خلفية المشهد تخرج الجماهير جائعة وهي تلهث.. تهتف بحياة الزعيم وتستعطفه وترجوه أن يبقى بينما لا يظهر من بعيد أبي النقيب علي الباسل وهو يسقط مرغما في حفرة تشبه القبر حفرها لنفسه توا بأوامر من أعدائه.. صورة عبدالناصر التي كانت ملقاة في سرداب بيت صالح النويهى ترقد بين كراكيب زمن مضى.. كان النويهى جزءا منه.. جزء من كراكيب ملقاة في قاع سرداب طويل نفذنا إليه أنا وشروق وأمامنا صالح النويهى يدلنا على طريق السير وسط عتمة لا يبددها سوى شعاع من ضوء الشمس ينفذ بالكاد من شباك مرتفع يقارب السقف

يشبه شباك الزنزانة التي وصفها لي حسين حرب وقضى فيها مع جدي قرابة السنتين من الاعتقال.. حين رأيت رأس الكبش فجأة وهي مثبتة على الحائط المواجه لسلم السرداب تذكرت بيت جدي.. نفس الرأس.. جذبتني شروق من يدي حين لاحظت تخلفي عنهم في السير.. أي زمن نبحث عنه في هذا المكان الموحش؟! ربما ساورني شعور بالرغبة في القيء.. هل صحيح أننا هنا سنجد حقيبة جدي التي تحدث عنها النويهى وطلب منا أن نهبط إلى هنا في هذا القعر.. أشعر بالاختناق والرغبة في الصعود إلى أعلى لولا نهم شروق الذي يطل من عينيها لمواصلة الطريق إلى أسفل.. كأننا نهبط إلى قاع قبر لن نجد سوى جثث لموتي.. الرجل على ما يبدو لم يهبط إلى هنا منذ سنين بعيدة رغم شعوره بالحنين إلى هذا الزمن.. أزاح بيده بابا خشبيا متهشما.. هاجمتنا رائحة عطن ولفائف من خيوط العنكبوت الكثيفة تحجب الرؤية.. تناول بحنين صورة مصطفى باشا النحاس ذلك الرجل الذي أهانته الثورة حين أرسلت له ضابطا يبلغه بقرار الثورة بوضعه رهن الإقامة الجبرية في بيته.. لم يشفع لرجال الثورة تاريخ الرجل المناضل حتى يحسنوا معاملته.. يتهادى من بعيد هدير موج البحيرة.. أزاح بكفه ترابا تكوم حول عيني الباشا وشاربه الأنيق.. تمدد داخلي الإحساس بالفراغ.. رأيت وجه أمي تحثني على مواصلة السعي كي أظفر بعقود البيت وربما ساعتها نسترده من الحكومة طالما معنا هذه الأوراق هكذا أفهمها المحامي.. كانت عيناي قد وقعتا على حقيبة في نهاية السرداب ووجدت شروق أيضا تنظر إليها مثلي ربما كانت هي حقيبة جدي.. الرجل توقف فجأة عن السير التفت إلينا.. كان متعبا.. ألقى الصورة التي بيده.. أحدث ذلك دويا بين الكراكيب كأنها تعلن احتجاجها ضد الرجل الذي ربما استهان بصاحبهم.. تململ وعاد

للخلف وكان يسبقنا بخطوات كما طلب منا.. أن نتركه يتقدمنا.. قالت شروق بتعجب:

- هل أصابك مكروه؟

- لا.. ولكن لن يكون بوسعنا التقدم.

- لماذا؟.. انظر.. إنها هناك.. الحقيبة.

-المياه الجوفية أطلت من أرض البدروم.. تحتنا الآن مياه.. لا تنسوا أننا قريبون من البحيرة ليس بوسعنا أن نسير فوقها هناك خطورة..أرض البدروم كما رأيتها لا يمكن السير فوقها بأمان.

- الحقيبة رأيتها هناك.

- سراج.. يا بني يجب أن نحتاط.

- عنده حق يا سراج الأمر فيه خطورة.

- وماذا سنفعل الآن؟

- ليس أمامنا الإ العودة حتى نفكر بطريقة آمنة لكي نحضر الحقيبة.

لم أفهم جيدا ماذا يقصدان بطريقة آمنة.. لو كان هناك شيء آمن لما مات سعيد عقرب ولما مات علاء فوق كوبري الجامعة.. ليس هؤلاء فقط.. هناك جثث كثيرة ملقاة في التاريخ لا أحد يعرف من قتلهم على حين غرة ثم فر هاربا كقاتل محترف.. ناس كثيرون تحدثوا عن قتل عبدالناصر وليس موته وهناك من تحدث عن قتل الملك فاروق في إيطاليا بالسم والقاتل غير معروف وهناك من شكك في تلك الرصاصة التي اخترقت جنب البطل أحمد عبد العزيز الأيسر بعد أن استدعته قيادة الجيش أثناء حرب ثمانية وأربعين وقد أحرز انتصارات هائلة في المعركة، أما عن الحكام الذين قتلوا بالسم وماتوا دون أن يعرف أحد سببا لموتهم إلى الآن فحدث ولا حرج.. حتى علاء الذي مات بعيدا عن سماح.. كنت كمن خرج توا من قبره تتداعى إلى ذاكرتي يوم أن صممت أن

أذهب إلى مساكن العمال في حي النويري.. إليها.. صحراء هائلة تمتد داخلي بلا نهاية وأسئلة لا معنى لها تتردد في صدري وما إن حل النهار حتى هممت بالخروج مسرعا إلى مساكن العمال قاصدا شقة سماح.. حين وجدني الرجل أمامه أمسك بيدي وسحبني إلى الداخل.. كان يبدو يقظا ليس كما رأيته أول مرة.. أوقفني أمام صورة له ببذلة عسكرية أنيقة مع اللواء محمد نجيب.. هممت أن أسأله عن حال سماح بعد رحيل علاء.. مد يده وأنزل الصورة من مكانها على الحائط وسحبني إلى الكنبة التي تتوسط الصالة الضيقة وأجلسني.. وأخذ يحكي لي عن ذكرياته مع اللواء نجيب.. عرفت من حديثه أنه كان يعمل سائقا لسيارة الرئيس وأنه عاش مع الرجل أحلى سنوات عمره حتى أبعدته الثورة.. وكما منحته الثورة كل شيء أخذت منه كل شيء وتركته في بيته رهن الإقامة الجبرية يعاني الوحدة والبرد ولا يجد أحدا يواسيه.. ما عساهم يخشون من رجل مثل نجيب؟ ربما خافوا من شعبيته ربما ضايقهم التفاف الناس حوله.. أشياء كثيرة تحدث عنها الرجل لكنه بكى أمامي بحرقة كطفل.. هممت أن أسأله عن سماح لكنه بادرني بقوله:

- أعرف أنك أتيت من أجل سماح.
- أريد ان أطمئن عليها بعد الحادث.. علاء كان زميلنا جميعا.. ورحيله أثر فينا.
- علاء كان ولدي الذي لم أنجبه.
- لم أصدق أن السياسة تفعل ذلك بأصحابها.
- هذه ليست سياسة يا سراج إنها جريمة قتل بشعة.
- وسماح أين هي أريد أن أراها أطمئن عليها.
- سافرت.
- سافرت؟؟! إلى أين؟

- إلى فرنسا.

- كيف؟

- أمها تعيش هناك وقررت بعد موت علاء أن تترك البلد.

- ومتى ستعود؟

- ربما لا تعود قط هكذا هو حال من يرحلون عن هنا مرغمين.

- والجامعة؟ والدراسة؟

- لم يعد شيء يهم

تركته يحتضن صورة نجيب وهممت بالرحيل جاءني صوته ضعيفا:

-هذه الرسالة لك.

- منها؟

- نعم كتبتها بعد أن حزمت حقائبها. رحلت وأنا لا أصدق أنني لن أرى سماح بعد الآن.. تحدثت في خطابها عن أشياء لم أفهمها .... قالت: الشوارع بدت ضيقة والناس بوجوههم المكفهرة سائرون والعصفورة التي حطت على غصن شجرة أخضر في نهار شتاء دافئ ترقص وتغني وتأكل عشبا طريا وتصفر مع الريح إن هي حلقت في الهواء وحركت جناحيها وطارت بعيدا حيث الغيم يكون كثيفا والكائنات الضخمة والعتمة تأخذ كل شيء.. أرتجف حين أسير بلا هدف تأخذني قدماي إلى وحشة وعناء يأتي مفترق الطرق وأراني وحيدة لا أستطيع أن أختار وحيدة أتابعها ترقص في الفضاء البعيد وتغني وهي لا تدري أن يدا ستمزق هذا الفضاء وأن الريح الآتية ليست مرتاحة لوجودنا.. لن ينقشع غيم الليلة كما حدث بالأمس.. لن ندخل إلى فراشنا في هدوء ككل ليلة.. سوف ينتابنا نوبات من العصبية والصرع ستداهمنا الكوابيس ولن نستطيع أن نفر منها.. ستنزف أفكارنا السخيفة حتى الموت ولن نستطيع

إسعافها لن أستطيع العودة إلى نفسي التي فارقتها.. إنني أتمزق كفراغ هائل تحاصرني الخرائب.. إنني امرأة وحيدة تراقص الريح وتحلم بولد يحل ضفائرها بنعومة ويشعل جسدها المصون بالنور ويفك أزرار خوفها يمنحها رقته وعزوبته ويجعلها تطير به وتلهو كأنها طفلة لم تغادر خمس السنوات بعد.. سراج.. أنا أكتب إليك وأنا أرحل عن هنا أذهب إلى عزلتي ومنفاي.. لم أعد أصدق أن في هذا البلد أناسا طيبين.. كفرت بكل شيء بعد رحيل علاء.. ربما كان عندك حق أن تصمت.. لن ألومك بعد الآن.. ربما نلتقي معا في وطن أفضل وحياة أجمل.. أنا آسفة لم أستطع أن أتذكر أحدا إلا أنت لهذا تملكتني رغبة في أن أكتب لك الآن وأنا أرحل عن هنا.. أعرف أنك فكرت بي كامرأة جميلة تمنحك كل ما تبغي.. ربما ضايقك ارتباطي بعلاء وككل الرجال الشرقيين تريدون كل النساء لكم.. أنا لا أصلح لك صدقني أنا امرأة ضائعة.. تنهار الآن البناية التي اكتملت طوابقها وحلمت بها تصل إلى السماء لم يعد لدي شيء أعطيه.. سراج هل تفهمني.. حتى علاء لم أفكر به زوجا كنت أراه شيئا أقرب إلى الحلم هل تصدقني..كنت أحلم مع علاء وسأظل أحلم معه رغم رحيله.. يسعدني أن تفكر بي ولا تنساني.. أرجو أن تغفر لنا الإساءة إليك يوما حين ظننا أنك عميلا للأمن.. هكذا تصورناك.. ربما يضايقك هذا الآن.. حتى حينما اقتربت منك ذات يوم كنا نريد كشفك.. اعذرني.. الأوغاد أفلحوا في تضليلنا إلى حد كبير.. لم أستطع أن أطرد هذا الهاجس.. هل أنت السبب وراء قتل علاء على كوبري الجامعة؟ أنا لا أصدق لكنني لا أملك الدليل على براءتك.. هل تفهم؟.

بقيت طوال الليل سائحا في الطرقات.. السواد يملأ عيني ولا أستطيع أن أرى أمامي سوى بضعة أمتار قليلة.. أشعر أن بيوت الكيمان سوداء والريح تصفر في أذني.. ساعدني أيها الليل أن أعرف

خطواتي أن أفهم ما تكتبه النجوم العمياء على صفحة الكون البغيض.. كيف أسيطر على تلك الفوضي التي تجتاحني الآن بعدما قرأت رسالتها التي جلبت الفناء إلى عالم جميل كنت رسمته في خاطري؟ كيف أرقد الآن مستلقيا على ظهري بينما جسدي تنهشه الأوجاع والحمم التي اندفعت داخله؟ كيف تفكر سماح بهذه الطريقة هل تظنني خائنا؟ أنا الذي قتلت علاء؟ كيف لي أن أغادر جسدي وأحلق في فضاء معتم؟ كيف لي أن أعثر على وجه فتاة طيبة يشبه وجه سماح أو ولد طيب يشبه علاء؟ سأظل هكذا ساهرا حتى تخرج الشمس بنورها وتغسلنا من أوساخنا تخرج أرواحنا منا وربما لا تعود إلى هذه الأجساد المدنسة التي تمتلئ بالعتمة والخوف.. ربما نحلق مثل علاء جسدا من نور نسكن به التراب.. ذلك التراب هو الوطن ومكان العودة كي يحتفي بنا هناك حيث عالم آخر.. أريد أن أصل إلى أرض لم تطأها قدم إنسان.. بكر لم تدنسها هرولته إلى المعصية.. حتى سماح بدت مرهقة بأفكار بدينة أفكار سخيفة تنطق بها وترددها.. لم أعد أستحضر صورتها المشرقة في صدري ولا صوتها المرقوم بجدول نغمات الطيور الحرة الطليقة في السماء.. ليس لأحد عليها سلطان.. وجهها الذي يطل من كتاب الدهشة مشرقا بحروف بارزة كتبت بماء الطهر والنقاء ربما حلمت بها كربة جمال رغم ذلك لعنتها وكفرت بها دهست ذاكرتي بيدي كيف لها أن تتصور أن سراج حفيد الواجدي يكون عميلا للأمن في الكلية؟.. كيف أبدو أمام زملائي؟ هل يفكرون بي بهذه الطريقة؟.. قررت ألا أذهب إلى الجامعة.. مكثت في البيت بعدها أسابيع طويلة لا أستطيع أن أخرج من البيت.. شروق كلما هممت أن أعد حقيبتي كي أعود يطل السؤال الصعب.. أعود إلى أين؟! أرض الطفولة التي ولت ولن أستطيع استعادتها إلا في مخيلة ذاكرة مجهدة.. ما الذي حدث في ذلك اليوم الذي خرجت فيه خلف

أوراق جدي ولم أنظر خلفي كي أتراجع.. شروق هل ما كتبه جدي وقرأناه صحيحا عن ذلك الوهم الذي كان يعيش داخله عن لذة العودة إلى البيت وغواية الرجوع إلى الجذور حيث الصبا؟ كان هناك وربما ينقلب هذا الحنين إلى رعب منها.. هذا ما أشعر به الآن أنني أخشى التفكير في الرجوع.. لم أعد قادرا على المجازفة حتى في آخر مكالمة هاتفية مع ولاء لم أكن متحمسا لسردها أخبار ما يحدث.. حتى حديثها عن أبيها كامل الجوهري قالت إن الحكومة قبضت عليه منذ أيام.. كان مجتمعا مع آخرين في بيته في كيمان فارس ربما كانوا يتحدثون عن خطط لهم لدفع هذا الوطن الى مزيد من الانهيار حتى ولاء قالت كلمات لم أفهمها عن أنها ربما تكون خائفة وأنها تحتاج إلي الآن بجوارها.. ربما أكون قد سمعتها تطالبني بالعودة إليها.. هي لا تعرف أنني ربما أكون قد فكرت في التخلص منها الآن وأطلقها.. لكنها كانت في هذه المرة تبكي بحرقة.. حاولت ان أحثها على أن تتماسك لكنها بدت منهارة.. هكذا شعرت.. وحين رددت على سمعي ما قالت لم أصدقها في أول الأمر حتى عادت ورددت ما قالت ثانية.. لم أستطع أن أتمالك نفسي حين وضعت السماعة رغما في وجهها.. لم أصدق ما قالت.. قلت ربما تجرني كي أتعاطف معها.. إنها تحاول استمالتي بكذبها المتواصل.. هل تكون صادقة هذه المرة؟ لا أعرف ربما تحاول خداعي.. كيف أفكر بها الآن وأمامي شروق؟ هل يمكنني أن أصارح شروق وأقول لها كل ما أريد؟ هل يمكنني أن أحملها معي ونذهب معا إلى فرحة زوجة سعيد عقرب لأقول لها حقا ما قلته لي لقد أصبح حقيقة.. فرحة كانت تدرك أن مشاعري تقترب من شروق لكنني أخشى أن ترفض أن تتعلق برجل مثلي.. رجل سيسقط حتما دون انتظار.. سيسقط دون سبب واضح لكنه يوشك أن يقترب من نهايته.. هل تمنحك شروق فرصة أخيرة كي تحيا؟ إذا وافقت سنرحل إلى

الكيمان.. سنذهب إلى بيت جدي ربما نستعيده من الحكومة يوما ما ونعيش فيه معا مع أمي.. حتى فرحة يمكنها أن تأتي معنا.. لا يمكننا أن نتركها بمفردها هنا.. كيف ستقضي الأيام القادمة من دون سعيد عقرب؟ لماذا أتردد في أن أقول ذلك لـ شروق؟ هل ضروري أن أبوح لها بما قالته لي ولاء في مكالمتها الأخيرة أم أظل صامتا؟ ربما كانت تكذب.. نعم ولاء تكذب.. ربما شعرت بالخوف بعدما قبضت الحكومة على والدها كامل الجوهري لهذا رددت كلمات سخيفة لا معنى لها أنها تحتاج إلي الآن.. لكن الأكثر أهمية من هذا ما قالته وهي تبكي.. قالت إنها حامل وإنني سأصبح أبا عما قريب!! هل ما قالته حقيقة؟ هل هي حامل فعلا أم مجرد كذبة تحاول بها استمالتي إليها؟ وهل من حق شروق أن تعرف ما دار في الهاتف بيننا؟ سأقول لها ما قالته بالحرف الواحد.. أنا أتذكره جيدا. هي في البداية حاولت أن تبدو نادمة على ما بدر منها ناحيتي.. قالت كلمات تشبه الاعتذار ربما تنهدت قليلا.. بدت مترددة وهي تقول إنها تفكر جديا في اعتناقها اليهائية بعدما تيقنت أن فى الأمر خدعة وأنها فقط تريد أن تتأكد من موقف أبيها.. ربما كانت تقصد أنها تفكر في الرجوع عنها هذا ما تصورته لكن عبارتها لم تكن محددة.. كانت كلمات مبهمة غير واضحة أما الحمل فكانت كلماتها واضحة تماما.. قالت وسمعتها أنها حامل.. ماذا عساي أن أفعل الآن؟ أريد أن أخبر شروق بكل شيء.. شروق تتصور أننا يمكن أن نعثر على أوراق جدي المهمة هناك في سرداب صالح النويهى المملوء بالطين ورائحة العطن.. البيت أخذته الحكومة ولن تعيده إلينا أبدا مهما فعلنا.. أمي قالت ذلك لي في الهاتف حين طلبت مني أن أعود.. كفاها ضياع البيت منها هي لا تريد أن يضيع ابنها الوحيد هو الآخر.. حين أبلغت شروق برغبة أمي تلك عارضتني.. كنت أرغب في أن أحسم الأمر معها أفهمتها ما جرى بيني وبين ولاء زوجتي وما

حدث.. كانت شروق متوترة.. دفعتني إلى الخلف بكلتا يديها كدت أن أقع على الأرض صرخت:

- سراج لا تنكر.. أريدك أن تصارحني.. أنت الذي أبلغت الحكومة عن كامل الجوهري والد زوجتك.. قلت لهم كل شيء.

- لا لم يحدث صدقيني يا شروق.

- بل أنت الذي فعل هذا كي تتخلص منهما.

- كيف تفكرين بهذه الطريقة؟!

- تخلصت منه كما تخلصت من علاء من قبل حين أبلغت الأمن بنية الطلبة الخروج بالمظاهرة خارج أسوار الجامعة وكانت النتيجة موت علاء وكنت تظن بذلك أن سماح أصبحت لك وحدك أنت إنسان شرير.

انصرفت من أمامي وهي منهارة تبكي حاولت اللحاق بها رفضت.. لا أعرف ما الذي تعنيه شروق بكلامها؟ هل حقا هي تعني ما تقول؟!! هل تظن أنني فعلت ذلك فعلا؟ هل يمكنني أن أفعل هذا؟ أن أكون السبب في موت علاء والقبض على كامل الجوهري؟ هل أمتلك كل هذا السوء؟! هل يجب أن أحزم أمتعتي وأرحل عن قصر رشوان كما طلبت شروق.. ربما تستدير شروق وتعود نادمة على ما قالت في حقي.. أنا أحبها.. نعم هذه هي الحقيقة.. ربما لم أصارحها حتى الآن بمشاعري نحوها ربما خوفا خجلا.. لكن ها هي شروق آخر أمل لي تتركني وترحل.. صممت على العودة إلى بيتها الآن رغم كل توسلاتي.. كان موج البحيرة يقذفنا بملحه ويلطم أسوار بيت صالح النويهى التي بدت مهشمة لكنها رغم ذلك صامدة لم تسقط حتى الآن.. أعرف حين تصل شروق إلى بيتها أول شيء ستفعله ستدخل إلى حجرة الرسم وستضع على الحامل لوحة بيضاء تماما مثلما تفعل عندما تشرع في رسم لوحة جديدة

وتتدفق الفكرة إلى عقلها تنمو شيئا فشيئا كطفل تمسك الفرشاة وتسير مهتدية بإحساسها بالألوان تمزج بعضها وتخرج كائنا جديدا ربما يكون بقعة ضوء أو ظلالا رمادية أو تكوينا لونيا يفضح مشاعر غير مرئية.. أول شيء ستصنعه هذه المرة سترسم خطوط وجهي وستضع ظلا أسود على خطوط أسفل العين.. ستمر بالأزرق الممتزج بالأصفر قليلا.. وتمر بهما على الذقن.. قد تحطم الأنف وقد تنثر الغبار في أنحاء متفرقة من اللوحة.. غبار يشبه غبار الصحراء.. ستعود بي مرغمة إلى زمن البداوة.. ستضع بقعة في أفق اللوحة ربما تظنها الضوء وأراها تكون خطرا يهددني.. لماذا ترحل هكذا مبكرا شروق وتتركني معلقا في الهواء أسير بلا هدف ربما ينتظرني الموت عند ناصية الشارع القادم الموت الذي أجهز على جدي وعلاء وسعيد عقرب.. لماذا يتركنا الله نموت عرايا نذهب بعيدا عن هؤلاء الذين نحبهم؟ أين يجلس ذلك الموت؟ هل في مكان قريب يستمع إلى أحاديثنا ويطرب لها؟ شروق رحلت.. هل ما حدث كابوس؟! العجوز صالح النويهى طلب مني أن أستعد لكي نهبط إلى السرداب غدا.. ليس أمامي سوى الانتظار.. كنت جالسا على شاطئ البحيرة حين سمعت النويهى يناديني بصوت عالٍ حين أقبلت عليه:

- امرأة تطلبك على الهاتف حين قلت لها إنك الآن على الشاطئ قالت سأطلبه بعد قليل.. لم تذكر اسمها رغم أنني حاولت معها.. يبدو أنها تريدك في شيء مهم

هكذا شعرت من صوتها.

قلت في نفسي إنها شروق ربما أحست بجرمها وتريد أن تعتذر عما بدر منها.. يا لها من فتاة طيبة.. لا بد أن أتصل بها حالا.. ليس ضروريا أن أنتظر حتى تتصل بي كما فعلت.. شعر العجوز بالفرحة التي تتقافز بين يدي.. فهم مقصدي.. رفع سماعة الهاتف وقدمها لي:

- اتصل بها أنت لا تنتظر.. المشاعر الجميلة يفسدها التفكير المتأني.. هيا.

كلماته حسمت المعركة داخلي.. أقبلت على قرص الهاتف وأدرته.. بعد لحظات كان صوت شروق في الناحية الأخرى وهي ترد:

- شروق أنا سراج.

- أهلا سراج هل حدث شيء؟

- سنهبط السرداب غدا.. أنا خائف.

-أنا مشغولة الآن.

- ترسمين.. هكذا توقعت.

- هل تريد شيئا يا سراج؟

- نعم كنت أريد أن أشكرك على اتصالك بي العجوز قال أن امرأة اتصلت بى وتوقعت أن تكنى هى

-أنا لم أتصل بك.. انظر من المرأة التي اتصلت بك واشكرها.

وضعت السماعة وانتهت المكالمة وأنا لا أفهم.. شروق لم تتصل.. إذن من المرأة التي اتصلت بي هنا عند صالح النوبى؟ ولماذا لم تذكر اسمها.. لو كانت ولاء هي التي اتصلت لذكرت اسمها على الفور.. كانت الدهشة تأكل وجه الرجل وهو يتأمل ما يحدث أمامه.. ربما كانت ولاء هي التي فعلتها وربما كانت صادقة حين ذكرت لي ما حدث.. كنت أود أن أصرخ في وجه العجوز وأقول له إني أحبها.. نعم أحب شروق.. هل ترى ذلك التدفق في شرايين وجهي وتلك الغيمة التي حلقت في عيني فجأة وجعلتك تسألني في سذاجة عن سر علاقتي بها؟ الأمر لم يعد سرا.. أنا كشفت لك عن مكنون نفسي عن تلك البرودة التي أحس بها تلسع روحي تقفز داخلي حيوانات صغيرة كتلك التي تشبه الأبالسة ترجني وتدفعني ان أسقط بمفردي في قاع مظلم من كلمات ولاء التي لها حوافر

وأقدام وتمضغ أفكاري.. لماذا تتصورني قلقا أو مترددا.. أنا لا يمكنني بتلك البساطة التي تتصورها أن أذهب إلى شروق أصرح لها بحبي.. ساعتها أكون وقعت في حفرة من الصمغ اللزج.. هل تقدر ما أعنيه؟ أنت بأفكارك تلك تصلح للزمن الماضي.. أنا ولدت في زمن مختلف يجب أن تقدر ذلك تماما وإلا وقعنا معا في فخ عميق.. هل تريدني أن أتعلق بقدمها أرجوها ألا تدعني أسقط عن آخري دفعة واحدة أتمزق كحجر الى ذرات صغيرة يستحيل لمها ثانية؟.. أنت واهم أنا رجل لم أعتد الجلوس عند أفخاذ النساء ولا الوقوف عند أقدامهن أتوسل كقاطع طريق أن أحظى بعفو من ولي الأمر.. عندما تتركني مشتعلا أنظر إلى ضجري الذي استقر على رمل البحيرة وأنا أقف في ثقب ضيق من الوجود.. أعزف ترنيمة الخوف وحدي حين قابلتها ظننت أن العالم قد بات أجمل ولم يعد هناك شيء يؤرق وجودي فيه.. ليلتها انسكب النور برفق في شراييني.. لماذا انسحبت فجأة وتركت السقف ينهار فوق رأسي.. هل بلغ بي السوء إلى هذه الدرجة كما تظن شروق.. حين دق جرس الهاتف كنت متأكدا أنها هي شروق عادت إلى رشدها وشعرت بالقلق علي.. إنها تطلبني الآن كان جرس الهاتف يطربني حتى مد صالح النويهى يده المرتعشة ورفع السماعة ونطق.. كان بطيئا لدرجة أنني شعرت أن العالم سينهار الآن.. نظر ناحيتي:

- فرحة تريدك.. هي على الهاتف

انتفضت الظلمة في شراييني وانطلقت كل الحيوانات المنحطة في دمي كانت صرخات مكتومة.. وسماوات واسعة مليئة بالظلمة تفتك بي أفكار ذات أنياب ومخالب.. ماذا عساها تريد فرحة مني الآن أنا رجل ضائع في فضاء مخيف يسحبون روحه منه نثيرات.. كم يبلغ الألم برجل مثلي حين يحط بكل ثقله ويرتجف والبرودة تفتك بروحه الذاهبة.. الشرايين تمتلئ بدم ملوث مثل

الأفكار التي تطن الآن في رأسي المحاط بكفي شيطان متقاعد ينفث فيها خلاصة تجاربه مع الأفاقين من الزعماء الذين ملؤوا رؤوس الناس أحلاما تتدلى ألسنتها من العطش.. أحلام كتلك التي قتلت علاء متزوعة الريش ليس لها جناحان لتطير بهما في الهواء.. أي شيطان برأس صلعاء فكر بتلك الطريقة.. إذا جلست هكذا ستلتهمني الهواجس حتما ولن يبقى مني سوى بقايا رجل صدئ.. هل تذكر ذلك الرجل ذا الرائحة الكريهة الذي مد خرطومه إليك ذات يوم وأنت جالس في شرفة بيت جدك وأخبرك برغبة الحكومة في أخذ بيت جدك وضحكت يومها وظننته يهذي ساعتها.. لكن ملامحه الجادة لم تفارقه وأمرت له بكوب من الشاي وجلست تداعبه كطفل مدلل وأنت تذكر له كيف أن جدك وجد مصاعب كثيرة في بناء البيت وأنه هو صاحب البيت وليس الحكومة التي لا يعرفها ولم يقابلها يوما ما وقلت له يومها: هل قرأت يوما أن حكومتنا تعطي بيوتا للناس.. الرجل أسقط في يده لكنه أخرج ورقة كانت مطوية في يده ولم ألحظها ووضعها في يدي قال إنها عبارة عن إنذار من إدارة الحي بالكيمان بإخلاء البيت وتسليمه لا أعرف كيف انتابتني نوبة من الضحك تبدلت ملامح الرجل وحاول مشاركتي في ضحك بلا مغزى.. وحين قرأت ولاء الورقة ذهبت على الفور إلى والدها كامل الجوهري ويومها عادت من عنده بملامح مقلقة.. راودني إحساس قاتل أن أسألها عما سمعت لكنني رفضت أن أخضع لابتزاز الحكومة هكذا تريدنا الحكومة دائما تتصورنا أطفالا ربما حاولت أن تستفزنا لكننا أبدا سنصمد ولن نتحرك.. طوال اليوم ظلت ولاء تتحرك في البيت بارتباك.. كنت أشعر بها كانت تريد أن تقول شيئا لكنني أبدا لم أدعها تقوله ولم أعطه الفرصة لذلك حتى حين حاولت أمي أن تفهم ما دار لكنني تحركت بسرعة في المسافة الفارغة ورميت بسهم خائب حيث لم تفلح

محاولاتي في تغيير الموضوع ولفت انتباه أمي إلى ضرورة بناء الجزء الذي تهدم.. حان الوقت كي نفعل ذلك الآن.. كان ذلك الشيطان المارق الذي هبط على رأسي في تلك الليلة هو نفسه ذلك الشيطان الذي انتزع الرصاصات النحاسية من خزينة البندقية الآلي التي كانت في حوزة أبي النقيب على الباسل حين هم كي يواجه أعداءه ولم يجد الرصاصات.. ظل يصرخ: أين الرصاصات أين الرصاصات؟ لم تفلح الصحراء الشاسعة في أن تلتهم صراخه.. كان أعداؤه يقتربون والبندقية الفارغة مصوبة تجاههم كانوا يضحكون ويتبادلون النكات البذيئة.. تخلى عن بندقيته وأخذ يرشقهم بالحجارة الحجر تلو الحجر.. كان يتمنى ساعتها أن لو كان حجرا هائلا ويتدحرج بقوة من أعلى الجبل على أعدائه.. حين كبلوه ومضوا به إلى الأسر كان مذعورا لم يصدق.. همس بكلمات مجنونة لم تسمعها سوى صحراء الأسر وليل بغيض يمر ببطء كأنه قطار البضائع.. ملل وسأم وجروح لا تلتئم حتى تتفتح جروح أكبر وأوسع.. في ليل الأسر لن تبكي ولن تتوجع ولكن بداخلك صراخ مكتوم صراخ بحجم السماوات والأرض وجرح لن يلتئم أبدا حتى ولو أعادوك إلى وطنك ربما لا تقوى على حمل شيء بعد الآن.. حتى حينما لم يرق قلبهم له وتركوه ينزل إلى قبره الذي حفره بيده والبنادق مصوبة على رأسه.. مرغما هبط إلى القبر حياً وهم يهيلون التراب على جسده المثقوب بالجراح.. هل تعرف ما آخر ما نطق به أيها العجوز الثمل؟ آخر ما ذكره أبي حين دفنوه حيا كان اسمي.. سراج قال سراج.. سراج هو أنا قالها ولم ينطق بعدها مضى إلى الصمت.. ترك أوجاعه لنا ورحل بريئا مما حدث له.. قالوا إن القائد الذي فعل هذا بجنوده حين أرسلهم إلى الجحيم وظل هو جالسا عند قدم امرأته قالوا إن حكيم انتحر في بيت ناصر حين أطلق الرصاص على نفسه من مسدسه.. أتعرف؟ أبي كان يثق

بقادته جدا كان يحدث أمي عن رغبة الجنود في النضال كانوا يجيدون الحديث الملتهب الذي يشعل القلوب الفارغة يصمت أبي قليلا وتفهم أمي أنه لا يريد أن يشي بأسرار عسكرية.. كان أبي مسكينا لا يعرف أن ما يتصوره أسرارا عسكرية كان قادته يتندرون به أمام النساء العاهرات في جلسات الاسترخاء واللذة.. كانوا يلقون في حجورهن كل شيء حتى لم يعد شيء يقال.. هكذا كان أبي يحسن الظن بقادته.. في الأيام الأخيرة ذكرت أمي لي أن أبي كان يصمت كثيرا ربما أحس بأمر ما.. كأن على شفتيه جبالا من الصمت.. كان حزينا تخلى عن مرحه الدائم ربما كان يتصور مثل كل زملائه أنهم سيدخلون نزهة عسكرية وليست حربا حتى حين قامت بعدما أعلن عبد الناصر إغلاق المضايق شعرت بالقلق لكنه كرجل عسكري صلب ظل شجاعا رغم ما كان يخفيه وكانت أمي تعلمه وحين قذفت في وجهه ذات يوم السؤال الذي كان يتحاشاه:

- هل أنتم جاهزون للحرب؟

ربما تصورت أمي أنه ظل للحظات لا يجيب واندفع مرة واحدة ووضع قبلة بين عينيها وسأل عني وكنت نائما في سريري طلب من أمي أن توقظني وأمسك بكفي الصغير وقبله .... مسح شعري بكفه وضمني إلى صدره ومضى إلى الجبهة في خطوات عسكرية منتظمة وأمي تتابع سيره من خلف الشيش.. كانت أمي تحكي لي أنها شاهدت في عينيه مساحة من القلق.. كانت تشعر أنه يريد أن يقول لها شيئا حتى حين أرادت أن تسير معه إلى باب الحديقة رفض.. حدق فينا كثيرا بعينين واسعتين ومضى.. هل يمكنني أن أفعل مثلما فعلت سماح؟ أن أرحل إلى بلاد باردة وإلى أناس لا أعرفهم أتلمس هناك الأمان.. أترك أمي وبيت جدي وأرحل؟ ربما كانت سماح لديها الحق أن تغادر لكن ليست كل الطيور بمقدورها أن تترك أعشاشها وتهاجر إلى البعيد.. سماح

تركت أباها يحتفي بماضيه مع محمد نجيب وبين تلك الصور وذلك الماضي يضيع الحاضر الجالس على أربعة حوافر ويرقد أمامنا.. هو لا يريد أن يصدق أن محمد نجيب سيقضي بقية حياته في بيت المرج حبيسا ولن يعود أبدا إلى النور.. حاول أن يزوره لكن السلطات رفضت عزلوه عن كل شيء في آخر أيامه.. كان الناس قد تعلقوا به وأصبح حجرا يجب إزاحته من الطريق.. سماح أدركت ذلك وحين أردت أن أقترب منها ابتعدت هي عني وسافرت.. هل تكون عادت؟ لماذا لم أسأل عنها طوال هذا الزمن؟ حين أعود أول شيء أفعله أن أسأل عن سماح.. ترى ما الذي حدث لها هل تزوجت هناك أم بقيت على تعلقها بـ علاء؟ لعنت الشيطان الذي تحرك داخلي يومها وحاول إقناعي أن آخذ مكان علاء.. أتذكر نفسي يومها كنت ككلب يلهث يتدلى لسانه ويسيل لعابه ولا أعرف بعد مرور هذه السنوات الطويلة ما الذي دفعني أن أفعل ذلك؟ أن أنغمس عن آخري في الوحل وأجلس كصائد الفرائس أتعلق بالصبر بين عيدان الذرة الصماء أصوب بندقيتي تجاه فريسة تتأرجح في الهواء أتحرك كخفاش أكتم أنفاسي كصائد محترف وأبتلع ريقي دون أن تهتز البندقية التي في يدي أضغط بكلتا يدي على دبشك البندقية وأضع عيني على النيشان وأضغط بكتفي على مؤخرة البندقية حتى لا تتحرك عندما يندفع المقذوف داخل الماسورة ويمتص الصدمة دون أن يضيع النيشان هكذا كانت أمي تردد عبارات جدي وهو يحكي لها عن قدرته على التصويب.. رائحة البارود لا تغادر أنفي منذ كنت صغيرا وأنا أشمها حين كان جدي يطارد الثعالب القذرة التي كانت تقترب من بيتنا.. رائحة البارود كانت تملأ أنفي أشعر بها الآن في فمي كأنني أبتلعها.. الثعالب تعرف جدي.. كانت لا تقترب من بيتنا إلا إذا استبد بها الجوع في ليالي الشتاء حين يقل الصيد.. كانت نائمة تحلم أن تظفر بشيء من

جدي لكنها أبدا لم تفلح.. كان جدي يجيد التعامل معها.. كان يردد دائما: الثعالب مخلوقات قذرة منحطة لا يفلح معها غير القتل نفوسها دنيئة لن ترتقي أبدا لتصبح كائنات ذات قيمة.. النفوس الدنيئة ستظل كذلك لا ترتجف وأنت تتعامل معها هي تحاول خداعك بشتى الطرق.. يجب أن أكون يقظا.. الثعالب تحمل تحت جلدها الخيانة والجبن.. صفتان قذرتان يجب على بقية الكائنات أن تحرص على ألا تصيبها واحدة منهما.. الثعالب لن يصلحها غير تلك الرصاصات الموجودة في خزينة البندقية.. قلبها الممتلئ بالدم الملوث لن يدعها تفعل شيئا ذا قيمة.. خلقت لتكون هكذا كائنات رديئة منحطة ربما تظن بنفسها ذكاء لكنه ذكاء الشياطين ذكاء الخديعة والخيانة.. إنها تحرك ذيولها ربما لتمنحك شيئا من الطمأنية ولكنها سرعان ما تنقض عليك متى حانت الفرصة لها.. قرأت الأوراق التى فى صندوق حسين حرب وعرفت منها الكثير عن جدى.... جدي كان على ما أظن يشبه الحكماء.. ربما أتى بهذه الحكمة من تجاربه العديدة.. كان رجلا ملهما يتكلم في بعض الأحيان تظنه صوفيا تتكشف له الحقائق ويرى الأشياء في جوهرها.. كانت حقيبته التي حملتها معي ورفعناها من سرداب صالح النويهى تحتاج إلى من يجيد فتحها..قلت أحملها معي إلى بيت فرحة وقلت ماذا كانت تريد فرحة مني .. قالت: هناك مخاطر تنتظرني ويجب أن أحترس..؟ هل تتحدث عن شروق؟ هل لجأت إليها؟ هل حكت لها ما قالته لي؟.. عن أية مخاطر تتحدث ؟!ربما ذكرت حقيبة جدي التي أحملها فوق كتفي حملا ثقيلا؟لماذا قالت يجب أن أحتاط وأنها سترسل من يأخذها منى...هى لا تعرف أننى متلهف كى أعود إلى أمي متهللا فرحا أزف لها البشرى وأقول لها إنني وجدت أوراق البيت وإنه سيعود لنا؟!! ترى هل لجان المصادرة تهتم بالأوراق أم لن تعيرها اهتماما.. الثورة وجهت تهم الفساد إلى

كل السياسيين وقدمتهم إلى محكمة الثورة بتهم فساد ومنهم الباشا فؤاد سراج الدين ومنهم جدي ولكن جدي لم يكن يمتلك سوى هذا البيت.. كيف حال أمي الآن بعيدا عن البيت؟ وهى تجلس وحيدة في شقة صغيرة استأجرتها.. بعد أن رفضتُ أن تنتقل أمى مع ولاء إلى شقة والدها كامل الجوهري ولم تكن تعرف السبب.. سينصلح حالنا يا أمي لا تخافي.. أعرف أن شروق ستفرح كثيرا عندما تعرف أننا عثرنا على حقيبة جدي التي بها كل شيء.. لقد اقتربت من النهاية وقليلا سينقشع ذلك الغبار الذي ملأ الأفق وحجب الرؤية عن عيوننا.. ربما ترق شروق لحالي.. سأقول لها لن نحتاج إلى أن تضعي نظارتك مرة ثانية على عينين تبزغان كنور الشمس تبرقان بذلك الوهج العجيب الذي يأخذ نفسي إلى ليل هادئ وسماء تملؤها النجوم.. لماذا تنزعجين من رجل يتهاوى يسقط في فراغ أبدي يمزقه سكين عريض.. الأزهار البريئة تنمو وسط الضجيج.. هي لا تحفل به.. تمنح رائحتها العطرة لكل الكائنات دون أن تفرق بين خير وشرير لا يعكر صفوها نباح الكلاب النجسة وعواء الثعالب المنحطة ألوانها الزاهية تملأ العيون المتعطشة للفرح والجمال.. الجمال الذي يمرح داخلنا كطفل مدلل يمنحنا السكينة والهدوء حين لا نجد لوجودنا معنى على الإطلاق.. ما أبشع كلمات الفلاسفة التي تتحدث عن عدمية الوجود وعن ذلك العبث الذي يحيط بنا..لم تقع عيون هؤلاء على زهرة يانعة تشب وسط ركام الفضلات وذلك السحر الذي يكمن في أرواحنا ويرفعنا إلى أعلى من الوسخ ومن العفن الذي يحيط أجسادنا فيلوثها ويتعلق بها الباعوض والكائنات الدقيقة تنهش فينا دون أن ندري حتى نسقط طوعا.. العينان اللتان برقتا فجأة في حديقة بيت جدي لم تكن هذه هي أول مرة أرى فيها ولاء، كنت أتابع تلك الفتاة إلى تمر من أمام شارعنا بدلال أنثوي.. وجسدها يتمايل مع خطواتها

البطيئة ترتدي جيب أزرق وبلوزة بيضاء وتحتضن حقيبة الكتب.. كانت كلما مرت أمام بيتنا أحس بها تقف لحظات.. لحظات لا تحس وهي تحاول أن تخفي تلك الوقفة حين تتذرع بشيء قد حدث أعاق سيرها.. الحيوان الأليف الذي يرقد داخلي ويتحرك على راحته لا يدعني أخرج من جبني دقيقة واحدة.. أتمزق من الخوف.. وأنا أرقد في فضاء عينيها اللتين تضحكان بمكر وتذوبان جمودي يتوجع كياني كله وأنا أرقبها تسير في خطى بليدة تحت شجرة الصنوبر التي تقف وحيدة مثلي تتجرع كأس الكونياك لتهزم البرد الذي يهاجمها.. لماذا تحذرنى فرحة الآن من القدوم الى قصر رشوان.. ربما عرفت ما اتهمتنى به شروق ..كانت فرحة خائفة مرتجفة وهى تحادثنى فى الهاتف قالت: ليس بوسعها أن تبوح لى بكل شيء ..... فرحة مثلي تجلس وحيدة بعد أن رحل سعيد عقرب فجأة وتركها وأمامها أقداح البهجة فارغة.. سمعتها تتحدث عن رجال ينتظرونني هناك فى قصر رشوان ترى من هؤلاء الرجال الذين تتحدث عنهم أم أنها ربما تكون قد صدقت ذلك الهذيان الذى تحدثت عنه شروق ؟ حسنا أنا أتقبل الخديعة وسآتي حالا.. هل تدرين ماذا أحمل معي؟ ستكون مفاجأة.. إنها حقيبة جدي حملتها من سرداب النويهى تحتاج من يفتحها بمهارة حتى لا يفسد ما بداخلها هكذا نصحني العجوز وأشار أن أحملها إلى قصر رشوان وهناك سأجد من يفتحها لي.. سوف ينكشف كل شيء كنا نريده..انطفأت تلك اللهفة التي تشبه حيوانا مفترسا يلتهمني.. حيوان جائع يفتح فمه أرى على أنيابه بقايا لحم فريسته لم يزل عالقا بها منبها إلى نهايتي التي أنتظرها.. الجوع يعصر أمعاءها تعافيت من الجبن الذي ولد معي وقررت أن أذهب إليك يا فرحة.. لن أقول لك كلاما كثيرا عن ترددي وجبني سأتحدث عن تلك البهجة التي وجدتها في عينيك فجأة تلك البهجة التي تشبه خجلي

الـذي أصـبحت أضـيق بـه ولا يجعلني أنطـق الكلمـات التي أريـدها وتتردد في نفسي التي تشبه غرفة فارغة من الأثاث.. يتردد بها صدى الصـوت أشـعر بوحـدتي.. أنـا أحـاول الآن أن أنتزع رأس الشـيطان الذي يتلوى داخلي كأفعى.. يمر كسكير يترنح في شارع مكتظ بالمارة سـوف أصـرعه كحشـرة حقيرة وأدهسـه بحـذائي وأمـر فـوق جسـده مزهـوا بانتصـاري.. هل يمكنني أن أرى ضحكتك التي تشبه الطيور العائدة إلى أعشاشها تلك الضحكة التي هجرت شـفتيك منـذ أن رحـل سـعيد عـن بيتك.. لـم يسـقط المطر منـذ رحيلـه ليغسـلنا مـن أوسـاخنا.. أيـن المطر الـذي كنـا نـأنس لـه ونحـن صـغار نفـرح حـين يهطل ونجري في الشـارع أمام بيت جدي في الكيمان؟ لماذا لم نعد صـغارا؟ هـل بوسـعنا أن نعـود.. أن نرجـع سـنوات بعيـدة إلى الـوراء نحلق كطيور بريئة نتوقف دقائق تحت شجرة الصنوبر نلهث تحتها من التعب وعلى ملابسنا نرى أثر البلل.. الهواء الذي يأتي بعد المطر له رائحة طازجة لا تخطؤه الأنف رائحة مشاعرنا التي نبت لها ريش ربما كنا نظنها سـتطير بنـا إلى السـماء حيث نـرى منـابع هـذا المطر ومن أين يجيء.. ربما يحمله إلينا ملك طيب ذو أجنحة عريضة.. هل تظنني أنني سـأقع فريسـة التأويـل حـين أقـف أمـام لوحـات شـروق أقـف كأحـد النقـاد أتفوه بكلام لا أعنيـه.. حين أقـف أمـام لوحتهـا تتفـتح داخلي مرئيـات.. أعـيش حالـة مـن الفـرح والبهجـة مـع تـدرج ألوانها من الأحمـر إلى الزهـري والأبيض والأخضـر تنسـاب الـروح في حركة خفيفة.. أسترجع شكل الأجنحة التي تستعد للتحليق في بيت جـدي يمتزج اللـون بـالمعني وينفـتح أفـق أكبر للمعرفـة والولـوج إلى عـالم شـروق الزاهي حيث يشـرق البرتقـال المخضـب بـالأزرق الـذي يذوب في فضاء اللوحة ويتركني على حافة الانتظار والتشـوف أتأمل رغبتي في الإقلاع من سـكوني يأخـذني الأسـود الـذي ينتشـر في نفسي مثل فقـاقيع سـرعان مـا تنفجـر محدثة دويـا في المكان تنزف روحي

يتلوى القلق داخلي كأفعى تتحرك على جمرة الشك تفوح رائحة الأحمر الذي يحاول اللحاق بغيمة رمادية تنزلق قدمي إلى الفراغ.. فراغ مثل الذي رأيته في عين شروق حين أوقفتني كتلميذ بليد وجهه للحائط ويداه مصلوبتان في الهواء.. وهى ترمينى بالخيانة.. ها أنا أتقيأ أحلامي المشوهة الملفوفة بأسلاك شائكة تشبه معتقل جدي البعيد الموحش.. قال إنه تعذب هناك وألقوه للكلاب كي تنهش جسده لتستخرج منه "أفكاره النجسة".. المدهش أن جدي قال ولا أعرف إن كان يقصد أن المعتقل في عهد الملك فاروق كان أقل قسوة منه في عهد الثورة؟! هل كان جدي لا يحب الثورة ربما كان يكره زعيمها الذي حشوا رؤوسنا ونحن صغار في المدرسة حكايات عن بطولاته وإنجازاته؟ لم أصدق أن هذا الرجل هو الذي عذب جدي وألقاه في المعتقل؟ هل صنع هذا الرجل معتقلات حقا أم كان جدي يهذي.. يقول كلاما غير مفهوم؟! أمي رفعت صوره من البيت.. الصور التي كان أبي النقيب علي الباسل يضعها في كل مكان كان أبي كما حكت لي أمي يحب ناصر.. وبعد أن أسر في حرب حزيران رفعت أمي كل صور عبدالناصر من بيت جدي لم تمزقها كما ظننت لكنني رأيتها في البدروم ربما كانت تخشى أن يعود أبي فجأة من الأسر ويسأل عنها.. آخر شيء يمكن للمرء أن يتصوره أن يقع في قبضة الأسر.. لديك تلك الخطوط التي تصنعها فرشاتك وأنت تضعين نمنمات بنية على أطراف وجهي وتصعدين في التفكيك إلى اكتماله لتصنعي رجلا يصارع لحظاته الأخيرة ويفر إلى سماء بيضاء فارغة من النجوم بنظراته.. سماء بها بعض غيمات.. لا تعبأ كثيرا بالتأويل أو حركة الدادائية.. يمتص الأزرق نزيف الأحمر في نهاية اللوحة وينذر بصراع أبدي ومشهد تخيلي.. لم أجد في اللوحة صخورا ولا أطفالا ولا متصوفة يرقدون على بطونهم من الجوع حيث أرض يوليو الحارقة.. لم أر جنودا عائدين يحملون

هزائمهم على أكتافهم ويرفلون في التعاسة لأنهم آخر من نجا من الحرب والموت الذي حاصرهم على شكل نصف دائرة وترك لهم فرصة الفرار من دون أسلحة.. يشبهون إلى حد كبير منظر العمال في لوحة ريبن حين شاهد العمال وهم يجرون سفينة على نهر الفولجا ثلاثة رجال يكدحون على امتداد ضفة نهر منحدرة وهم مقيدون بحبال السحب والإجهاد والتعب باديان على الرجال الكادحين المتحركين داخل اللوحة ببطء ورسم ريبن على وجههم التعاسة وهم يسحبون السفينة في مشهد أبدي متكرر لا نهائي.. الشعلة التي أطفأها أبي بموته جعلت أمي تسأل كل العائدين من الحرب عن وصيته.. كانت تصدق ببراءة الزوجة كل ما ردده مذيع النشرة الإخبارية في الراديو عن انتصاراتنا على العدو وعدد الطائرات التي أسقطناها في بداية الحرب.. كلما أتى بيان دق قلبها فرحا لأنها كما كانت تظن حرب سهلة وسيعود زوجها فور الانتهاء من تلك النزهة .. كانت تنتظر البيان العسكري الختامي الذي سيتحدث بالضرورة عن موعد عودة الجنود والضباط من الخطوط الأمامية للقتال.. البيانات التي لم يكن يصدقها جدي أبدا رغم رباطة جأش المذيع وقوة نبرات صوته التي توحي بالجدية والفرحة التي تطل من حنجرته ربما كان هو الآخر يصدق ما يقرأ.. كانت المسكينة لا تصدق حتى خرج الزعيم وأعلن التنحي وسمعته بأذنها ولم تصدق أن زوجها هزم وراحت تنظر إلى كل وجه قادم من أول الشارع وترجو أن يكون هو... رجل يرتدي البذلة العسكرية ويضع ثلاث نجمات على كتفيه.. ظلت هكذا حتى أتى رجال الصليب الأحمر وحملوا لها أول رسالة منه.. شروق كوني كما تصورتك في حلمي القديم لا تتركي رجلا يموت الآن وينسحب من الحياة كخريف يعتصر لا شيء يصحبني الآن غير القلق والوحدة.. فشلت في أن أزرع وردة على قبر جدي الذي لا أعرفه دوت في خلاياي الأعاصير

الترابية ملأت ثقوب نفسي.. أنا أحبك يا شروق خصلة شعرك نظارتك فرشاتك... تكلفت كثيرا في أن أقنع أمي أن الذي ذهب لن يعود وأنه لن يطرق بابنا أبدا.. قطرات الدماء القديمة التي سقطت على أفرولة الميري لن تجف سيظهر طيفها على الدوام حتى والدك سيد خاطر الفلسفة أخذت عقله قبل الشراب الذي يحتسيه فر بهزائمه إلى المنفى رقد كقنفذ سعل من الدخان الذي يملأ رئتيه.. متى أستطيع أن أفر من هزائمي المتلاحقة؟ أدفع السور الذي يحيطني بكلتا يدي وأفر حيث الشمس تسطع في الخارج منذ أن حملوني إلى هنا يا شروق وأنا أردد آهة موجعة تخرج من صدري تملأ ساحة السجن الواسعة.. السجناء يعرفون السجناء لا حيلة لهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئا.. انظري نحن ننتظر الحراس حين نسمع صليل السلاسل ننهض للخروج إلى الطعام الحجرة هنا ضيقة والهواء المنعش لا يدخل من فتحة الحائط الضيقة نرقد ككائنات مهملة تمر من فوقنا الحشرات تمرح كأنها لا تعلم أنها داخل الزنازين نتابعها حتى تخرج من تحت الباب الحديدي وحينها نعرف الفرق الذي بيننا وبينها.. أنها حرة لا تراقبها الحراس.. سلموني ثوبا أزرق وفردتي حذاء وألقوني في هذه الحجرة المظلمة التي تشبه القفص أقضي أغلب الوقت في النوم.. وأكرر أحلامي المفزعة في الليل وأقاوم الموت بشراسة كل مرة أنجو بأعجوبة من بين مخالبه.. الذي يفصلني عن الموت ذلك الحائط لو أنهم نقضوه لسقطت عن آخري في آثامي.. لا نوافذ ينبعث منها الضوء إلى داخل نفسي أرقد كحيوان نافق لا أسمع هنا غير وقع أقدام الحراس وصليل السلاسل.. هل يمكنني هنا إذا سألوني أن أعترف بآثامي؟ لماذا منذ أن جلبوني إلى هنا لا يسألني أحد عن شيء.. أتذكر.. كنت في الطريق إلى بيت سعيد عقرب وهناك قبضوا علي وحملوني إلى هنا داخل سيارة مصفحة سوداء مكثت بلا طعام يومين ثم

أدخلوني بين يدي محقق رائحته كريهة لبثت لديه قرابة الساعة كان يملي أقوالا على لساني لرجل يجلس قبالة منضدة صغيرة وأمامه حزمة أوراق وبيده قلم ولا يرفع رأسه قط.. المحقق ينظر تارة إلى وجهي الشاحب ويلقي أسئلته ثم يرد دون أن يعبأ بي ثم استدعى حارسا وأشار له بيده.. حملني ورحلنا إلى بهو طويل ثم انطلق بي إلى رجل سمين سلمني إليه وبعدها وجدت نفسي هنا لا أعرف كم من الوقت مضي الآن.. لاحظت بقعة من دماء قديمة على الحائط الأيمن ربما كانت لمعتقل قبلي وحين هممت أن أقف لم أستطع.. كان جسدي يتمزق.. هل ضربوني بالسياط؟ ربما أجد آثار خطوط زرقاء على يدي وقدمي وألم لا أطيقه في معدتي ربما يتخلصون مني قريبا.. أنا رجل تافه قضى حياته بلا معنى لن يجدوا في تاريخي شيئا ذا قيمة ما الذي يدعوهم إلى اعتقالي دون مبرر وأين حقيبة جدي التي أخذتها من صالح النويهى كنت في طريقي إلى بيت سعيد عقرب أحاول أن أتذكر جيدا ما حدث.. كنت في طريقي وفجأة ظهر لي قط بعينين بارزتين تلمعان في ظلام دامس كان القط ممسكا بقطعة لحم وبقايا عظام نظر ناحيتي وبادرني بنظرة شريرة ليحمي نفسه ربما تصورني أتطفل على مائدته.. أتذكر الآن.. كنت في طريقي إلى بيت سعيد حين هاجمني رجال مسلحون وحملوني معهم.. فرحة أين أنت الآن هل أصابك مكروه كان وجع معدتي قد اشتد لم أستطع تحمل الألم.. صرخت صرخات مدوية سمعت هرولة الحراس نحو زنزانتي ركضوا بقوة وفتحوا الباب وحملوني.. لم أفق إلا وأنا في مستشفى السجن وضعوني على سرير وطبيب يتحسس معدتي وينصح بعمل أشعة فورا نقلوني إلى حجرة الأشعة حيث أنزلوني تحت الجهاز وعندما انتهوا من فحصي نصح الطبيب أن أبقى هنا يومين تحت الملاحظة.. يبدو أنه أمر خطير.. حين حاولت أن أسأل صمتوا في وجهي.. تذكرت أنني معتقل.. غبت

عن الوعي قليلا وحين أفقت كان الوقت متأخرا.. .في الصباح كانت المفاجأة حين وجدت حسين حرب أمامي فرحت لأنه زارني.. لكن سألته عن الطريقة التي جاء بها إلى هنا.. وكيف حال أمي إن كان مر عليها وهو في طريقه إلي؟ قلت كيف حال شروق؟ هل رآها؟ هل رأى فرحة؟ لم ألحظ أنه لا يجيب عن أسئلتي.. كان صامتا.. ولم ألحظ أنه يرتدي نفس البدلة الزرقاء التي أرتديها..كان شاحبا هزيلا تنزف من جسده المشوه رائحة الموت القلقة تلاشت جميع الفواصل و دخلت في حضنه وبكيت.

8

فى سرادق السياسة القتلة يسيرون جنبا الى جنب مع الضحايا

لا أعرف ما الذي جر قدمي إلى شارعنا القديم حيث بيت جدي الذي تركناه واستولت عليه الحكومة.. كان الوقت متأخرا وأنا أسير بمفردي حتى تأملته يقف وحيدا كأنه يبكي تلك الوحدة منذ أن تركناه.. الحارس الذي يجلس أمامه على أريكة خشبية ويغفو طوال الوقت لم ينتبه بعد لوجودي.. كانت سلسلة الحديد الضخمة التي وضعوها على الباب لمنع الناس من الدخول... قطعا لن تمنعني.. تذكرت على الفور الجانب الذي وقع من سور حديقة البيت سرت إليه ووجدته كما هو دخلت إلى الحديقة كانت مليئة بالأتربة والقمامة وبقايا صفائح أطعمة.. لا أعرف كيف أصابني منظر رؤوس الأشجار المقطوعة بالإرهاق والحزن وكأنني سائر في جنازة تشبه جنازة عبد الناصر الذي رحل في هدوء بينما ترك كل الأسئلة الصعبة على الشفاه رغم السجون والمعتقلات حلمنا معه بالحرية والنصر.. الرجل الذي رد كرامة المصريين ورفع من شأن العمال وأعاد للصناعة المصرية كرامتها يرحل الآن دون أن يترك لعائلته مالا ولا سلطة.. تركهم في شقة صغيرة.. لم يكن يعرف أن الرجل الذي سيأتي بعده سيرفع صوره من قلوب الناس وسيأمر كتاب التاريخ أن يمزقوا صحف عبد الناصر.. لعن الله السياسة تهلك الناس بتفاصيلها دون أن يجنوا شيئا من جنتها.. القتلة يسيرون جنبا إلى جنب مع الضحايا الكل في سرادق السياسة سواء.. لم أحب عبد الناصر مثلما أحبته سماح رغم ما فعله بأبيها

وقائده محمد نجيب إلا أنها كانت تتشاجر مع أبيها إن هو اقترب من سيرته حتى عندما اعتقلوها واعتقلوا علاء كانت تهتف بحياة عبد الناصر.. المصريون طيبون إلى درجة أنهم لا يصدقون أن الحاكم الذي يحبونه يعلم شيئا عما يحدث.. كان الجميع لا يصدق أن ناصر يعرف شيئا عما يفعل زبانيته في المعتقلات.. المصري أحيانا يبدو ساذجا إذا أحب.. رغم فراسته المعهودة لم تكن سماح بمفردها بل كان حسين حرب هو الآخر يصدق ذلك.. الوحيد الذي كان يكره عبد الناصر هو حسين قاسم عندما تقابلنا صدفة بعد خروجي من بيت جدي كان عائدا من صلاة الفجر ورآني وقف واتجه نحوي ببشاشة.. عرفته.. جارنا الإخواني.. كنت منهارا أبكي على ما آل إليه بيت جدي ضمني إلى صدره وأصر أن يدخلني بيته.. مر وقت طويل دون حديث بيننا كان يريد أن يقول شيئا لكنه بدا مترددا.. وضع صينية الشاي بيننا قرأ البسملة وأخذ رشفة من الكوب عرفت من كلامه القليل أنه علم باعتقالي وبدا غير مندهش.. هكذا قال.. الأمور في البلد يجب أن تصحح ثم نظر ناحيتي: "وأحمد الله أنك لم تكن معنا في المعتقل".. صمت بعض الوقت.. وقال: كنت في نزهة وليس معتقلا.. الإخوان المسلمون تعرضوا للكثير في معتقلات ناصر.. أكمل وهو يبتسم:

-لم أصدق حين سمعت أن هناك من الإخوان من خرج على آراء الشيخ

البنا حتى سمعت عن الشيخ علي عبده إسماعيل الذي التف حوله شباب

كثير ممن دخل السجن في اعتقالات 1965الشهيرة وكان أخوه قد

عرفناه وهو الشيخ عبد الفتاح إسماعيل أحد الستة الذين أعدمهم

ناصر مع الشيخ سيد قطب.

أخذ يشرح لي حسين قاسم كيف أنهم في المعتقل تعرضوا لأذى كثير مما دعا الشيخ علي إسماعيل إلى أن يقول بتكفير المجتمع وقد أعجب بآرائه فئة كثيرة من شباب الإخوان والتفوا حوله حتى أن محاولات المستشار حسن الهضيبي الذى تولى مقعد المرشد.. في إثناء هؤلاء عن أفكارهم عندما كان يرسل رسائله إلى الإخوان فى السجن تحت عنوان (نحن دعاة لا قضاة) لم تفلح كثيرا.. بدا حسين قاسم مستاءً وهو يقول إنه لا يعرف كيف تراجع فجأة الشيخ علي إسماعيل عن آرائه تلك بعد أن بلغت ما بلغت، وأعلن الرجل داخل المعتقل تراجعه عنها.. كان مشهدا غريبا لم أفهمه هكذا أمسك حسين قاسم عن الكلام وكأنه رحل إلى مكان بعيد عن تلك الجدران التي نجلس بينها الآن حتى دخل ابنه طارق الذى كبر قليلا كان يحمل طبقا به تمر نظر ناحيتي واقترب مني حاملا الطبق إلي.. أدخلته فى حضنى..

- طارق أهلا...هل تتذكرنى؟

- نعم أنت جارنا القديم الاستاذ سراج.. لماذا تركت بيتك ورحلت؟

- سأعود يا طارق حتما سنعود إليه ؟

- كان بيتك أجمل بيت هنا فى شارعنا والآن....

حين هم بالانصراف سألته:

- أنت في المدرسة؟

- في الصف الرابع الابتدائي؟

ثم عاد واقترب مني حتى وقف بين يدي صمت بعض الوقت حتى رأيت عينيه تغرقان في الدموع:

- ما بك يا طارق؟

- لا أريد أن أترك بيتى مثلك إننى أحبه ؟

- ولماذا تتركه؟

- أبي قال لي إننا سنرحل عن هنا وسنترك البيت سيصبح مثل بيتك

ومدرستى وأصحابي. قال إنني لن أعود إلى المدرسة أبدا. أرجوك قل

له إنني أريد أن أعود إلى المدرسة غدا.. أمي هي الأخرى تبكي..

قالت لي إننا سنصبح غرباء عندما سنرحل عن هنا.

نهره حسين قاسم وحمله بين ذراعيه إلى الداخل.. كان طارق منهارا وهو يقاوم زراعى أبيه القويين ...لم أفهم.. وحين عاد حسين قلت:

- هل سترحلون عن هنا؟! الولد منهار هل ستعود إلى البلد؟

رماني بنظرة جامدة وشرد قليلا وحين عاد نظر ناحيتي أمسك كتفي الأيمن وقال:

- أنا أريد لك الخير يا سراج يجب أن تكون معنا..لديك حماس وقوة

يجب أن تنضم إلينا.

- أكون من الإخوان؟

- لا.. تكون في جماعة المسلمين؟

كنت مندهشا ماذا يقصد.. لم أحاول سؤاله عن شيء لكنه بدا مترددا ثم عاد لنشاطه وكأنه كان يفكر في أمر ما:

-قابلت شابا في السجن اسمه شكري أحمد مصطفى أفكاره تلقاها من

شيخه الذي حدثتك عنه منذ قليل الشيخ علي إسماعيل لا تعجبه آراء الشيخ البنا يراها لا تصلح الآن لكي تقود الجماعة.

كان معجبا بهذا الرجل وفهمت منه أنه بايعه عندما أعلن شكري مصطفى أنه انشق عن جماعة الإخوان المسلمين وأصبح أميرا لجماعة المسلمين وأنه يأخذ البيعة لنفسه.. قال حسين قاسم لي إنه بايعه أميرا لجماعة المسلمين داخل المعتقل بعد أن قابله وأعجب بحديثه.. وعندما سألته عن الاختلاف بين هذه الجماعة وفكر الإخوان الذي تخلى عنه قال إنه ينصحني أن أبايع الأمير.. كان يظن أن هذه الجماعة سيكون لها الغلبة في الأيام القادمة.. قال إنه تلقى أمرا لكي يترك الناس هنا ويلحق بجماعة المؤمنين.. لم أفهم ماذا يعني وحين استنكرت أن يترك بيته ويرحل الى الجبل قال:

-يجب أن تفهم أن أمير الجماعة قد كفر المجتمع كله

يجب أن نتركهم في غيهم الآن لتكون لنا الغلبة حتى إذا عدنا عدنا بقوتنا.

كان تائها عيناه تغوصان في البعيد وحين هممت أن أغادر بيته وأتركه تعلقت عيناه بي نصحني برفق أن أقرأ كتاب سيد قطب (معالم على الطريق) لم أفهم.. نظرت ناحيته

- أنا رجل لا أصلح لشيء لم أعد قادرا على فعل

شيء هل تفهم؟ رجل ينحدر من قمة جبل يسقط

مثل جدار قديم دون سبب.. أشعر أن الموت قريب مني.. يدنو مني حتى أنني أصبحت أشعر أنه يشاركني كل أفعالي.. يلتصق بجسدي الذي أشعر به يفنى يتفتت.

أصبحت أتقلب كثيرا في السرير ونومي صار متقطعا.. لا أهوى الخروج من البيت أشعر دائما أنني فقدت أشياء بعيدة تسطع في ذاكرتي.. أفكار لا تكتمل حين تولد تموت ترتع في نفسي الهواجس تقلقني.. أفزع إلى غرفة أمي في شقتنا الصغيرة.. ولاء لا تبدي أي اهتمام لتصرفاتي كانت تجيء وتروح أمامي وأنا أبدي

انشغالا مفتعلا حتى تأكد ظنها..منذ أن سقط حملها نزفت دما أسود وصرخت كانت فزعة ...كانت تظن أن هذا الوليد القادم ربما يفلح فى التقريب بين متصارعين يقف كل منهما فى أقصى ركن فى الحلبة من يومها وهى لا تعبأ بي .. صرنا شريكين في غرفة النوم فقط.. منذ أن أطلقوا سراحي وأنا قعيد.. أنبش في الماضي والغبار العالق بروحي يضنيها.. كنت أريد سماء جديدة بلون أزرق زاهٍ وهواء يداعب رأسي ويفتح نافذة لمرور الأفكار الميتة إلى قبرها يدق رأسي بعنف لتسقط الأحزان الجائعة في حجري وقد أصبحت الكتب التي أقرؤها شجرا عجافا مثل جرائد الصباح التي نحضرها على مائدة الإفطار ولا نقرؤها..وجه الصغير طارق الذى يشرق فى تفاصيل البراءة ينهض أمامى كل ليلة يجلس قبالتى على السرير حتى الصباح يسير الى المائدة يملأ الأكواب الفارغة بالحزن ....منذ خروجي من السجن لا أجد طعما لأي شيء.. متى يستطيع المرء أن يخرج من محبسه الذي ينتقل معه؟.. كيف يتخلص المرء من سجنه ويهرب إلى أرض جديدة مثل التي عشت فيها؟ أرض يأخذني الحنين إليها.. قصر رشوان حيث تنمو المشاعر وتصبح بيتا يألف المرء العيش فيه حيث شروق برقتها تلك المرأة التي اختلطت بدمي ونزفت معي حين كنت أقاوم الموت في المعتقل.. حين زارتني في المعتقل كانت عيناها هما سبيل الفرار إلى جنة الحرية.. ركضت فيهما حتى تعبت.. رأيت فيهما الطيور البريئة تطل من شرفة السماء.. حين لمست أصابعها كانت كموج البحيرة عبرت رأسي ساعتها أفكار مجنونة ربما تخيلت نفسي شاعرا ورددت كلمات تشبه الموسيقى.. سكنت كطفل عند أمه رميت نفسي مرغما بين يديها كانت تدرك أنني أمر بتجربة صعبة ومريرة.. لم أفهم السجن ولم أعِهِ.. كانت حزينة من أجلي بكت أمامي كطفلة كانت على ما يبدو ترثي حالي الذي شاهدتني فيه.. الجسد بدا نحيلا مجهدا والعينان جاحظتان واليدان

مرتعشتان رغم محاولتي أن أبدو قويا متماسكا حتى في الدقائق التي أراها فيها، لكن المعاناة كانت أشد من احتمالي.. انهرت فجأة وبكيت.. مسحت دموعي ثم فجأة انهارت هي الأخرى في البكاء.. أي كف شرطي لعينة قذفت بي إلى هذا المكان الموحش وتركتني أصدأ أخرج كل ليلة إلى الظلمة وأفرش ملكوتا جديدا وعصافير تغني أشم رائحة غناء فيروز أقوم من مقامي أفرد جناحي كطائر فرح يفرد ريشه على الهواء وأصعد كروح طاهرة إلى سماء لا تفتح أبوابها الا للمعذبين أمثالي وهناك أرى جدي وأبي وأرى علاء وسعيد عقرب.. سأرقص كل ليلة على جسد أحلامي وأردد عبارات الرثاء التي قرأتها في نفسي كرجل طيب وأضع فردتي الحزاء تحت رأسي كوسادة طرية وأنام لتأتيني الكوابيس المفزعة فرادى وجماعات بجماجم مخلوقات مشوهة ورأس بومة يطل من شرفة الحلم.. يمر المعذبون قبلي على رفاتي ويترحمون.. بينما يرقص الشيطان برأسه الصلعاء على جسد الحلاج المصلوب ويطلق ضحكاته المشتعلة في فراغ المكان المعبأ برائحة القتل.. يضع يده الملعونة في فم الجائعين وفي صيحات المظلومين يخضب المراعي الخضراء بلون السواد ويقرأ تعاويذه على الخارجين عن طاعته المحرومين من الولوج إلى ملكوته في سلام.. الشيطان في ملكوته متوجا يجلس قباله الحكام على سواء لا يفرق بين أسود وأبيض الكل لديه سواء رأيته يسمي الفائزين عنده بأسمائهم ويذكرهم بما يحبون ويقول: "من كنت وليه أجزلت له العطاء وجعلته سيدا بين العباد".. تصيح البوم فرحا وتنعق الغربان طربا ينشق حائط العالم السفلي ويخرج تنين يبتلع الكائنات العاصية أفر من مواجهة خوفي وأركض في فضاء واسع نحو شروق أجدها هناك بين الكائنات الطيبة تقف تفرح بالنور الذي يخرج من يدها وتضحك لها العصافير الخضر تنزل إلى النهر تملأجرتها بالعسل.. وأنا أقف لا أدري في أي لحظة أكون وهي

الملاك الذي يحط على قلبي كقطعة موسيقى كلاسيكية تنقر قلبي كعصفور صغير تغرد لحنها تلتقط الكلمات التي تورق كعشب تتحرك شفتاها كموج ثائر يقذف في نفسي النور.. السفلى مرتخية على كلمات البحر ترتل شوقها وتفرش فتنتها على الخلائق والعليا غارقة في لونها المائل للحمرة ينشطر لها العالم المخلوق من طين.. من أي قرية من نور جئت وبأي فيلق من صبح طلعت بعينين تمتلكان سحر كل أبيات الصوفية وأسرار البلاغة تقوداني إلى قدس الأقداس عند الفراعنة؟!!.. تخرجان من أبيات أبي نواس ورقة ابن أبي ربيعة.. حين أصحو من نومي لا أجد أفكاري مرتبة كملابسي..بينما تنضج الأحلام فى رقدتها تحت الوسادة.... أخرج كتائه إلى وجهة لا أعلمها.. اليوم قررت أن أذهب إلى شقة سماح.. منذ أن خرجت من السجن وأنا أفكر في الذهاب إلى أبيها علني أجد لديه أخبارا عن سماح.. ترددت حينا ولكني طرقت الباب اندهشت حين وجدتها.. لم تصدق.. نطقت: سراج سراج وبكت بحرقة.. حين دخلت إلى البيت لم أجد صور اللواء محمد نجيب معلقة على حوائط الصالة كما كانت.. ظننت في البداية أن في الأمر شيئا لكنها أحست بما دار بعقلي.. قالت:

- لم يحتمل بعادي رحل إلى المكان الذي لا يعود منه الناس.

تعكر صفو المكان وارتجفت حاولت الإمساك بالدموع التي رغما عني نزلت أدخلتني إلى غرفته.

جمعت كل الأشياء التي تخصه هنا في هذه الغرفة كانت تؤذي مراد.. لا تندهش مراد هو زوجي الذي ارتبطت به هناك في فرنسا بعدما تعبت من الغربة.. أنا امرأة.. المرأة ضعيفة هل كنت أستطيع أن أبقى على علاء؟.. لا تلمني هكذا بعينيك.. لم أستطع أن أقاوم.. الحياة بعيدا عن الوطن صعبة.. كان يجب أن أتزوج مثل كل فتاة..هل تسخر من ضعفي؟ ماذا بوسع المرء أن يفعل أمام

ضعفه؟ هل تتصور أنني نسيت علاء؟ لا يمكن للمرء أن ينسى قطعة منه.. لكنها الحياة يجب أن تسير ونسير معها.. كان يمكن أن يكون مصيري هو نفس مصير أبي.. مات هنا على هذه الكنبة.. مات وهو يحتضن صورة محمد نجيب.. الماضي لا يعود لكن حذار أن يأخذك هو إليه.

قررت أن أتركها.. مسكينة سماح كان الله في عونها.. حين هممت بالرحيل أمسكت يدي:

اسمع.. مراد طلقني.. لم يستطع الحياة معي.. قال لي أنت مجنونة..

هل تعرف لماذا؟ لأنه كلما دخل علي وجدني أبكي، وكلما ناديت رجلا حتى هو أقول يا علاء.

- ياه.. كل هذا العذاب على كتفيك يا سماح؟

- سراج اسمعني أرجوك.. انظر إلي جيدا.. هل فقدت جمالي؟ أنا مازلت جميلة أليس كذلك؟ سأعرض عليك عرضا.

-وأنا تحت أمرك يا سماح.

- تزوجني.. نعم سأكون تحت أمرك.. كنت تحبني.. هكذا قرأت في عينيك آخر مرة تقابلنا.. بل كنت تغار من علاء.. ها أنا أصبحت لك لك وحدك.

ألقت نفسها في حضني بكت وانهارت.. مضيت إلى الشارع وأنا أجر قدمي لا أصدق أن هذا هو مصير سماح.. كيف تحولت إلى مسخ؟ لم يكن بوسعي أن أحتمل انهيارها.. انسحبت تاركا شقتها فارا من عبثها الذي بدا وكأنه الملاذ الأخير لها من الجنون.. هل تريد الزواج مني أم ربما تفر من وحدتها؟ لماذا لا ألبي لها طلبها؟ ألم يكن حلمي أن أرتبط بها في يوم من الأيام.. لكن شروق هناك في قصر رشوان.. شروق التي تحلم بها كل ليلة وأنت نائم بجوار ولاء.. أفكاري التي تسير على عكازين طوال الطريق وتصدر نشيجا وأنينا.. يلمحني

العابرون.. كان صوتي مبحوحا وأنا أصرخ في النادل أن يحضر الشاي بسرعة بعد أن رأيت رأسي أوشكت على الانفجار.. جلست على القهوة التي تواجه محل الصالون الأبيض الذي كان يغلق أبوابه في هذا الوقت المتأخر وقد بدا على عمال المحل الإرهاق.. أمسك أحدهم بقفل ضخم ووضع المشبك الحديد أسفل الباب الصاج بينما أدار الآخر المفتاح في القفل حتى يتمكن من إغلاقه بإحكام.. كان النادل يعتذر عن تأخره وهو يدير الملعقة في كوب الشاي ليذيب السكر.. طالعني بوجه غارق في ابتسامة مصطنعة لملاطفة الزبائن.. عاد بعد أن ذهب ووضع كوب ماء بجوار الشاي.

- حضرتك أول مرة تأتي إلى هذه القهوة.. لم أرك من قبل.

ارتبك حين لاحظ عدم رغبتي في مواصلة ثرثرته.. انصرف في أدب وتحرك بلطف زائد إلى طاولة أخرى.. وقلت في نفسي لا بد أن شروق مشغولة في نومها الآن في التقاط نجمات صغيرة وأقمار تلهو لتضعها في ثلة الحلم الذي تعيشه الآن.. هل كان أحد يصدق أن أمن الدولة يعتقل سراج!! يعتقلني!! يحملونني في سيارة مصفحة ويلقونني في زنزانة قذرة مثل كل السياسيين الذين يحلمون بوطن أفضل.. حتى هجرة سماح بعيدا هناك حيث بلاد الحرية التي حلمت بها لم تنجح في التخلص من أزمتها.. يبدو أننا هنا في الشرق نولد بأزمتنا.. نولد بضجيج حتى حين يضعوننا على أثداء أمهاتنا نظل نبكي.. ثمة أشياء لا نستطيع أن نفارقها أبدا هنا في الشرق.. القهر إن لم نذهب نحن إليه أتى إلينا يهرول.. نعيش وعلى أحداقنا هالات سوداء وأطرافنا مبللة بالتعاسة.. ليس بمقدورنا أن نطلق العنان لأفكارنا أن تمرح داخل رؤوسنا.. الحكومة ستقضي عليها بلكمة واحدة حتى حين طالعت مذكرات جدي التي دونها في كراسته التي وجدتها في حقيبته كان يتحدث عن رغبته في التخلص من جميع أفكاره..كان يردد قصائد أمل دنقل التى فرت من الحارس...

كان يظن أن بمقدوره أن يلقيها برمتها دفعة واحدة في البحيرة المالحة.. جدي الذي تحدث عن كل شيء نسي أن يذكر سراج.. نسيني تماما.. سقطت من ذاكرته.. لم يقل كلمة واحدة عني حتى حين سألني الضابط بحدة عن علاقتي به لم أفهم معنى السؤال.. كان سؤالا مبهما ربما لا يرمي لشيء.. أنا لم أعرفه إلا حين ذهبت إلى قصر رشوان.. قبل ذلك لم يكن لي جد.. نعم هذه هي الحقيقة التي لم يدركها ضابط أمن الدولة.. كان يضحك حين ذكرت له ذلك.. ألقى في عيني دهشته ومضى يسحب نفسا عميقا من سيجارته الفاخرة ويدق بكفه على المنضدة.. ردد بسخافة عبارات مبتذلة ولم يرد على الهاتف الذي تواصل رنينه حتى بدأ يضايقني.. سألنى ساعتها دون تردد عن رغبتي في الاتصال بأعضاء الجماعة.. وذكر حسين حرب وسعيد عقرب بادرته أن سعيد مات.. مات هناك في الجبل لدغته حية.. كان يتصفح وجهي ربما كان يفكر في الانقضاض علي في حركة مباغتة.. نظر إلى الهاتف الذي عاود الرنين كأنه يبحث عن وسيلة لإسكاته.. نطق حروفا غير مفهومة وحرك أصابعه حول شفتيه بدا مرهقا وكأنه لم ينم.. صمم على مواصلة استجوابي.. ردد كلمات لم أستبنها عن سخافة المعارضة.. استعرض هيئتي؛ ملابسي حذائي الشعر الوجه دون ملاحظات حول ما رأى.. حين مد يده وجذب ورقة كانت موضوعة على المنضدة دقق النظر فيما كتب.. راجعه وهو يشير بالقلم.. لاحظ عدم الدقة.. رماني بنظرة جديدة وشطب كلمات وأعاد التدوين.. هذه المرة اقترب مني أكثر من ذي قبل همس في أذني قائلا بلطف:

- ما الذي جرك إلى هؤلاء إنه مكان مرصود.

- قصر رشوان؟

- الناس هناك تشغلهم السياسة أكثر من همومهم الشخصية

هل يمكنك أن تتصور هذا؟ بيئة فقيرة وأناس معدمون لا يجد الواحد منهم قوت يومه ويفكر بالسياسة.. إنهم بلهاء..

السياسة ترف ألست معي يا أستاذ سراج؟

تحرك إلى منضدته وسكب كوب ماء وشرب كقنفذ.. رماني بنظرة تطلع من شق ثعبان أو حية مثل التي قتلت سعيد عقرب.. قال بنهم:

- ما الذي كنت ستجده عند هؤلاء حتى تذهب إليهم؟

ربما كان ينتظر مني الإجابة هكذا تصورت لكنه استكمل حديثه دون أن ينظر إليّ.

- هل تود أن تقول شيئا؟ لن تستطيع أن تراوغني.. أنا أتتبع خطواتك واحدة واحدة.. كيف أترك حفيد الواجدي هكذا.. هل بحثت عن جدك؟ هل وجدته؟ ماذا قال لك حسين حرب عنه؟ إنه رجل يهذي لا تصدقه.. هل قال لك إننا قتلناه.. أغرقناه في مياه البحيرة.. لا تصدقه.. حتى سعيد عقرب لا تصدقه هو الآخر ربما يأتي اليوم الذي ستعرف فيه الحقيقة.. وحتى يأتي ذلك اليوم يجب أن تنتظر.. ربما يسعدك أن ترى شروق.. هي جاءت من أجل زيارتك.. هل تريدني أن أوقع لها تصريح الزيارة؟ انظر ها هي ورقة التصريح أمامي إنها هناك على المنضدة يمكنني أن أمنعها من زيارتك.. لكني أحبك وأعرف أنك تريد أن تراها وخاصة بعد خلافاتكما.. أنا سأسمح لك برؤيتها.. انظر كم أنا رجل طيب.. ها أنا ذا سأوقع على تصريح الزيارة.

تحرك ببطء ممل إلى المنضدة وأمسك بقلمه الجاف ووقع.. كنت لا أصدقه وأظنه يسخر مني.. لم أصدق أن شروق تأتي لزيارتي بعد كل ما قالته لي.. مضت أيام السجن كئيبة مظلمة راودتني أفكار بلهاء ساذجة عن إمكانية أن أتحول إلى وحش أسطوري يمتلك

قدرة خارقة يستطيع بضربة واحدة من ذيله الضخم أن يهشم هذه الحوائط وأن يخرج أمام الحراس الذين يفرون من أمامه مذعورين مرتجفين حتى عندما رأيت حسين حرب في المستشفى وعرفت أنهم اعتقلوه هو الآخر كان الضابط يتحدث عن أنه يكره هذه الأرض أرض قصر رشوان ولا يريد أن يراها.. قال حين استدعاني ثانية لغرفة التحقيق إنهم يريدون أن يصحوا من نومهم ويسمعوا هذا الخبر السار أن البحيرة ابتلعت هذه الأرض.. قال يومها وهو يضرب بكلتا يديه على المنضدة التي اهتزت وسقط ما عليها من أقلام:

- لماذا ذهبت إلى هناك يا سراج سوف أسحق هذه الأرض وسترى بنفسك كيف سيحدث هذا.. الذين شاهدوك هناك قالوا إنك دخلت كل البيوت القذرة.. هل كنت تظن أنني نائم لا أعلم بما تفعله هناك مع هؤلاء الأوغاد.. الملعون صالح النويهى هو الذي أعطاك الحقيبة.. زعم أنها تخص جدك.. كان يكذب عليك..

إنها تخص رجلا يدعى عبد الفتاح.. لقد قرأت ما بها وتأكد لك أنها لا تخصه مطلقا هل تفهم يا سراج.. اسمع سأحاصر هذه الأرض التي لا تنجب غير الأفاعي سأبيدها لن أدعهم يخرجون عن الشرعية..

مشكلتك يا سراج أنك تتصور مثل كل الذين يجلسون على هذا المقعد أن بوسعهم أن يضللوا المحقق.. هذا مستحيل يمكنني أن أدعهم يأخذوك إلى الغرفة 11 هناك لا يمكنك أن تقاوم.. ستدلي بكل الاعترافات التي أريدها منك لكنني مازلت أصبر عليك.. ربما أدعوك ساعتها كي تلعق حذائي وستفعل بمهارة مثل الكلب الأليف حتى فتاتك شروق تلك الرسامة الفاشلة التي تحتمي ببعض المنظمات الحقوقية هي ووالدها السكير أستطيع أن

أحضرهما إلى هنا وأريك كيف يركضان كالصراصير.. الغرفة 11 يعرفها المعتقلون هنا لا أريدك أن تدخلها.

توارى بوجهه عني أظلمت ملامحه تماما بدا كرجل متخفٍّ تكلم بطريقة انهزامية ترمي إلى الإيقاع بي.. نهرني حين حاولت أن ألتقط خطواته المتثاقلة رفع رأسه من فوق سطح المنضدة المستوي.. تلعثم وهو يروي عن حكايات الأفاقين كما يسميهم هو.. قال بلهجة حماسية غير مناسبة له:

- جدك كان يجيد طرح الأسئلة الممنوعة.. عندما تكون حرا تستطيع أن تقول كل ما تريده.. كان جدك يضع الأسئلة الشائكة.. وضع نفسه بهذه الطريقة رهن التحقيق الاعتقال كان يرى أنه لا حلول حاسمة لتلك الأسئلة.. أتذكر كلماته عن تلال الرمال الشاسعة التي تحركها الرياح هل كان جدك صوفيا؟ ربما كان يقترب أكثر من الفلاسفة الحمقى.. الذين يتصورون أن بإمكانهم نشر الفضيلة عند الحكام.. ربما يلقى حديثهم رواجا لدى العامة البسطاء.

مكث يتحدث كثيرا عن نفسه.. قال كلاما عن ماضيه في الجيش صمت بعض الوقت ونزلت الكلمات من فمه تدق في أذني دقات الطبلة العسكرية التي يسير على وقعها الجنود في طوابير السير.. مفرودي الظهر والقامة والرأس لأعلى والكتفان متساويان تماما تندفع رغبته في مداهمة أفكاري بكل جنوده وعتاده يهم بمحاصرة الموقع يندفع كتنين جائع يرتل موسيقاه الصاخبة في رأسي جذب شعرة من طرف شاربه الأيسر.. شعر بألم يخدر أعصابه.. برقت دمعة في عينيه مسح ظلها وراقبني.. همس برفق

- لولا أن والدك رجل عسكري مثلنا لأمرت بإدخالك إلى الغرفة 11 هل تعني كلماتي لك شيئا.

صمت عن الحركة بينما كلماته تندفع نحوي.. أسند مؤخرته إلى المنضدة وتطلع إلى سقف الحجرة هبط بعينيه على جسدي المستسلم.. راح يعبث في أنفه ويشرف على تمزقي من الخوف :

- سوف أفرج عنك فورا لكن بشرط أن تعدني ألا تذهب إلى قصر رشوان قط.. انس هذه البقعة من الأرض.. لا تتردد .. إنها أرض لوثتها أفكار جدك.. أنا أعرف أنه ربما يكون هناك في أي شق فيها ربما كان في الجبل أو ربما كان مختبئا في البحيرة أعرف أن صالح النويهى يعرف الكثير.. ربما يظن يوسف الواجدي أنني قد نسيته.. لا.. حتى شروق تخفيه في لوحاتها.. إياك أن تظن أنني لا أعرف تلك الرسومات البذيئة التي ترسمها هذه الفتاة.. إياك أن تقترب منها يا سراج.. لا تفتح على نفسك أبوابا مغلقة.. انتهز هذه الفرصة وتخلص من هؤلاء في الوقت المناسب سوف أنقض عليهم جميعا بعد أن أعثر على جدك .. إذا عرفت أنك ذهبت إلى هناك سأعيدك إلى هنا ولن تعود إلى عالمك أبدا.. سوف أنفيك...ملف جدك مازال مفتوحا هنا فى المكتب

كلماته الجائعة مثل كلب يلهث يسيل لعابها في أذني.. ما زلت أرتعش من تذكرها.. كان النادل يقترب مني ليسألني عن حاجتي واقترحت عليه أن يحضر لي شيشة وفنجان قهوة ويتركني وأنا أنظر إلى بحر يوسف الذي يسير في وداعة.. وقد شق لنفسه هذا المجرى منذ آلاف السنين بعافيته وقدرته.. استمر تدفق مياهه يندفع بقوة حتى استطاع أن يمتطي مجراه في براعة الفارس.. أتنهد كشيخ هرم بينما كان البحر يحلم أن يتخلص من مجراه وتفيض مياهه تغمر الأرض الواسعة حتى تصل إلى أرض الكيمان البعيدة.. أرض تقف بعيدة في انتظاره يحركها الشوق إليه وهو الشارد في مجراه طيلة كل هذه السنوات لم يلتفت إليها.. أرض عطشى تحلم بمجيئه

حـاملا الطمـي والنمـاء يقذفـه في أحشـائها تـرتج.. لمـاذا أجلـس كديناصور عجوز خارت قواه يحمل نعليه تحت إبطه ويسير مرغما إلى مصير محتـوم ينـام في غرفتـه وحيـدا يعلـق آمالـه في السـقف.. وأحلم بعودته مثل كل الكائنات.. جدي.. ولاء لم تعد من بيت أبيها أرسلت لي ورقة صغيرة قالت إنها حاولت أن تعيش معي.. بذلت كل مـا تسـتطيع لكـن القـوم رفضـوا.. خيروهـا بـين أن أعتنـق البهائيـة مثلها أو أن تتركني.. قالت إنها معذبة ضائعة لن يمكنها العيش من دوني.. تركت مسافة بيضاء في رسالتها وأنهت حديثها حين قالت إنها تتمنى أن تجد طريقة كي نعيش معا ربما يحتاج هذا وقتا، لكنها ستظل تتعلق بهذ الأمل وختمت رسالتها..أن حلمها فى أن يربط بيننا ولد جميل يشبهنى قد انهار.. مزقت رسالتها وألقيت بها في السلة وحين رأيتها أمامي لملمت قطعها وألقيت بها من النافذة.. أمي لم تعد تخرج من غرفتها أبدا تصمت طوال الوقت.. محاولاتي المتكررة معهـا كي أدفعهـا للحـديث في أي شـيء بـاءت بالفشـل منـذ أن أخرجوها من بيت جدي عنوة وهي صامتة شاردة.. كل شيء هنا يدفعني أن أعود إلى أرض قصر رشوان إلى شروق التي تنتظرني.. هكذا قالت لي في آخر زيارة لي في السجن وأنا عاجز لا أستطيع أن أقوم من رقدتي هذه دون علبة المهدئات.. نصحتني سماح أن أقلع عنها رغم أنها هي التي نصحتني بها حين رأتني منهارا بعد خروجي من المعتقل.. ترددت عليها كثيرا.. رأت بعينيها انهياري وتلك الكآبة التي خيمت على مشاعري.. تنفست بصعوبة في ذلك اليوم.. كنت أوشك أن أفقـد صـوابي.. مـدت يـدها تحـت الوسـادة وأخرجـت شـريط المهدئات وانتزعت منه واحدة وناولتني إياها وطلبت مني أن آخذها فورا.. لحظات ووجدتني أطير كفراشة في سقف الحجرة.. أين تلك التعاسـة التي كانـت تطبـق على صـدري وتنتزع روحي غصـبا مـن جسـدي المتهالك.. ألقتني سماح في عالم جديد لم أعرفه من قبل

جربته هي مرارا بعد رحيل علاء وفشلها هناك في فرنسا مع مراد.. أصبح شريط المهدئات هو ملاذي الأخير الذي أهرب به من عذاباتي.. أطوف في جسد سماح ولا أجد رقعة أشتهيها كأنها محرمة على الرجال بعد علاء.. هكذا بالضبط ما قاله مراد وهو يعد حقيبته ويرحل عن سماح إلى الأبد.. لطالما حاول كلانا لم يجد في جسد الآخر غير رحلة من عذاب مكتوم وصيحات ألم ينزف.. لم تكن تلك الرعشة التي ظننتها نشوة سوى إحساس كاذب لرجل قعيد لا يملك إلا أن يربت على كتف امرأته ويردد أغنية لفيروز العظيمة.. في آخر مرة انتابتنا هستريا الضحك.. ضحكات تعلو وتهبط وبعدها لم نفكر بالأمر قط.. كانت نحيفة وذكية قالت يومها:

. لن نذهب إلى هذه الأرض أبدا كلانا تعس مهما حاولنا.. لن نروي ظمأها يجب أن نتخلص من تلك الشهوة المجنونة تلك الرعشة حتما ستخبو.. ما رأيك أن نمارس لعبة الموت..ما رأيك أن نمزق كل شيء؛ صور أبي واللواء محمد نجيب وأيضا صور علاء ونذهب إلى حياة جديدة معا.. هل بوسعك أن تنتزع من جسدك شروق؟ لماذا لا تعصي أوامر ضابط أمن الدولة وتذهب إليها.. ما الذي تخشاه.. السجن؟ ربما كان أفضل لك مما أنت فيه.. الآن أنت تحن إلى أرض قصر رشوان..انها أرضنا قبل أن ترسل إلينا الحضارة الغربية المبشرين والخمور ومرض الزهرى والسلع الإستهلاكية الرخيصة وصناديق الأغذية المحفوظة وأفكار ملوثة بالإشعاع

وجدت في سماح ملاذي. كنت أتردد على بيتها لأهرب من شعوري الدائم بالوحدة. كانت تجيد قراءة الشعر وتدخين السجائر. بعد رحيل والدها جمعت كل الصور التي تجمعه بالرئيس محمد نجيب ووضعتها في كرتونة وألقت بها في غرفة

الكراكيب كما كانت سماح تسميها. كنت أدخل إليها خلسة عندما تنشغل سماح عني. قالت ذات يوم وهي تضع السيجارة في فمها وقد فردت شعرها المتعرج وأسدلته على كتفيها أنها ترى أن اللواء نجيب لم يكن يستحق العزل.. نفخت في وجهي دخانا كثيفا وأخذت أسعل بشدة. اللواء نجيب جلدوه وهو صغير في المدرسة على أثر مشادة بينه وبين مدرسه الإنجليزي حول من يحكم مصر وحكم عليه المدرس بالجلد وتم جلده أمام زملائه والآن وبعد مرور كل هذه السنوات يلقى نفس المصير ليس من المحتل هذه المرة ولكن من بني وطنه حين قرر عبد الناصر وضعه رهن الإقامة الجبرية في قصر مهجور بضاحية المرج المنعزلة. سجن عبد الناصر.

الحمد لله أنهم لم يعتقلوا أبي معه رغم قربه من جمال عبدالناصر.. عبد الناصر كان يعرف أبي وحين قرروا التخلص من اللواء أحضره ناصر إلى مكتبه وقال له: أنت معنا أم معه؟ سكت أبي ولم يرد إلا بكلمة واحدة.. قال له: اللواء رجل طيب يا حضرة البكباشي.. ضحك عبد الناصر وقال: سنحيلك إلى الاستيداع ونصرف لك معاشك لكن بشرط.. إياك أن تتصل به.. أنا أعرف حبك لـ نجيب وأنا مثلك لكنها الظروف لا تجعلك تختار.. صمت دقائق وقال: كيف حال الصغيرة سماح.. والدي أدى التحية العسكرية وانصرف ومن يومها لم يدخل إلى مبنى القيادة أبدا..

في الآونة الأخيرة لم أعد أتردد عليها كثيرا كادت أن تشتبك معي.. آخر مرة حين ألقت في وجهي زجاجة البراندي وطبقا كان به قشر لب وفردة حذاء.. كنت أحاول منعها من تناول تلك الحبوب.. بالأمس روت لي حلما رأته قالت إنها شاهدت علاء على هيئة صقر عيناه عيني صقر وله جناحا صقر.. كان يطير فوق السحاب.. قالت: فرحت وحركت ذراعي في الهواء ألوح له، لكنه ابتعد.. ظل يبتعد.. قالت وهي تبكي: علاء يا سراج لم يرني.

كان جدي يوسف الواجدي يحب الصقور ويصفها بالطيور ذات الكبرياء.. الصقر طائر ملك رفيع ليس ذليلا ولا مستسلما إنه يحب السمو ويرمز للقوة كما حكي لي سعيد عقرب وكنا جالسين في بيته وكانت فرحة تعد الشاي لنا.. ياه كيف حال فرحة؟ لم أفهم سر اتصالها في ذلك اليوم عندما كنت في بيت صالح النويهى.. حسبتها شروق وعندما علمت أنها فرحة لم أهتم.. عرفت بعد ذلك أنها كانت تنوي إخباري بأمر اعتقالي.. عرفت ذلك من حسين حرب حين زارني في مستشفى السجن.. ولكن كيف عرفت فرحة بهذا الأمر ولماذا أرسلت من يأخذ مني الحقيبة.. حقيبة جدي.. وأين هي الآن.. لقد عرضت نفسها للخطر.. ترى ولو علم الضابط أن الحقيبة موجودة عند فرحة وبها كل أوراق جدي لولا مقابلة حسين حرب لي هناك لكنت اعترفت بكل شيء لكنه حذرني.. قال إن جدك لن يرضى عنك أبدا إن أنت أهملت في أوراقه وسلمتها إلى الحكومة.. قال لي يومها بعنف لم أعتده منه:

- كن رجلا لا تعبأ بتهديدات الضابط..

اصمد مثل جدك الواجدي هل تفهم يا سراج

(.. سراج لم أستطع أن أكمل لوحة واحدة من بعدك كل اللوحات ناقصة.. لماذا لا تأتي الآن.. أنا أغرد بمفردي في قصر رشوان أسبح مرغمة في الألوان الحزينة.. سراج علمت بنبأ خروجك من السجن.. أصبحت حرا لماذا لا تأتي كما وعدتني؟ لماذا لا تحن إلى الأرض التي عرفت جدك وأحبته.. أصبحت أفكر مثلك حين قلت لي هيا نفعل مثلما فعلت سماح نبتعد عن هذه الأرض ونتركها لهم نسافر إلى أرض جديدة.. عبثا حاولت التخلص من هذه الفكرة التي علقت برأسي.. فرحة ضاقت مما أقول.. أظن سماح سعيدة هناك في منفاها ربما أصبح لها زوج وولد صغير أعرف أنها ستسميه علاء لو كنت مكانها لفعلت ما فعلت.. أنت تعرف أخبارها

حتما يمكنك أن تراسلها كي تدبر لنا العيش هناك.. سراج لدي خبر غير سار.. حسين حرب مات.. مات منذ أيام.. أحضروا جثمانه من السجن ليلا ودفنوه كما تدفن العاهرات في جنح الظلام.. أبي لم يتحمل الخبر نقلناه بالأمس إلى المستشفى.. صار يهذي ويقول كلمات غير مفهومة.. قلت لك يجب أن نغادر هذه الأرض.. أنا أنتظر ردك..حتى أبى أصبحت الحياة معه مستحيلة إنه لا يفيق أبدا كل محاولاتى فشلت معه أريد أن يعود الى الحياة ويرفض.. لا أريد أن تكون نهايتى بهذه الطريقة ...قبل أن أراك كنت راضية بحياتى والآن أنا تعيسة ليتك لم تحضر الى قصر رشوان..... شروق)

كانت طرقات الباب تعلو.. كنت مستغرقا في النوم الذي أدمنته في الأيام الأخيرة.. كنت أنام ساعات طويلة حتى أن أمي كانت تقلق وتحاول إيقاظي.. ربما أقضي يوما كاملا نائما دون طعام أو شراب.. أصبحت أقضي معظم الوقت في السرير إما نائما أو في غفلة لم أعد أطيق الخروج.. طرقات يد أمي على باب حجرتي أعرفها.. ترى من يريد سراج في هذا الوقت من الليل؟ هل هم رجال المباحث؟ ولماذا يأتون وقد نفذت لهم ما أمروني به؟ لم أعد أتصل بـ شروق ولم أذهب إلى قصر رشوان حتى سماح مضت أسابيع ولم أزرها حتى أنها حضرت إلى هنا وصاحت في وجهي ورمتني بألفاظ قاسية سمعتها أمي حتما في حجرتها القريبة من الصالون.. كانت سماح تصر أن أخرج معها ونذهب إلى شقتها.. لم أستطع أن أهدئ من ثورتها.. كنت أدرك أنها ربما تكون تحت تأثير المخدر.. حين حضرت أمي تحمل أكواب العصير ارتمت سماح في حضنها وبكت طويلا.. بعد رحيلها لم تكف أمي عن طرح الأسئلة عن سماح وبين الحين والحين كانت ترددها.. لو كانت سماح هي التي أتت ماذا أقول لها إذا سألتني عن سبب عدم زيارتها.. لن تفهم سماح أو تقدر ما أنا فيه لا يمكن أن أترك نفسى لها كلانا لا يصلح للاخر.... حين

زادت الطرقات هممت أخيرا بالخروج.. كان واقفا في الصالون حين طالعني وجهه عندما فتحت باب حجرة نومي كان مهشما زائغ البصر يرتدي جلبابا أبيض قصيرا ولحيته غير مهذبه وعيناه شاخصتان وجفناه متورمان وعرق غزير ينزف من جبينه.. كان يلهث تصعد أنفاسه وتهبط سمعت حشرجة صدره هممت أن أرحب به:

- أهلا يا أستاذ حسين
- جئت إليك في أمر مهم.. مهم جدا.
- أنا تحت أمرك.. ما بك ؟ أراك مجهدا
- لا وقت للكلام لدي اسمع.. تعرف ابني طارق؟
- طبعا
- إنه معي واقف بالخارج
- كيف تتركه بمفرده خارج الشقة؟
- لا أريده أن يسمع ما يدور بيننا الآن
- كما تشاء

كان صوته المشروخ وكفاه المرتعشتان ولعثمة لسانه ولهاثه ووجهه الشاحب لم يكن هو نفسه جارنا الإخواني القديم الذي عرفته منذ الصغر و بيته يجاور بيت جدي عيناه تتحركان في المكان كعيني لص يتلفت حواليه كمشبوه.. دموع كثيرة تحجرت في مقلتيه كأنه خارج لتوه من قبر.. استجمع قوته وقال:

- هل توافق أن أترك عندك طارق ابني؟

أدهشني طلبه سكنت مكاني المفاجأة ألجمتني رحت في سكون.

طارق ولد مؤدب ومطيع لن يضايقك ليس لى فى الدنيا غيره..

أنا لا أستئمن أحدا إلا أنت أنا أعرف أنك من بيت طيب يا سراج.. وجدك تاريخه معروف في النضال لهذا لم أجد سواك أدع عنده طارق.

قلت وكان الكلام صعبا:

- طبعا بكل الحب لكن ما السبب؟ أرجو أن أفهم

أنا لا أفهم شيئا.

- لن أستطيع أن أحكي لك الآن إن أنجاني الله سوف أحضر لآخذه وساعتها سأروي لك كل شيء..

أسرع حسين قاسم وأدخل طارق كان هزيلا مرهقا ليس كما رأيته في السابق.. الولد اندفع إلى حضني حين شاهدني.. وبكى لسعتنى أنفاسه الساخنة.. لم أتمالك أعصابي انهرت في البكاء بينما انسحب حسين قاسم من المشهد الملودرامي الذي بدا كمشاهد السينما القديمة.

منذ أن دخل طارق حياتي وتبدلت رأسا على عقب.. أحببت هذا الولد جدا.. الطفل يمنحك البراءة ويعود بك إلى زمن تذكرته سريعا.. رأيت نفسي وأنا ألهو في بيت جدي وأخشى صعود الطابق الثاني حتى لا أواجه رأس الكبش وأيام لعبي في حديقة البيت الواسعة.. طارق كان ولدا رائعا ربما فطن إلى موطن سعادتي به.. رأيتني ألهو معه كطفل تعلقت باللعب التي أحضرناها معا وتعلمت معه دروسه كنت أنهض مبكرا كي أصحبه إلى باب المدرسة وفي الظهيرة أنتظر عودته لنجلس معا مع أمي على الغداء.. لم أسأله عن شيء..وكان صامتا أول مرة تكلم فيها كان عن أمه وقال إنه منذ حملهم أبوه إلى مكان بعيد في الجبل تذكر اسمه بالكاد.. أبو قرقاص في محافظة المنيا عرفت منه أنهم عاشوا في مغارة نائية هناك حدثني كثيرا عن قسوة الحياة فى الصحراء وتكرر كلامه عن رجل يدعى.. أبو سعد.. .. قال طارق إن له الأمر في كل شيء وإن والده لا

يستطيع أن يفعل شيئا دون إذنه أو مشورته "حتى نحن الصغار نزعونا من صدور أمهاتنا وألقوا بنا إلى معلم غليظ يتفوه بالشتائم وينهانا عن اللعب ونظل طوال الوقت نجمع الحطب تحت حر الشمس ونحمل الزبالة على أكتافنا ونلقيها بعيدا عن المغارة وحين أردت أن يكافئني قلت له إنني أحفظ حروف الهجاء كلها وجدول الضرب رأيت وجهه يمتعض ويحوطني بنظرة كريهة وقال وهو يصرخ في وجهي:

-اسمع لا أريدك أن تتحدث عن التعليم.. نحن أمة أمية لا نقرأ ولا نكتب.. هكذا أمرنا.. الكفار حاولوا إلهاءنا بهذه العلوم الدنيوية التي لا فائدة منها.

لم يكن يسمح لي برؤية أمي إلا مرة كل أسبوع.. وذات مرة حين طلبت من الأمير أن أرى أمي قال إن أمك حرمت عليك لأنها خالفت أوامرنا وعلمت من أبي أن الأمير أمر بإبعادها وأنني لن أراها أبدا" وقبل أن يحمله أبوه إلى هنا عرف منه أنها ماتت وهي تردد حروف اسمه ماتت حين أمر بطردها الى الصحراء دون ماء أو طعام خرجت وهى تنظر خلفها تطمأن على وليدها طارق خرجت مرغمة بعد أن هددوها بقتله إن لم تطع الأمر..بعدها بيومين وجدوا جثتها وقد مزقتها الثعالب الدنيئة..... طارق ظل يحدق في صورتها التي وضعها بين دفتي كتبه خلسة.. كانت مشاعره قد تيبست وأوراقه الخضراء ذبلت واصفرت وأوشكت على السقوط.. كيف يفعلون بطفل صغير هذا؟!.. ما الذي يجري الآن هناك في مغارات الصحراء التي يلجؤون إليها بعد أن فرت الطيور وهجرتها الحيوانات ولم يبق بها إلا الوحشة والقلق والصمت.. بيت جدي الذي يسكن في ظلام مركوم.. آهة الوجع تمتد إلى غرفه وتصرخ في شراينه والعتمة التي خيمت على جدرانه.. بعثت رسالة إلى شروق حكيت لها عن طارق.. وصفته لها وحكيت لها كيف نقضي يومنا هنا في شقتنا بـ كيمان

فارس.. حكيت لها كيف أنني تمنيت طول عمري أن يكون لي طفل مثل طارق وقلت لها إنني أحببته كابني الذي لم تستطع ولاء أن تأتي به .. صدقيني يا شروق كنت أتصور لو أن ولاء أنجبت طفلا مثل طارق لشغلها عن البهائية وهرطقة أبيها الأستاذ كامل الجوهري منذ أن خرج من السجن ولا أحد يعرف عنه شيئا البعض يقول أنه سافر الى اسرائيل واخرون يقولون أنه سافر الى إيران حيث مولد البهاء لا أحد يعرف عنه شيئا لقد اختفى تماما.. الأطفال عالم آخر من المتعة.. إنهم يزرعون داخلنا حياة جديدة وخيالا يلعق شفاهنا وتورق شجرته في نفوسنا.. طارق.. أريدك يا شروق أن تريه سوف تحبينه.. إنه يشبه أحلامنا التي رحلت مع السفن المهاجرة إلى البعيد.. إنه يشبه الصحراء التي في نفوسنا.. إنه المطر الذي ينبت العشب.. هل نستطيع أن نهشم أفكارنا المزعجة الفارة من داخلنا ونصعد معا إلى سفح الجبل حيث نشاهد رؤوس النخيل تتمايل مع هواء البحر الطري؟! يستحيل المنظر إلى لوحة من الخرافة والأسطورة تمسكين فرشاتك يا شروق وتغوصين في ألوانها.. هل سنقف قريبا أمام البحيرة يعتصرنا موجها المفاجئ ونسقط مثل قطتين مشاغبتين تفران من أمهما ندهس القواقع بأقدامنا ونسمع أنينها المكتوم.. هل يمكنني أن أصعد التل مرة واحدة وأجيء إليك نحتفل ومعنا طارق يرانا القمر الذي يصعد إلى ربوة عالية هناك عند مرعى الغيوم تتسلق أحلامنا.. سوف أحضر يا شروق لن يمنعني أحد اليوم أو غدا سنكون معا.. الرجل في منفاه هناك في المرج يرعي القطط والكلاب يضع أفكاره تحت وسادته كل يوم وينام.. أرادوا أن يلقوه في مزبلة التاريخ وأن تخلو خشبة المسرح للبطل الأوحد.. لكن الوسائد نامت في مقاعد المتفرجين والرواد البسطاء أبعدوا ولم يسمحوا بالدخول إلا للنبلاء.. .كان طارق كلما وضع رأسه على وسادة النوم سألني

عن أبيه أين هو ومتى يعود.. صنعت له ألف حكاية وحكاية حتى أبعد رأسه الصغير عن المتاعب وأنا أرى سحابة بيضاء تمر فوق فمه الصغير تأخذ بيده إلى مدائن الأحلام.. قال لي عندما صحا من نومه ذات مرة إنه شاهد أمه مرتدية حلتها الجديدة والنجمات يرقدن في حجرها "وهي تعطيني كومة من الأغنيات وأنا أرددها كعصفور صغير" قال وهو في قمة السعادة: "متى تعود أمي؟"..

منذ أن دخل طارق حياتي أصبحت أتوق أكثر إلى أرض قصر رشوان.. قلت لابد أن أخرج من هذا الخوف الذي يكبلني.. سأبحر إليك يا شروق.. لن أعيش مثل العبيد.. راكعا سوف أصطاد لك الفراشات وأحمل الوردة ونلتقي كطفلين يمرحان في براءتهما هناك عند البحيرة حيث جلسنا معا نرسم على رملها طيورا وغزلانا نتدثر بشعر ابن الرومي.. حين دق الباب في ساعة متأخرة قلت في نفسي هو الضابط حضر ليأخذني ربما علم بما كنت أنوي فعله وهو الرحيل إلى قصر رشوان.. قلت: ولو سألني فسأقول له الحقيقة أنني ذاهب إلى شروق.. ليس لي علاقة بالسياسة وسوف أصر.. لن أمنحه فرصة لكي يرى ضعفي.. ربما يأمر العسكر الذين بصحبته أن يلقوا بي في العربة السوداء حيث تحملني إلى المعتقل وهناك سيأمر الضابط بوضعي في الغرفة 11 التي حدثني عنها حسين حرب.. قال إنها غرفة مليئة بالماء حتى منتصفها ولا يظهر من المرء إلا رأسه يدخلها المعتقل بعد أن يأمر الضابط بجلده وحين يبدأ الجلد في التشقق وتظهر الجروح وينزف الدم يحملون المعتقل إلى الغرفة 11 وعندما تلمس المياه جسد المعتقل يشعر بالموت ينتصب له.. في حين يجلس الجلاد حاملا كرباجه ويأمر المعتقل ألا يتحرك في المياه.. وكل حركة يأتيها تساوي عشرة كرابيج.. قال: ستظل بعض الوقت صامدا ولكنك مرغما ستتحرك بعد أن يبلغ الألم منك مبلغا عظيما وحينها تسمع صوت الكرباج على ظهرك وجسدك كله

ينهار وستشعر أن جسدك يتشقق إلى قطع لحم وأن الألم الذي يعتصرك يتمدد حتى لا تطيقه وتغيب عن الوعي يوما أو يومين لتعود إلى نفس التجربة مرات عديدة.. كانت الطرقات الخفيفة التي على الباب قد بدأت تعلو شيئا فشيئا ضغط على مفتاح الكهرباء ومضيت إلى الصالة نظرت إلى الساعة وجدتها الثالثة صباحا تأكدت أنهم هم.. مددت يدي وفتحت الباب رأيت حسين قاسم يندفع بسرعة إلى الداخل قال بصوت خافت ينزف حزنا:

- من فضلك أريد أن أراه أريد أن أرى طارق.

- الآن في هذا الوقت يا أساذ حسين إنه نائم.

- لن أقلقه سوف أطل على وجهه فقط.

سرت أمامه حتى وصلنا إلى غرفة طارق فتحت له الباب ودخل بلهفة أزاح الغطاء عن وجه طارق ونظر ناحيتي انحنى برأسه وقبله.. تركته وقلت:

. سأعد الشاي.

ذهبت إلى المطبخ.. كنت أخشى أن يكون حسين قاسم قد حضر ليأخذ طارق.. الهواجس ترتع في رأسي.. ماذا سيحدث إذا استيقظت أمي في الصباح ولم تجد طارق.. لقد تعودت عليه.. أصبح لها كل شيء.. كنت أحس أنها ربما تهتم به أكثر مني.. ماذا أقول لها؟ كلما كنت أطالع وجهها المبتسم وهي تلعب معه وهو يقفز فوق كتفيها.. كنت أراها تردد أغاني فيروز وهي تعد له سندوتشات المدرسة.. قالت ذات مرة:

- أشعر وأنا أعد طعام طارق أنه أنت بالضبط حين كنت صغيرا.

حين حملت كوبي الشاي وذهبت إلى الصالة وجدته جالسا دافنا رأسه بين ذراعيه.. ظننته قد غفل لثوان.. سكت طوال الوقت وهو يشرب الشاي.. قلت:

- لا يجب أن تحمل طفلا صغيرا في هذا الوقت المتأخر انتظر حتى الصباح.. أمي يجب أن تودعه هذا طلبي الأخير منك أرجو أن تتقبله.

ظل صامتا بعض الوقت.. هم من مكانه وسار ناحية الشباك.. نظر من فتحات الشيش إلى الشارع.. أطال النظر ثم عاد إلى مكانه.. نظر ناحيتي وقال في هدوء:

- هل أطمع في كوب آخر من الشاي؟

هززت رأسي وتحركت إلى المطبخ.. أشعلت البوتجاز ووضعت البراد على الموقد.. سمعت خطواته خلفي.. وقف بجواري:

- الجماعة أهدرت دمي

- لا أفهم

- أمير الجماعة

- من؟

- أبو سعد

- سمعت هذا الاسم من ابنك طارق من هو؟

- شكري مصطفي حملنا هناك إلى المغارات في الجبال الوعرة.. وأخذ منا البيعة ثم ظهرت أفكاره.. الأموال كانت تأتيه من الخارج وأخيرا وهذا ما لم أطق تحمله أن ادعى شكري مصطفي أنه المهدي المنتظر.. وكان يردد ذلك صراحة ويريد أن نعلن ذلك على الناس وأنه هو المخلص لهذه الأمة من جاهليتها.. جهرت برأيي وظننت أنه سيناقشني فيه لكنهم حكموا بكفري وارتدادي ولما علمت بذلك أسرعت بالهرب.

- أحسنت أنك فعلت هذا.

- أنت رجل طيب يا أستاذ سراج.. هل تظنهم سيسكتون؟

- وماذا سيفعلون؟

- سيقومون بتصفيتي جسديا.

- يقتلونك؟ مستحيل.

- سيفعلون معي هذا كما فعلوه مع من خرج عن طاعة الأمير وعن عقد البيعة.

- يجب أن نبلغ الحكومة.. أمن الدولة.. أي جهة بسرعة.

- لن يستطيع أحد أن يحميني منهم.

- حتى أمن الدولة؟

- أنا مطلوب لدى مباحث أمن الدولة وإذا ذهبت إليهم فسيعتقلونني.

- هذا أرحم لك من القتل.

- لا تكن ساذجا.. بإمكان الجماعة تصفيتي داخل المعتقل.

- داخل المعتقل؟!!

- نعم هذا أمر سهل ليس صعبا كما تظن.

- وماذا ستفعل؟!

- أنا رجل في حكم الميت الآن.. المهم عندي هو ابني طارق.

- لا تقل هذا سوف نجد حلا.

- كل ما أرجوه أن تعامله مثل ولدك أرجوك.. أمه ماتت كما تعلم ولم يعد له أحد غيرك.. خذه إلى مكان بعيد عن هذه الأرض كن له أبا أرجوك هل تعدني بذلك؟

- أنا لا أصدق ما تقول.

- سوف تعرف كل شيء قريبا.. خذ.. هذا مفتاح بيتي الذي يجاور بيت جدك.. يمكنك أن تأخذ طارق وتعيش فيه على الأقل عندما تعودان ... ستكون بجوار بيت جدك الذي أخذته الحكومة منكم.

وضع مفتاح البيت في يدي ومضى بخطوات بطيئة ناحية غرفة طارق وضع يده على مقبض الباب لثوان لكنه تراجع عن

فتحه.. نظر ناحيتي.. كان يريد أن يقول شيئا لكنه تراجع.. سار في اتجاه باب الشقة.. فتحه وخرج.

لم أستطع أن أكمل نومي.. ظللت راقدا في السرير جاحظ العينين أنظر إلى سقف الحجرة وعينا حسين قاسم تطلان في فراغ ما بعد الموت.. حاولت أن أملأ رأسي بحكايات بليدة تصرفني عن منظر وجه الرجل الفزع.. توقظني أمي في الظهيرة وهي تبكي... تضع بين يدي جريدة مسائية وفي صفحتها الأولى يرقد جسد حسين قاسم مغطى بورق جرائد ودمه المسفوح يخضب الأرض.....

كل المسافات تلاشت وقعتُ فى العراء أمام أعين المارة بحثت عن مأوى لجسدى المنحدر كشلال أتشبث بالصراخ... أين أنت يا شروق أنا قادم إليك مرغما لا حيلة لى.. أحن الى أرضك.. أرض جدى... وحيث تتوق العصافير الى حريتها أخبرى فرحة بقدومى سوف تعلق المصابيح أمام بيت سعيد ...شروق هل بوسعى أن أرى تلك الأرض ثانية ؟!أم أنها الأحلام الباهتة تسقط صريعة تسقط كورقة صفراء ناشفة ...تسقط دون دوىّ دون صوت ...دون أن يشعر بها أحد ...